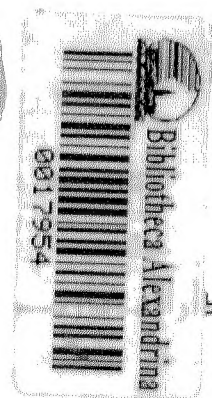


الدكتور محمود محمد الحوري

رؤية في
مخطوط الإمبراطورة الرومانية



رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية

تأليف
دكتور محمود محمد الحويرى
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب بسوهاج - جامعة جنوب الوادى

الطبعة الثالثة
(منقحة)

١٩٩٥ م



دار المعارف

تصميم الغلاف: منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب الذى يشرفنى أن أقدمه إلى القارئ العربى فى طبعته الثانية، تطلب منى شيئاً من المراجعة الجديدة. فأصلحت ما جاء بالطبعة الأولى من الأخطاء المطبعية، وأوردت إضافات من شأنها أن تجنب القارئ بعض الصعوبات التى يصادفها، كذلك وجهت عناية خاصة إلى التعريف فى الحاشية بالأدباء والمفكرين الذين جاء ذكرهم فى المتن.

ولا يسعنى إلا أن أزجى الشكر خالصاً للزملاء والأصدقاء الذين أفدت من ملاحظاتهم الناقدة واقتراحاتهم المفيدة. وأود كذلك أن أشكر أسرة دار المعارف على إنجاز الكتاب فى طبعته الجديدة. والله ولى التوفيق.

د. محمود محمد الحويرى

تكنات المعادى - أكتوبر ١٩٩٢ م

ربيع الثانى ١٤١٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

احتلت الأمبراطورية الرومانية مكانة خاصة في التاريخ، اختلفت عن مكانة غيرها من الدول والأمبراطوريات التي قامت خلال عصور التاريخ. ولا ترجع أهمية هذه الأمبراطورية إلى اتساع رقعتها الجغرافية، التي اشتملت على مواطن أقدم الحضارات التي عرفها الإنسان، إذ ابتدأت في القرن الثالث قبل الميلاد، واستمرت باقية إلى القرن الخامس الميلادي في الغرب الأوربي وإلى القرن السابع في الشرق، ولكن أهميتها ترجع أساساً إلى أنها وقعت تاريخياً في نهاية العالم القديم. فقد تعرضت تلك الأمبراطورية منذ القرن الثالث الميلادي لعوامل الضعف والتفكك من داخلها وخارجها، ففي الداخل استشرى الفساد في جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، ولم تعد روما مركز العالم وحضارته، بعد أن أسس قنسطنطين العظيم عاصمته القسطنطينية في أوائل القرن الرابع، ومن الخارج اشتدت غارات الجرمان والمجربرين على حدود الأمبراطورية، حتى إذا أتى عام ٤٧٦م زالت تلك الأمبراطورية في الجزء الغربي منها، وقامت على أنقاضها ممالك جرمانية عديدة، وهنا لا ينبغي أن نضع في الاعتبار الرأي الذي نادى به بعض المؤرخين من أن عام ٤٧٦ يمثل بداية فترة العصور الوسطى بمعالمها السياسية والحضارية التي اختلفت أشد الاختلاف عما ألفته العصور القديمة بأسرها، وإن كنا في الوقت نفسه نؤمّنس لهم العذر إذا كان الغرض تسهيل دراسة هذه الفترة الزمنية الهامة، التي امتدت ألف عام، وكانت أشبه بالوادي بين جبلين شاهقين أحدهما يمثل الماضي والآخر يمثل الحديث، والواقع أننا لا نستطيع على وجه الدقة أن نضع حداً فاصلاً - أو تاريخياً معيناً - يؤكد نهاية عصر ويبدأ عصر آخر، لأن الأحداث التاريخية متداخلة بطبيعتها، وإن كانت هناك خصائص عامة لفترة الانتقال التي انسلخت خلالها ملامح العصور الوسطى من العصور القديمة، أبرزها انحلال المجتمع

الرومانى، وتأسيس الممالك الجرمانية، والقضاء على الوثنية وظهور الديانة المسيحية، ثم اتخاذها ديانة رسمية للأمبراطورية. ويمكننا أن نلمس فترة الانتقال ونتتبعها بمرجوعنا إلى الوراء عند مستهل القرن الثالث، دون أن نرتبط خلاله بسنة معينة نحدد بها مطلع العصور الوسطى.

وفى هذا الكتاب تناولت بالدراسة أوضاع الفترة الأخيرة من الأمبراطورية الرومانية، وهى فترة زمنية تميزت بتشعبها وشدة تعقيدها، لما حملته بين طياتها من تغييرات وأحداث هامة، تناولت جوانب التاريخ السياسى والعسكرى والدينى والاجتماعى والاقتصادى. وقد استهدفت من وراء ذلك الوقوف على سمات - أو فجر - العصور الوسطى الأوربية. ولابد لى من القول أن تلك الدراسة قد سبقنى إليها أساتذة ثقة أجلاء، متخصصون فى تاريخ العصور الوسطى، ومن ثم لا أزمع أنى أتيت بالجديد فيها. فمن الصعب على أى باحث أن يقدم شيئاً فى موضوع طرقه غيره بعناية، وقد يكون التجديد فى الطريقة - أو الرؤية - التى يعالج بها أحداث الموضوع، مع إبراز لنواح لم يطرقها غيره أو مسها مساً خفيفاً. وهو ما حاولت الوصول إليه، وكان من أسباب اختيار عنوان الكتاب على الوجه الذى صدر به.

وقد خصصت الفصل الأول لدراسة «أحوال الأمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع»، فتناولت ما أصاب تلك الأمبراطورية من ضعف وجمود، انعكسا على جميع أحوالها، ذلك أن الفتوحات قد توقفت، وأضحى على الأمبراطورية أن تحافظ على حدودها، وتدهور النشاط الاقتصادى، وتضاؤل نفوذ طبقة السناات، وانحدرت الطبقة الوسطى، واتعدم النظام بين صفوف الجيش، لاسيما بعد أن استعان الأباطرة بالجند المرتزقة، وأدخلوا البرابرة فى صفوف الجيش، مما أدى إلى القضاء على مجد الأمبراطورية الحربية. وقد تناولت فى ذلك الفصل أيضاً التغير الذى طرأ على المنصب الأمبراطورى، والدور الذى لعبته الفرق العسكرية فى تنصيب الأباطرة، بعد أن اختفت السلطة المركزية، وصارت الولايات تحت حكم زعامات محلية. وفى أواخر القرن الثالث وصل دقلديانوس

إلى عرش الامبراطورية، فأدخل بعض الاصلاحات وأعاد تنظيم الجيش، ثم أتى من بعده قنسطنطين العظيم الذى اعترف بالمسيحية من ناحية، ونقل العاصمة إلى القسطنطينية من ناحية أخرى. ولاشك أن ما قام به كل من هذين العاهلين ساهم فى إنهاء الأوضاع القديمة فى أوروبا.

أما الفصل الثانى وعنوانه «المسيحية والإمبراطورية الرومانية»، فقد تحدثت فيه عن الديانات الوافدة من الشرق، وهى كيبيلى من أسيا الصغرى، وميثراس من فارس، وإيزيس من مصر، وأوضح أن تلك الديانات رغم انتشارها الواسع بين الطبقات الفقيرة والوسطى، إلا أنها لم ترض بعض المثقفين، فاتهموا إلى المذاهب الفلسفية، خاصة الرواقية التى اتفقت مع تقاليد المجتمع الرومانى. وكان أن ظهرت المسيحية التى أعطت الأمل للمواطنين الرومان، وسط ظلام البؤس الذى أحاط بهم، ولكن التعاليم التى أتت بها تلك الديانة قوضت أركان العالم القديم، فحلقت الأذى والاضطهادات باتباعها، حتى كتب لها النصر فى النهاية. كما أُلقيت الضوء على آباء الكنيسة، الذين كان لهم الفضل فى استئصال شائفة الوثنية.

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان «المجتمع الجرمانى وعلاقته المبكرة بالامبراطورية» تناولت فيه عادات ذلك المجتمع وتقاليده، كما وصفها المؤرخ تاكيتوس، وتعرضت لبنائه وجوهر تنظيمه السياسى وبور المرأة فيه. وفى هذا المجال أبرزت تحرك الجماعات الجرمانية من مواطنها الأصلية فيما وراء نهري الراين والدانوب إلى حدود الامبراطورية فى القرن الأول، ثم تتبع غزواتها التى غدت بمثابة ضغوط مستمرة على طول الحدود منذ أواخر القرن الثانى.

أما الفصل الرابع وهو بعنوان «غزوات الجرمان وتأسيس ممالكهم فى غرب أوروبا»، فقد عالجت فيه أهم الجماعات الجرمانية التى اقتحمت حدود الامبراطورية الغربية ومزقت أوصالها، وهى جماعات الهون، والقوط الغربيين، والوندال، والأليمانى، والبرجنديين، والفرنجة. ثم تناولت كيف ظهرت تلك الجماعات تاريخياً، وعينت بتوضيح أحداثها، خاصة بعد أن تغلغت فى أراضي

الأمبراطورية الغربية حتى استطاع بعضها تأسيس ممالك على أنقاض تلك
الأمبراطورية في القرن الخامس الميلادي. والجدير بالذكر أن تلك الجماعات التي
تغلّبت على الأمبراطورية الغربية اختلفت في طابعها، فمنها من نشر الرعب
والفرع في أنحائها مثل الوندال، ومنها من انتهى المطاف بها إلى العيش في وئام
مع الأمبراطورية ونهلت من حضارتها مثل البرجنديين، ومنها من أخذت تحركاتها
طابع الاستقرار، بدلاً من مجرد غزو هدفه الحصول على كسب مادي، مثل
الفرنجة.

وفي الفصل الخامس والأخير وهو بعنوان «سقوط الأمبراطورية الرومانية في
الغرب الأوربي (٤٧٦م)» رأيت أن أبدأ بسنة ٣٩٥م، التي انقسمت فيها
الأمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، مما جعل الأحداث في الشرق والغرب
تسير في طريقين مختلفين. ففي الغرب سيطر القادة العسكريون على مقاليد
الأمور، وصار بيدهم تولية الأباطرة وعزلهم، في الوقت الذي أخذت فيه
الشخصيات الرومانية الطموحة تحارب بعضها بعضاً أملاً في الوصول إلى
العرش. وفي ذلك الفصل بينت أن أحداث الأمبراطورية الغربية في تلك الفترة
المظلمة من تاريخها، لا يمكن فصلها على أحداث الأمبراطورية الشرقية المعاصرة
آنذاك. وقد عالجت انثيال العناصر الجرمانية والمتبربرة على إيطاليا سنة ٤٧٦
بحثاً عن الحظ والمغامرة، حتى استطاع زعيم متبربر عزل آخر أباطرة روما
وإعلان نفسه ملكاً على إيطاليا. وفي نهاية ذلك الفصل أوردت آراء بعض
المؤرخين حول تدهور الأمبراطورية الغربية، وسقوطها فريسة في أيدي الجرمان.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه...

القاهرة في ١٩٨١/٢/٣ م
١٤٠١/٣/٢٨ هـ

د. محمود محمد الحويري

الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية الرومانية في القرنين الثالث والرابع

بلغت الامبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها على عهد الامبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨ م)، قصار حدها الشمالى عند السور الذى شيده ذلك الامبراطور فى بريطانيا وعرف باسمه Hadrian's wall، وقد امتد ذلك السور فوق مرتفعات نورثمبريا، من البحر إلى البحر فى عرض الجزيرة، عبر الجهات الشمالية من مضيق السلواى Solway عند مدينة كارليل Carlisle الحالية غرباً، إلى مصب نهر التاين Tyne عند مدينة نيوكاسل الحالية شرقاً، ليكون حداً نهائياً بين بريطانيا الرومانية واسكتلنده. ثم تمتد الحدود الشمالية من البحر الشمالى حتى البحر الأسود، متبعة خطوط نهري الراين والدانوب، وهى حدود رسمتها الطبيعة. وقد شمل النفوذ السياسى للامبراطورية كل آسيا الصغرى، وشريط يمتد على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، يشمل الشام ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش. ويمكن القول أن أراضى الامبراطورية امتدت حول البحر المتوسط مركز العالم القديم، ذلك البحر الذى لا يدخل فى نطاقه - كما يرى الجغرافيون - مصر العليا وشمال شرقى اسبانيا وشمال إقليم الغال (فرنسا الحالية) والمناطق الممتدة بحذاء الدانوب^(١). غير أن نفوذ الامبراطورية من الناحية الواقعية، لم يقتصر على البلاد الواقعة داخل حدودها السياسية، بل امتد حتى بلغ فارس والهند، وتطرق إلى بلاد النوبة والسودان، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة فى مجاهل أوروبا شرقى الراين وشمالى الدانوب^(٢).

ويعتبر القرنان الاول والثانى فى حياة الامبراطورية الرومانية - بوجه عام - قرنى ازدهار ورقى سلمى، إذ حدثت فيهما عملية صبح غرب أوروبا بالصبغة الرومانية، حتى أننا فى القرن الرابع نجد صورة مغايرة تماماً لما كان مالوفاً فى القرنين الاولين، ذلك أن الامبراطورية كانت قد مرت بفوضى القرن الثالث

(١) Painter (S.), A History of the Middle Ages. 284-1500., (London, 1964), pp. 3 - 4.

4.; Rainer (Robert M.), A Concise History of Britain., (London, 1965), p. 5.,

Hay (Denis), The Medieval Centuries., (London, 1974), p. 3.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، جزمان، (القاهرة ١٩٧٥)، ج ١ ص ١١ - ١٢.

واضطرابات، حتى تغير شكلها، ولم تكد تتماسك إلا بفضل الجهود اليائسة للأمباطوريين دقلديانوس وقنسطنطين^(١). وحتى القرن الثانى أيضاً، تمتعت الأمباطورية بالأمن والسلام، ولم يعكر صفوها إلا بعض الإغارات الخفيفة التى كان يقوم بها جيران الأمباطورية على حدودها. ففي الشرق والجنوب الشرقى، كان البربر فى المغرب والقبائل البدوية فى الصحراء مصدر إزعاج من وقت لآخر، ولكنهم لم يشكلوا خطراً فعلاً، إلى أن جاء الإسلام ووحد بينها، وأمدّها بروح من عنده تخالف ما كانت عليه من قبل. كذلك كانت شعوب البكت Picts والسكوت Scots فى بريطانيا، تعبر سور هادريان أحياناً، وتقوم بإحداث القلاقل وإزعاج الحاميات الرومانية. ولكن الأمباطورية كانت بعيدة عن أية أخطار حقيقية تأتى من ناحيتهم. أما فى الشمال، فيما وراء نهري الراين والدانوب، فقد كان الجرمان يمثلون الخطر الأعظم، ذلك أن التصاقهم بحدود الأمباطورية، فتح أعينهم على ما احتوته ولايات تلك الأمباطورية من ثراء ورخاء، الأمر الذى جعلهم يقومون بإغارات بغية الحصول على غنائم مجزية وخيرات وفيرة. وهنا نلاحظ أن الحكومة الرومانية كانت قادرة على حماية حدودها، ورد غارات الجرمان بالقوة أحياناً، وبالطرق الدبلوماسية أحياناً أخرى. فقد جرى عقد اتفاقيات بين الحكومة الرومانية وزعماء القبائل الجرمانية المجاورة لحدود الأمباطورية، نصت على أن تقوم روما بحماية تلك القبائل من جيرانها، فى مقابل أن تقوم تلك القبائل بمنع رعاياها من الإغارة على أراضي الأمباطورية. وعلى أية حال، فقد قامت القوات الرومانية العسكرية على امتداد جبهتي الراين والدانوب فى القرنين الأول والثانى بواجباتها لكبح جماح الغزاة المحليين، سواء فى صورة شن هجوم واسع أو قيادة حملات تأديبية^(٢). ولكن الأمر اختلف عنه منذ السنوات الأخيرة للقرن الثانى، وابتداء من القرن الثالث، وهو ما سنعالجه بعد قليل.

وعلى الرغم من الحروب الدائرة هنا وهناك على امتداد حدود الأمباطورية، إلا أن السلام - كما ذكرنا - ساد بقاعها الواسعة بنظام الطرق الواسعة الرائعة

(١) Barrow (R.H.), The Romans , (Britan, 1975), pp 163-164. (١)

(٢) Jones (A.H.M.), The Decline World., (London, 1975), pp 10-11. (٢)

الذى ابتدعته العبقورية الرومانية، وحد بين عواصم الامبراطورية ومدنها، من بريطانيا وأسبانيا فى الغرب، حتى نهر الفرات فى الشرق. كذلك قامت المواصلات البحرية بدور حضارى لا يقل شأنًا عن الدور الذى قامت به الطرق البرية، فقد شهد البحر المتوسط حركة ملاحية دائبة، ومياهه التى لم تعرف القراصنة آنذاك، كان لها الفضل فى توحيد المدن الكبيرة القائمة على شواطئه. ولما كان الأمن منتشرًا فى جميع أنحاء الامبراطورية، صار السفر ميسرًا للمواطنين، طلباً للعمل أو للصحة أو للمتعة. ومما ساعد على إتاحة السفر وتسهيله، اللغة الشائعة فى الامبراطورية، وتوفر العملة الدولية الصحيحة، وحماية القوانين، وهى أمور لم تعرفها الامبراطورية فى القرون التالية. وليس أدل على ذلك من أن المرء كان بوسعه السفر من الفرات إلى أسبانيا، مستخدماً لغة واحدة مشتركة *Lingua - Franca* يمكنه التفاهم بها فى كل مكان. وصار من المستطاع سماع من يتحدث باللغة اليونانية فى شوارع المدن التجارية، مثل روما ومرسيليا والاسكندرية وبوردو، وعلى ضفاف أنهار النيل والعاصى ودجلة^(١).

ومن السمات المميزة للامبراطورية الرومانية، اختلافها عن أية امبراطورية أخرى شاهدها العالم القديم. فمنذ اتسعت دائرة نفوذ الرومان، دخلت فى حوزتهم شعوب وأجناس متباينة، مارست أنظمتها الاجتماعية ومعتقداتها الدينية ولغاتها وتقاليدها وقوانينها، دون تدخل من قبل الحكومة الرومانية، طالما أن تلك المعتقدات والنظم لا تتعارض مع سلامة الامبراطورية وأمنها من ناحية، ومادام السكان يدفعون الضرائب المقدرة عليهم من ناحية أخرى. وبروح المرونة الكافية التى أظهرها الرومان تجاه الشعوب الخاضعة لهم، فضلاً عن الوحدة الحضارية والحكومة المنظمة التى أعطوها لجميع العالم المتمدن، لم يعرفوا العنصرية آفة العصور القديمة. وفى الأيام الأخيرة من حياة الامبراطورية، اعتبر سكان الولايات البعيدة «رومانيين» مثل الذين ولدوا فى روما نفسها، وبذلك ألغيت

Lindsay (T M.), "The Triumph of Christianity", in *Camb. Med. Hist.*, Vol. I., pp. (V) 87-88.

الفوارق البغيضة، وصارت جميع الوظائف، بما فيها المنصب الأمبراطورى نفسه، ميسرة لجميع المواطنين شريطة استخدام اللغة اللاتينية فى الأعمال الرسمية والإدارات الحكومية والمعاملات العامة^(١).

ولكن أحوال الأمبراطورية الرومانية أصابها يد التبدل والتغيير فى القرن الثالث، بسبب ما أصابها من ضعف وجمود، انعكسا على جميع أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما أدى فى النهاية إلى القضاء على مجدها الزاهر ومكانتها العالمية. وأيسر ما يقال فى هذا الصدد أن الرومان فى القرن الثالث كانوا يخدعون أنفسهم، صحيح أن البناء الخارجى لمجتمعهم ظل قائماً إلى حد ما، إلا أن روح الأمبراطورية كانت قد ماتت حقيقة من الداخل^(٢). وبمعنى آخر يمكن القول أن المشاكل العديدة التى ألت بالأمبراطورية ابتداء من ذلك القرن وتضافرت ضدها، ساعدت فى المقابل على إيجاد ثغرة استطاعت القبائل الجرمانية والمتبربرة أن تنفذ منها إلى قلب الأمبراطورية، وتعمل على سقوطها فى القرن الخامس.

الحالة الاقتصادية :

واكب فتوحات الأمبراطورية واتساع أملاكها فى أيامها الأولى تدفق الثروات الهائلة عليها، وكان لذلك أثره على ميل الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى إلى الترف والرفاية والإسراف الشديد، والتطلع إلى الكماليات، وتكالب تلك الطبقات - بصفة خاصة - على معدنى الذهب والفضة، اللذين ظهرا فى صورة أدوات للزينة أو أوان وصحاف. ولا ريب أن استغلال الذهب والفضة بهذه الوسيلة أدى إلى تجميدهما واستبعادهما من سوق التداول؛ وظل الوضع على ذلك، حتى بعد أن توقفت الفتوحات، وأضحى لزاماً على الأمبراطورية أن تحافظ على حدودها

(١) Hay, op. cit., p. 4.

(٢) Sinnigen (William G.) and Boak (E. R.), A Hist. of Rome To A.D. 565., Six edition, (U.S.A., 1977), p. 395.

ضد هجمات وإغارات القبائل الجرمانية خلال القرن الثالث، فى الوقت الذى قل فيه الذهب ونضب معينه، ولم تحاول الحكومة البحث عن مصادر جديدة للمعادن الثمينة، تحل محل المصادر المألوفة فى أيام الامبراطورية الأولى^(١). ومن الواضح أن ما جرى من نفقات باهظة حملت الامبراطورية فوق ما لا تطيق، وألقت على كاهل الخزانة عبئاً جسيماً، فقصور الأباطرة الرائعة الضخمة الباذخة، والحشد الهائل من موظفى القصور والخدم والحراس، ونفقات الجيش، وانتشار الرشوة والفساد، وقسوة الموظفين على أهالى الولايات التابعة للامبراطورية، وثقل الضرائب المفروضة، وأعباء الحروب الأهلية، كل ذلك يفسر لنا أسباب المتاعب الاقتصادية التى كانت تعانيها الامبراطورية إبان القرن الثالث. فأصبحت التجارة بالأضرار وتوقفت مسيرتها، ولم تعد طرق البحر المتوسط العظيمة تموج بالأساطيل التجارية الرومانية، بعد أن صارت وكراً يعج بقراصنة البحار. والطرق الرومانية البرية التى كانت دائماً دليلاً على عظمة الرومان وإعجازهم الهندسى، أضحت أطلالاً غير آمنة، لا تخلو من قطاع الطرق، وتبعث الأسى فى النفس لمجتمع عرف تجارة عظيمة يوماً ما^(٢).

وقد أدى استمرار الانهيار الاقتصادى إلى حدوث آثار سيئة على قيمة العملة النقدية المتداولة فى ولايات الامبراطورية. فالغزوات الجرمانية التى تعرضت لها الامبراطورية فى القرن الثالث، بما تخللها من نهب المزارع وإحراقها، وإفساد المحاصيل، وترك مساحات هائلة من الأراضى الزراعية خراباً بلقعا، والحاجة الماسة إلى المال لدفع رواتب الجند، أجبرت الأباطرة على إنقاص قيمة العملة المتداولة. وكان نصيب الدينار الفضى denarius فى التدهور المستمر أكثر من الأوريوس الذهبى aureus وغيره من العملات النقدية الأخرى. ويلاحظ أن قيمة العملات الفضية أخذت فى الهبوط المستمر منذ عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م)، الذى أنقص الدينار إلى خمسة وسبعين فى

Kent (J.P.C.) & Panter (K.S.), Wealth of the Roman World. Gold and Silver. (١)

A.D. 300-700., (British Museum, 1977), p. 15.

Hay, op. cit., p. 5.; Panter, op. cit., pp. 8 - 9.

المائة من الوحدات الفضية، وبلغ مقدار النقص فى قيمته خمسين فى المائة من الوحدات الفضية تحت حكم سبتيميوس سفيريوس (١٩٣ - ٢١١م)، ثم واصل الدينار انخفاض قيمته، حتى صار فى عهد جالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨م) عملة نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الفضة بلغت خمسة فى المائة من الوحدات الفضية. وعلاوة على ذلك، كان السستيريوس البرونزى Sestertius (وقيمته ربع دينار) لا يزال يصدر حتى سنة ٢٧٠ م، ثم اختفى من التداول بسبب الارتفاع الكبير فى الأسعار^(١). والأمر الذى لا خلاف فيه أن إنقاص العملة، وما صاحبها من ارتفاع كبير فى الأسعار، أدبأ إلى «التضخم» inflation. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض من يمتلك عملة فضية خالصة التعامل مع العملات المخلوطة الشائبة، فآدى ذلك إلى اختفاء المعادن الثمينة من التداول، فى وقت كانت الحاجة أشد ما تكون إليها. وفى مثل تلك الأحوال السيئة التى تدهورت خلالها العملة النقدية، أضربت الأسواق التجارية، ورفع التجار أسعار سلعهم. وتعتبر مزاولة التجارة فى مثل ذلك المناخ أمراً متعذراً، فبعد أن كانت قائمة على قدم وساق فى ولايات الأمبراطورية، لا تقف فى سبيلها أية عقبات أو حواجز، وصلت إلى درجة بالغة السوء، فاختلفى الإنتاج الكبير، وحل محله الانتاج المحلى الذى يتم تصريفه محلياً؛ وفى غياب عملة مستقرة، حلت المقايضة فى المعاملات التجارية بين الأهالى، وهى طريقة لا تغى بالغرض المنشود^(٢). ويمكن القول أن ما عرفته الأمبراطورية من ازدهار تجارى فى القرن الثانى، لم يعد بإمكانها استعادته فى معظم أنحاء الغرب الأوروبى، وإن كان هناك استثناء وحيد نلمسه فى الأقاليم البعيدة، مثل بريطانيا، التى وصلت تجارتها إلى مرحلة عالية من التطور فى القرنين الثالث والرابع^(٣).

(١) Charlesworth (M.P.), The Roman Empire., (Great Britain, 1961), pp. 132-133.,

على الغمراوى: دراسات فى تاريخ العصور الوسطى. جزءان (القاهرة ١٩٧٥)، ج١ ص ٨٠-٨١

(٢) Robinson (Cyril E.), A Hist. of Europe: Ancient & Medieval., (U.S.A., 1920), pp. 401-402.

(٣) Cary (M.) & Wilson (John), A Shorter Hist. of Rome., (London, 1963), p. 342;

Grant (Michael), The World of Rome., (London, 1960), p. 67.

ويطبيعة الحال، انعكس التدهور الاقتصادي على الزراعة أيضاً، وكما ذكرنا من قبل، أصبحت حدود الأمبراطورية في القرن الثالث مناطق تتنازعها رياح القلق والفوضى، فانتشرت فيها المعسكرات الرومانية والقلاع والحصون، وأخذت تعج بالقوات المحاربة، وعاد كل ذلك على الزراعة بأوخم العواقب، فنزل بها التلف والخراب، وأصاب الجفاف مساحات هائلة من الأراضي الزراعية، ولحق التدمير بالمزارع ومبانيها ومخازنها، حتى صار من الصعب على مالكي الأراضي الزراعية استصلاح ما تخرّب منها والبدء من جديد، لقلة المال وارتفاع التكاليف، لاسيما محصول القمح. وبات من الواضح أنه منذ منتصف القرن الثالث، لم يعد لأسبانيا فائض من محاصيلها ترسله إلى روما، وصارت أرض مصر الخصبة بوراً، ولذلك اضطر الأمبراطور أوريليان Aurelien (٢٧٠ - ٢٧٥م) وخلفاؤه إلى إصدار قرارات الهدف منها تأمين مزارعين للحقول المهمة، كذلك أدت قلة المحاصيل الزراعية إلى استحالة مواجهة الضرائب الفادحة، التي وقع عبئها على صغار المزارعين والمستأجرين، في الوقت الذي كان فيه كبار الملاك الزراعيين لا يلتزمون بدفع ما يستحق عليهم من ضرائب. وعندما عجز المزارع الصغير عن الوفاء بديونه في موعدها، اضطر إلى رهن أرضه لكبار الملاك الزراعيين، وتحول في نهاية الأمر إلى قن^(١)، أو نزح إلى المدن للانغماس في زحمتها، والانضمام إلى جموع الدهماء الذين ازدحمت بهم المدن الرومانية. وثمة بردية يرجع تاريخها إلى بداية القرن الثالث، وبالتحديد عام ٢٠٢م، توضح حالة الزراعة في ولاية مصر الرومانية، ففيها يطلب أحد ثروة مدينة الاسكندرية من الأمبراطور أن يأذن له بإنشاء صندوق خيرى لإعانة المكلفين بالخدمات الإلزامية في بعض القرى بإقليم أكسورونخوس (البهنسا) لأن هذه القرى على قوله «قد أصبحت من جراء الأعباء السنوية المرهقة الملقاة على عاتق أهلها، مهددة بالخراب، مما يعود بالضرر على الخزانة، ويؤدى إلى ترك أراضي غير مزروعة»^(٢).

Robinson, op. cit., pp. 402 - 403.

(١)

(٢) بل (هـ. أيدرس)، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، نقله إلى العربية وأضاف إليه د.

عبد اللطيف أحمد على، (القاهرة ١٩٦٨)، ص ١١٧.

وفى غضون القرن الثالث أيضاً، لم يعد الحرفيون أسعد حالاً من المزارعين والتجار، إذ أصاب الصناعات ما أصاب الزراعة والتجارة من خراب وكساد، ففقدت بلاد الغال وأراضى الراين الكثير من صناعاتها، واندثرت صناعة الزجاج فى كولون، وصناعة الفخار فى الأجزاء الغربية من الإمبراطورية^(١).

الحالة الاجتماعية :

من المعروف أن المجتمع الرومانى كان مجتمعاً طبقياً، تفاوتت فيه الفوارق بشكل واضح وتناقض بالغ. فالطبقة العليا الثرية الأرستقراطية التى تألفت من العائلات السناتورية الرومانية وكبار الموظفين وأصحاب الملكيات الزراعية الواسعة عاشت فى المدن، غير عابئة بالنظم والقوانين، كان عليها دفع الضرائب للسلطات الرومانية أسوة ببقية الطبقات، ولكنها من الناحية العملية استطاعت التخلص أو التهرب من الكثير منها. كذلك لم تتأثر تلك الطبقة بالآزمات الاقتصادية التى ألمت بالإمبراطورية فى القرن الثالث، إذ امتلك أفرادها الثروات الضخمة، وعاشوا فى قصورهم وسط أملاكهم الواسعة، يحيط بهم الخدم والعبيد، استأجر الكثير منهم حراساً خصوصيين - غالباً من الجرمان - لحمايتهم^(٢). بيد أن اضطرابات الحياة السياسية فى ذلك القرن كان لابد أن تؤثر فى تلك الطبقة، فأخذت أعدادها تتناقص، ونفوذها يتضاقل وينكمش، ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الأباطرة الذين وصلوا إلى العرش الإمبراطورى، قاموا بقتل خصومهم السياسيين من أعضاء السناتو، واستبدلوا بهم رجالاً أقل كفاءة ومقدرة داخل مجلس السناتو، كما صادروا ممتلكات البعض منهم أحياناً؛ وإبان تلك الظروف قل ولاء أعضاء السناتو للحكومة الرومانية، وسرعان ما بدأت التقاليد القديمة التى حرصوا عليها فى الأيام الأولى للإمبراطورية فى

Cary & Wilson, op. Cit., pp. 344 - 345.

Painter, op. cit., pp. 9 - 10.

(١)

(٢)

الانهيار^(١)، حتى أن رتبة السناطورية غدت في القرن الرابع مجرد لقب شرفي يمن به الأمباطور على من يشاء من أتباعه والمقربين إليه، وقد كان سخياً في ذلك^(٢).

أما الطبقة الوسطى القديمة، التي كانت عصب الحياة في المجتمع الروماني، وقامت بدورها الرائع في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة خلال القرنين الأول والثاني، فقد قدر لها أن تنهار تحت وطأة الكوارث الإقتصادية التي ألمت بالامباطورية من ناحية، وتحت عبء المطالب الباهظة التي فرضت عليها من ناحية أخرى وبعد أن كانت تلك الطبقة تؤلف الغالبية العظمى من صغار الملاك، انتهى مصيرها إلى الاضمحلال، وأخذت أعدادها في النقصان تدريجياً، وانحدر أفرادها إلى حالة من البؤس تزيد قليلاً عن حالة الأقنان الذين يعملون في الضياع السنيورية. ومن المشاهد أن العديد من صغار الفلاحين الأحرار، أثروا التخلي عن أراضيهم لكبار الملاك الزراعيين بغية التخلص من أعباء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص، بعد أن طحنتهم متاعب القرن الثالث، وأصبحوا أقناناً Coloni وجب على كل قن Colonus لديه قطعة من الأرض يتولى زراعتها أن يتعهد بدفع إيجارها نقداً أو عينا أو خدمة، وليس من حقه مغادرة الأرض التي يقوم بزراعتها، بعد أن منعت قوانين الامباطورية من ذلك^(٣).

وإذا انتقلنا إلى طبقة العبيد التي كانت تمثل نسبة عظيمة من سكان إيطاليا، نرى أن ثمانين في المائة من العمال في الصناعة وفي تجارة الأشتات كانوا من العبيد، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية في المصالح يؤديها «عبيد عموميون» Servi publici^(٤). وقد عمل العبيد في ظروف صعبة سيئة، جعلت

(١) Downey (Glanville), The Late Roman Empire., (U.S.A., 1969), pp. 6-7.

(٢) إسحق عبيد تاووضروس، الامباطورية الرومانية بين الدين والبربرية، (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٤٢.

(٣) Downey, op cit, p. 47.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، الطبعة الثانية، (القاهرة ١٩٧٣)، مجلد ٣، ج ٢، ص ٢٣٩.

حياتهم بائسة معذبة، ومما يدل على ذلك حالة أولئك العبيد الذين كانوا يعملون في طاحونة، فهم شاحبو الوجه، عرايا إلا بما يكاد يستر عورتهم، علفت أجراس في أقدامهم، وتخذت أجسادهم من جراء العلامات السوداء التي خلقتها ضربات السياط^(١). أما عبيد المنازل كانوا أنواعاً لاهصر لها، تنوعت أعمالهم، وقد لاقوا العذاب والاضطهاد والقسوة على يد ساداتهم الذين اختلفت أهواؤهم ومشاربهم، فكانوا أحياناً يقتلون وأحياناً يضربون، ويمكننا ان نلمس المعاملة السيئة التي لقيها عبيد المنازل إذا علمنا أن أحد السادة الرومان كان يصر على أن يقف خدمه حول المائدة صامتين، وكان يعاقب من يعطس منهم بالجلد، كما كان يحدث أن تأمر سيدة رومانية بجلد خادمتها إذا، ماضايقها اضطرابها في تصفيف شعرها^(٢). على أن متاعب العبيد أيام الامبراطورية أخذت تقل شيئاً فشيئاً إثر قبولهم أعضاء في الأسر التي كانوا يخدمونها، يضاف إلى ذلك أن العبد كان بإمكانه الإفلات من أغلال العبودية، وينال حريته عادة في ست سنوات، بفضل أمانته وتقانيه في خدمة سيده. كما أن ضعف الحكومة الرومانية في القرن الثالث، جعل فرار العبيد من ساداتهم أمراً سهلاً ميسوراً.

ومن الملاحظ أن سكان الامبراطورية خلال القرنين الثاني والثالث قد نقص عددهم إلى حد كبير، بسبب المجاعات والأوبئة والطواعين التي انتشرت آنذاك. ومن أسباب النقص أيضاً إغراض الرومان عن الزواج، بعد أن ساء سلوكهم وحادوا عن طريق الجادة، حتى أن المؤرخ أميانوس مارسيلينوس^(٣)

(١) Bury (J.B.), A Hist. of the Roman Empire from its foundation to the death of (١) Marcus Aurelius (27 B.C. - 180 A.D.), (London, 1930), pp. 592 - 593.

(٢) Charlesworth, op. Cit., pp. 72 - 73.

(٣) ولد أميانوس في أنطاكية لعائلة نبيلة من أصل يوناني، والتحق بالخدمة في الجيش الروماني تحت أمرة القائد أرسكينوس حاكم إقليم نصيبين. وقد رافق أميانوس الأمبراطور جيواليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣ م) في حملاته ضد الجرمان و ضد الفرس، وقد خدم أميانوس أيضاً على عهد الإمبراطور جوفيان. وفي نهاية المطاف اعتزل أميانوس الجيش وسافر إلى روما، حيث بدأ في كتابة تاريخ الدولة الرومانية باللغة اللاتينية، وتاريخه يعتبر مكملاً لكتاب المؤرخ الروماني تالكيتوس. وأميانوس مؤرخ أمين واضح الفكر، نزيه الحكم وواسع الاطلاع، ويعطينا وصفاً رائعاً

Amianus Marcellinus (٣٢٥-٣٩١) يرى أن جميع المآسى التي تعرضت لها الامبراطورية، إنما ترجع إلى الفساد والتدهور الخلقى اللذين تغلغلا في جوانبها^(١). والحقيقة أن الرومان كانوا يميلون إلى الإكثار من النسل، ولكنهم خلال الفترة التي نتناولها، نظروا إلى الزواج على أنه مفامرة قصيرة الأجل، خالية من كل معنى روحى، من السهل التحلل منه؛ وكانت موانع الحمل واسعة الانتشار، ورغم أن الفلاسفة والمشرعين كانوا يحرمونها، إلا أن أرقى الأسر الرومانية كانت تلجأ إليها^(٢).

الجيش :

صار من الصعب على الامبراطورية الرومانية الحفاظ على تماسك جيشها وقوته، بعد أن بلغت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة نهايتها المريعة. وليس من شك أن تلك الأوضاع انعكست بدورها على الجيش، ولعبت دوراً لا يستهان به في تشويه بنائه. فبعد أن كان الجيش رمزاً لعظمة الامبراطورية، انعدم النظام فيه خلال الفترة التي نتحدث عنها، وتحول إلى أداة خربية لاتصلح للقيام بواجباتها، ومن ثم اضطر الأباطرة إلى الاعتماد على القبائل المتبربرة فى حراسة الحدود، تلك القبائل التي كان واجب الجيش الرومانى كبح جماحها والقضاء عليها، أما القوات الرومانية النظامية فقد تركز معظمها فى المدن للقيام بواجب الحراسة. وإذا عدنا إلى الوراء نجد أن الجيش الرومانى كان يتألف من المواطنين الأحرار أو المؤهلين لنيل حقوق المواطنة الرومانية، ولكن عندما عانت

= للمعارك التي خاضها بنفسه، كما يعطينا صورة لا بأس بها عن أحوال الامبراطورية الرومانية فى النواحي الاجتماعية والاقتصادية. أنظر : إسحق عبيد : من أليك إلى جستنيان، الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١٥٨ - ١٥٩.

Katz (S.), The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe., (New York, (١) 1955), pp. 70 - 71.

إبراهيم طرخان : نهاية الامبراطورية الرومانية فى الغرب (١٩٧٦م)، مجلة كلية الآداب - جامعة

القاهرة، مجلد ٢٠، ديسمبر ١٩٥٨، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) ديورانت : قصة الحضارة، مجلد ٣، ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

الامبراطورية من جراء غزوات البرابرة، وعجزت عن السيطرة على حدودها الواسعة المترامية الأطراف، لجأ الأباطرة إلى إحلال الجند المرتزقة - خاصة الجرمان - فى ذلك الجيش^(١). ومما زاد الأمور تعقيداً أن الأباطرة أخذوا فى إحالة الضباط النظاميين ممن ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية إلى الاستبداد، خشية تمردهم واستئثارهم بالسلطة، وتعيين ضباط محترفين من أبناء الشعوب الأجنبية، كل ماكانوا يصبون إليه المغامرة وتحقيق المطامع الشخصية على حساب الأهداف القومية للرومان، وقد أدى هذا إلى وصول بعض الانتهازيين إلى مناصب عسكرية عليا، بل وإلى قيادة الجيش الامبراطورى^(٢). وهنا نلاحظ أن الفرق المرتزقة من الجرمان وغيرهم من الشعوب الأجنبية، صارت عبئاً على الامبراطورية، ظهر خطره واضحاً بعد إنتهاء حكم الامبراطور سبتيميوس سيفيروس سنة ٢١١م، إذ دأب خلفاء هذا الامبراطور على كسب ودهم، وإغداق الهبات عليهم، مما أدى إلى القضاء على هيبة الامبراطورية ومجدها الحربى^(٣)، كما سنرى فيما بعد.

وبعد أن كان ضباط الجيش أداة لتنفيذ مشيئة الامبراطور والقوة التى يعتمد عليها فى الأيام الأولى للامبراطورية، تغير الوضع فى القرن الثالث، فصار بإمكان أى ضابط الوصول إلى عرش الامبراطورية، طالما كان بوسعه الاحتفاظ بإخلاص الفرق العسكرية التى أخذت تتحكم فى مصير الأباطرة^(٤). هذا بالإضافة إلى أن الحروب الأهلية التى اشتعل أوارها سنين طويلة، ونشرت الفوضى، استنفذت قوى الامبراطورية، وأخذ الامبراطور الذى يخرج منتصراً، يقيم نفوذه وسلطانه ويؤمن حياته على الدكتاتورية العسكرية، فيتملق الجنود، ويرفع أجورهم، ويمنحهم الأراضى، ويتحمل استبدادهم بالأهالى فى الولايات، ولاريب أن الناس عانوا من تسلط الجنود ونهبهم وتخريبهم، وقد جاء التماس من

Hay, op. Cit., p. 4.

(١)

(٢) على الغمراوى: دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جزءان (القاهرة ١٩٧٥)، ج١ ص ٧٣-٧٥

(٣) إبراهيم العلوى : المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٢١.

Painter, op. Cit., p. 7.

(٤)

آسيا الصغرى أرسل إلى روما «أننا نتعرض لأقصى أنواع الظلم والضغط على أيدي أولئك الذين من واجبهم حماية الناس، كالضباط والجنود وحكام المدينة»^(١).

المنصب الامبراطورى (السلطة الامبراطورية) :

كان حكم أوكثافيانوس أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤م) بداية لفترة جديدة فى التاريخ الرومانى، حددت مجرى التطور السياسى للامبراطورية فى العصور التالية. ذلك أنه لم يجمع كل السلطات فى يده كما فعل يوليوس قيصر، لحرصه على مراعاة التقاليد الدستورية القائمة، ولم يقبل أى مركز يكسبه سلطة أوتوقراطية (استبدادية). بيد أن السلطات الواسعة التى تمتع بها أوغسطس جعلته يفوق كافة الرومان فى النفوذ الذى كان قادراً على ممارسته فى الدولة، نظراً لمركزه السياسى، ومن هنا أطلق عليه لقب Principis أى المواطن الأول أو الرئيس. إذا كانت سلطة أوغسطس من الناحية الواقعية مطلقة، إلا أنه لم ينهج نهج يوليوس قيصر الذى انتهك الدستور معتمداً على القوات العسكرية التى كانت تحت أمرته، ولم يعط وزناً للنظم الجمهورية القديمة، ومشاعر الرومان، ولكنه - أى أوغسطس - أعاد بناء الدولة من نفس مواد بناء الجمهورية، بمعنى أنه غير نظام الحكم الجمهورى فى الجوهر وإن احتفظ به فى المظهر، حتى أنه بانتهاء حكمه بدأت تختفى المظاهر الجمهورية. وقد ارتكزت سلطة أوغسطس أو المواطن الأول على الارتباط الوثيق بعمل السناتو، الذى كان فى حاجة إلى مساعدته كى يتمكن من إدارة دفة العالم الرومانى، لقد كانت لاتزال هناك آثار ضئيلة من نظام الحكم الجمهورى، كتوزيع السلطات - على الأقل من ناحية الشكل - بين الامبراطور والسناتو، لكن الحكم تطور بعد ذلك بتولى دقلديانوس العرش ليصبح استبدادياً مطلقاً.

وإذا انتقلنا إلى القرن الثالث، نجد أن الامبراطورية قد تعرضت لغزوات الشعوب الجرمانية. ومرت بحالة من الفوضى اختفت خلالها سلطة الحكومة

Barrow, 'The Romans.', pp. 165 - 168.

المركزية تقريبا، حتى صارت الولايات تحت حكم زعامات محلية، ووصلت الأمور إلى حد بالغ الخطورة لم تعرفه روما منذ الحروب الأهلية في القرن الأول قبل الميلاد. ويكفى دليلاً على ذلك أن فترة الخمسين عاماً الواقعة بين موت الامبراطور الكسندر سيفيروس Alexander Severus سنة ٢٣٥م واعتلاء دقلديانوس العرش سنة ٢٨٤م، التي يطلق عليها الباحثون المحدثون «القوضى العسكرية» شهدت حروباً أهلية تعاقب خلالها أباطرة على العرش بطريقة غير طبيعية. أتى كثير منهم إلى الحكم بطريق العنف والاغتيال والالتواء، لم يكن لهم إلا الاسم فقط؛ وفي خلال تلك الفترة أيضاً لم ينعم كرسى الامبراطورية بالاستقرار، فأطول مدة حكم بلغت سبع سنوات في عهد فاليريان (٢٥٣ - ٢٦٠م)، وثمانى سنوات خلال عهد ابنه جالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨م)؛ ومما يثير الدهشة أن ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين امبراطوراً ارتقوا عرش الامبراطورية في تلك الفترة القصيرة، مات الكثير منهم بطريق العنف والاغتيال، والقليل منهم من مات على فراشه^(١).

وفي نفس هذا القرن أخذت مشكلة التعاقب على العرش أو وراثة العرش تتفاقم، فقبل ذلك القرن لم تكن هناك عقبات تقف في طريق وراثة المنصب الامبراطورى، خاصة إذا خلف إمبراطور قدير ولداً يتميز بالمقدرة أو الكفاءة، أو إذا أتاحت الظروف لذلك الامبراطور أن يتبنى زميلاً له جديراً بعرش الامبراطورية. بيد أن أحوال المنصب الامبراطورى قد أوضحت منذ القرن الثالث أن العصر الذهبي للامبراطورية قد ولى إلى غير رجعة، وأن عصراً جديداً هو عصر الاباطرة العسكريين soldier - emperors قد بدأ. وفي ظل غياب السلطة المركزية، صارت الولايات تحت حكم زعامات محلية، وأضحى بالإمكان تنصيب امبراطور في مكان ما غير روما مقر الحكومة الرومانية. وفي الوقت الذي كان فيه واجب الفرق العسكرية دفع الأخطار الخارجية عن الامبراطورية، صار هدف قوادها الوصول إلى المنصب الامبراطورى، وبلغ الأمر بتلك الفرق أن أضحى

Downey, *The Late Roman Empire*, p. 4; Robinson, *A Hist. of Rome*, pp. 396 (A) 397.

باستطاعتها المناداة بقائد عادي خامل الذكر امبراطوراً في إحدى الولايات، إدراكاً منها للمكاسب الوفيرة التي ستعود عليها عندما يصير ذلك القائد امبراطوراً^(١).

وفي ذلك الجو الذي صار فيه ارتقاء العرش الامبراطوري أمراً تتحكم فيه أهواء الجيش، افتقد مجلس السناتو سلطاته تماماً وأهمل شأنه، وبعد أن كان ذلك المجلس تجسيداً حياً للاستقرائية يوماً ما صارت مهمته قاصرة على تأييد رغبات الامبراطور الجالس على العرش، حتى أن الموافقة الشكلية التي كان يبيدها السناتو في تنصيب الأباطرة ضرب بها عرض الحائط، ولم تعد أمراً مرغوباً فيه آنذاك. وهنا نلاحظ أن السناتو كان يتمرد على وضعه الشائن أحياناً عندما يعتلى العرش امبراطور ضعيف، فيمارس نفوذاً ضئيلاً، ولكنه كان يقف موقف العاجز أمام قوة جيش زاحف على روما يريد تنصيب أحد القواد المنمردين على عرش الامبراطورية. والحق أن المنصب الامبراطوري إبان أزمة القرن الثالث أخذت أحواله تزداد سوءاً على مر الأيام، ففضلاً عن أنه انطوى على المخاطر، لم يعد يخلو عهد أى امبراطور من أخطار خارجية تدفعه إلى التحرك، أو منافسين طامعين في العرش من الداخل، وأحياناً الاثنين معاً^(٢).

ومن المشاهد أن الأباطرة العسكريين قد أحاطوا مناصبهم بهالة من قدسية، فكما كان الحال في ممالك الشرق منذ أقدم العصور، أضفى على الامبراطور طابع الألوهية والقدسية، فكل ماله مساس بشخصه مستمد من مفاهيم دينية مقدسة يفرضها على الشعب الروماني^(٣). وبعد أن كان الامبراطور في أوائل عصر الامبراطورية المواطن الأول أو الرئيس، أخذ حكمه الآن يميل إلى الاستبداد، وصارت بيده مقاليد الأمور، والحل والنهي، مادام يستمد سلطته

Downey, op., cit., p. 7; Stephenson (C.), Medieval History, Europe from the see (١) and to the sixteenth century, Fourth edition, (U.S.A., 1962), p. 29

Downey, op. cit., pp. 7 - 8. (٢)

(٣) نورمان نيز - الامبراطورية البيزنطية، ترجمة د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، (القاهرة

بمقتضى قوى إلهية. ولم يعد خافياً على الناس أن أوريليان عندما اعتلى عرش
الأمبراطورية سنة ٢٧٠م، كان هو السيد والإله Dominus et deus، بهذه
الصفات حدد أوريليان المعنى النهائي لمفهوم السلطة الأمبراطورية، التي سوف
تتبلور على عهد دقلديانوس^(١).

الأخطار الخارجية :

تعرضت الأمبراطورية الرومانية، فضلاً عن المشاكل الداخلية التي لازمتها،
لأخطار خارجية على حدودها، من قبل أعدائها الجرمان المتبربرين والفرس. وهنا
يجدر بنا أن نذكر أنه قبل انتهاء القرن الثاني، ازداد الضغط على حدود
الأمبراطورية بتحريك القبائل الجرمانية المستقرة على جبهتي الراين والدانوب،
وجرى قيامها بإغارات مكثفة وصلت داخل تلك الحدود. وحتى أواخر القرن الثاني
أيضاً، كانت الجيوش الرومانية قادرة على حراسة الحدود ورد أى اعتداء يقع
عليها بفضل أباطرة أمثال ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م) الذي قضى غالب
فترة حكمه محارباً للجرمان، واستطاع فعلاً أن ينجح فى حماية جبهة الراين.
ولكن الوضع سرعان ما تغير على الحدود في النصف الأول من القرن الثالث،
ففى شمال منطقة الراين الأدنى دخلت قبائل الجرمان فى حلف عرف باسم
الفرنجة، وفى الجنوب تأسس حلف من قبائل متباينة اتخذ اسم الأليمانى، وفى
جنوب منطقة الدانوب الأدنى تآلف حلف من قبائل القوط والماركوماني - Marco-
mani وغيرها، وكان أن اقتحمت تلك القبائل دفاعات الأمبراطورية وحصوننها،
سعيًا وراء الطعام والأسائب فتهدت إقليم النخاع المعروف بثرواته العظيمة،
وتمت فى زحفها جنوباً حتى واصلت زحفها حتى استطاعت التوغل داخل شمال
النهب، وواصلت القبائل المغيرة زحفها حتى استطاعت التوغل داخل شمال

(١) على الغمراوى : دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ج ١ ص ٦٩ - ٧١؛ مدخل إلى دراسة
التاريخ الأوربي الوسيط، (القاهرة ١٩٧٧ م)، ص ١٩١.

إيطاليا^(١). ولم يكف الأمبراطورية ما أحدثه الجرمان من متاعب لها، فعلى عهد الأمبراطور فاليريان (٢٥٣ - ٢٦٠م) دأب البربر والبدو الرحل على الإغارة على أملاك الأمبراطورية في ولاية أفريقية الرومانية، ونهب مدنها ومزارعها^(٢).

أما في الشرق، فقد واجهت الأمبراطورية الرومانية خطراً جديداً أتى هذه المرة من دولة الفرس، ذات الحضارة العريقة التي تفوق حضارة روما. والحق أن الصراع بين الفرس والرومان صراع قديم، تناولته الأحداث التاريخية في الشرق قبل حقبة الميلاد. فبعد وفاة الاسكندر أثناء إقامته في بابل إثر حمى شديدة قضت عليه في سنة ٣٢٣ ق.م بعد عدة أيام وهو في الثانية والثلاثين من عمره، حدث صراع بين خلفائه، استلما ع خلاله سلوقس Seleucus أحد قادة الاسكندر أن يضع يده على الجزء الأكبر من آسيا الغربية، حيث أسره السلوقيين التي بدأ حكمها منذ عام ٣١٢ ق.م. وكانت فارس في بداية حكم تلك الأسرة جزءاً من الدولة السلوقية، ولكن لم يمض طويل وقت حتى أخذت تلك الدولة في الضعف والانهيار. في سنة ١٠١ ق.م انشق في بارثيا (خراسان الحالية) من أن يرفع لواء العصيان على السلوقيين في عام ٢٥٦ ق.م، ويدخل في حروب متعددة معهم، انتهت إلى التغلب عليهم وتأسيس دولة الأرشكيين أو البارثيين في عام ٢٥٠ ق.م أو ٢٤٩ ق.م^(٣). على أن دولة الأرشكيين انقرضت في عام ٢٤٤ م من جراء ضعفها المتزايد يوماً بعد يوم، وبعدها عن أن تستقر، نشأ من الحروب الأهلية التي أشعل أوارها طمعاً في العرش، وكثرة الثائرين ضدها، وكيفما كان الأمر، فقد انتقل الحكم في فارس إلى الأسرة الساسانية، التي ظلت قائمة حتى الفتح

Hoyt (Robert S.) & Chodorow (Stanley), Europe in the Middle Ages., (U.S.A., (١) 1976), p. 22; Jones (A.H.M.), The Decline of the Ancient World, (London, 1975), pp. 11-12.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٢١.

(٣) حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة د. محمد نور الدين عبد المنعم، د. السباعي محمد السباعي، ومراجعة د. يحيى الخشاب، (القاهرة ١٩٧٩)، ص ١٧٧ - ١٧٨.

العربي لفارس فى القرن السابع الميلادى. وفى عهد تلك الأسرة تغير الموقف الفارسى تغيراً واضحاً، ذلك أن ملوكها أوجدوا حكومة مركزية قوية، استطاعت القضاء على الغتن، وإحياء الديانة الزرادشتية القديمة Zoroastrianism التى كان لها الفضل فى إيقاظ الروح القومية الفارسية، بعد أن تأثرت الإمبراطورية الفارسية بالحضارة اليونانية من حيث الدين واللغة، إثر مجىء الاسكندر الأكبر إلى فارس، وسرعان ما ادعى الساسانيون أنهم ورثة الأسرة الأخمينية (الهخامنشية) Achaemenid dynasty التى حكمت فارس قبل أن يزحف الاسكندر عليها، ونادوا بأحقيتهم فى جميع الولايات التى حكمها داريوس - الذى كان معاصراً للاسكندر - وهى مصر وسوريا وآسيا الصغرى، واعتزمو استردادها من الرومان^(١).

ويبدو أن فارس كانت العدو القوي المنيع الذى فاق فى صلابته جميع القبائل الجرمانية وقتذاك (القرن الثالث)، ولذا صار على الإمبراطورية الرومانية أن تواجه خطر ذلك العدو على جبهة الفرات، وبمعنى آخر لابد لها من تعزيز تلك الجبهة، رغم ما كانت تعانيه من نقص فى الرجال، وعلى أى حال، بدأ الاحتكاك بين الفريقين - الفرس والرومان - عندما قام أردشير الأول مؤسس الأسرة الساسانية بعبور نهر الفرات سنة ٢٢٨م، وعندئذ كتب إليه الإمبراطور الاسكندر سيفيروس (٢٢٢ - ٢٣٥م) رسالة يذكره فيها بالهزائم التى حاقّت بالبارثيين على أيدي الأباطرة تراچان وسبتيوس سيفيروس، الأمر الذى أثار حفيظة أردشير الأول، فأختار أربعمائة من الرجال الأشداء ذوى القامات الفارعة فى كامل عدتهم وأسلحتهم، وأرسلهم إلى الإمبراطور الرومانى، وأجابه بقوله: «إن ما يملكه الرومان فى آسيا هو إرث لى، ويجب على الرومان الاكتفاء بأوروبا والانسحاب من آسيا!». ثم دارت المعارك بين الجانبين، انتهت إلى وقوع نصيبين وحران تحت سيطرة أردشير؛ وكان بإمكان أردشير أن يدخل سوريا منتصراً، ولكنه انحرف

Jones, op. cit., p. 12,

(١)

أسد رستم . الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، (بيروت ١٩٥٥)، ج١ ص ٤٥ - ٤٦.

عنها إلى أرمينية، فوقعت في يده بعد مقاومة شديدة^(١). وواصل الفرس انتصاراتهم على الرومان، التي بلغت ذروتها عندما استطاع سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م) - ابن أردشير الأول - أن ينزل الهزيمة الساحقة بالامبراطور فاليريان عند الرها ويأسره في عام ٢٦٠م، الأمر الذي زاد من عظمة الأسيرة الساسانية في نظر العالم آنذاك. ويروى أن سابور قيد يدي الإمبراطور الروماني بالسلاسل، وأجبره على خدمته، فكان يضع قدميه على ظهره أثناء ركوبه، إلى أن أقنى فاليريان حياته أسيراً بائساً^(٢)، ولم يعرف شيئاً عن مصيره. ولاريب أن هيبة روما في الشرق الأدنى قد تأثرت من جراء تلك الكارثة، فلم تعد إليها كما كانت من قبل، كما أنه جرى انغماسها منذئذ في حروب مع الجيوش الفارسية، بدا فيها تخاذلها واضحاً. ولعل أهم ما كشفت عنه تلك الحروب أن الإمبراطورية الرومانية لم يعد بوسعها المحافظة على حدودها التقليدية في الشرق إلا بصعوبة بالغة^(٣).

وأخيراً في النصف الثاني من القرن الرابع، أراد الإمبراطور جوليان (٣٦١- ٣٦٣م) أن يضع حداً للخطر الفارسي، فأتى بجيوشه إلى أنطاكية في خريف عام ٣٦٢م، وبدأت الحرب بينه وبين الفرس في العام التالي التي انتهت بانتصاره وفرار الجيش الفارسي. وعندئذ أخذ جوليان يتعقب الفرس المنتهزين، فعبر على رأس جيوشه نهر الفرات، ثم نهر دجلة، ولكنه لاقى صعوبات بالغة، وكاد يلاقى الهزيمة من جراء الخطة التي اتبعها الفرس أثناء تقهقرهم، وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات في كل جزء يخلونه من البلاد. ورغم ذلك تقدم الجيش الروماني حتى طرق أبواب طيسفون (المدائن عاصمة فارس) Ctesiphon وضرب عليها الحصار، ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها لعجزه عن الحصول على المؤن، وعندئذ

(١) حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٦ - ٢٢٧، أسد رستم، الروم، ص ٤٧.

(٣) موس : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة د. السيد الباز العريني، القاهرة (١٩٦٧)، ص ٢٣ - ٢٥.

لجأ سابور الثانى إلى الحيلة، فاختار رجلين من أشراف الفرس، وجدع أنفيهما، وأمرهما أن يذهبا إلى جوليان ويدعيا أنهما فرا من عند الملك الفارسى لقسوته عليهما، ثم يقودانه إلى صحراء قاحلة، وفعل الرجلان ما أمرا به، وصدقهما جوليان، ولكنه لم يلبث بعد أن سار مسافة عشرين ميلاً حتى وجد نفسه فى صحراء جدياء، فادرك الكمين الذى نصب له؛ وبينما كان يحاول إنقاذ رجاله أصابته حربة، فسقط عن ظهر جواده، وأسلم الروح وهو فى الثانية والثلاثين من عمره^(١).

ومن الأخطار الخارجية التى واجهتها الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث أيضاً، وأعطت دليلاً آخر على ضعفها، ظهور دولة تدمر Palmyra التى لم تكثف بالخروج على طاعة روما، بل أعلنت تحديها بالاستقلال عن نفوذها. وكان الرومان قد استولوا على تدمر فى القرن الأول الميلادى بعد أن أدركوا أهميتها التى إستمدتها من وقومها على طريق القوافل التجارية بين موانئ سوريا على البحر المتوسط والفرات من ناحية، وعلى تلك التى تصل شبه الجزيرة العربية بشمالى سوريا وأعالى العراق من ناحية أخرى. وقد بدأت تدمر تلعب دوراً مستقلاً عن الامبراطورية الرومانية عندما قام الملك الفارسى سابور الأول بالهجوم على أملاكها فى الشرق، واستدعى الأمر وجود الامبراطور فاليريان كما ذكرنا من قبل. بعد ذلك استطاع أذينة بن السميدع الذى عرفه الرومان باسم سبتيميوس أوديناثوس Septimius Odenathus حاكم تدمر أن يحوز ثقة الامبراطور جالينوس Gallienus (٢٦٠ - ٢٦٨) - ابن فاليريان - بعد أن ساعده فى حروبه ضد فارس، ويبدو ذلك جلياً عندما تصدى أذينة لسابور أثناء رجوعه من أسيا الصغرى إلى فارس، وبدأت الحرب بينهما التى انتهت بانتصار أذينة وإذلال سابور، حتى أنه بلغ نهر دجلة بصعوبة بالغة. ويرجع إليه الفضل أيضاً فى استعادة المناطق الرومانية التى انتزعها الفرس فى أعالى العراق، بل ونقل ميدان الحرب بين الفرس والرومان إلى طيسفون عاصمة فارس. ونظير

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، مجلد ٤، ج ١، ص ٤٢ - ٤٥.

الخدمات الجليلة التي أداها أذينة للجيش الرومانى، منحه جالينوس لقب إمبراطور Imperator أى زميلاً له، وأمر بوضع صورته مع صورة الإمبراطور على النقود التي أخذت غنيمة من الفرس، كما عهد إليه مهمة الإشراف على المنطقة الواقعة بين مصر وآسيا الصغرى، حدث ذلك فى الوقت الذى أطلق فيه أذينة على نفسه ملك تدمر وملك الملوك، رغم أنه كان لا يزال تابعاً للإمبراطورية الرومانية^(١). وبعد أن مات أذينة فى سنة ٢٦٧م انتقلت السلطة إلى زوجته الجميلة الموهوبة زنوبيا (الزباء) Zenobia، التي تميزت بجلدها وثباتها وشجاعتها وبراعتها فى الحكم، بالإضافة إلى أنها جمعت كثيراً من أسباب الثقافة ورجاحة العقل، فأحاطت نفسها فى بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين. وهنا نلاحظ أنه بموت أذينة انتهت السلطة التي خولتها روما إياه وحده، بوصفها امتيازاً شخصياً له، ورفض الإمبراطور جالينوس تجديد صلاحيتها لزنوبيا وابنها فابالاثوس Vaballathus، الأمر الذى بعث الاحتقار فى قلب زنوبيا للرومان والإمبراطور جميعاً. وفى غمرة هذه الأحداث التي كان الفرس والرومان مسرحاً لها، استطاعت زنوبيا أن تحافظ على تاج تدمر لابنها، الذى عرف عنه أنه كان أداة طيعة فى أيدي أمه. على أى حال، اعتزمت زنوبيا، بعد أن أدركت ما وصلت إليه الإمبراطورية من ضعف، إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدتين، بمعنى أرادت زنوبيا أن تلعب دوراً مستقلاً فى الشرق. ومن أجل الوصول إلى هدفها، كرست كل ما لديها من نشاط دائم، ومواهب عظيمة، ومقدرة فذة. وفى عزم وتصميم بالغين أعلنت استقلالها عن روما فى عام ٢٧٢م، ولم تلبث أن سارت على رأس جيوشها، حتى وصلت مشارف مصر أهم مستودع يمد روما بالقمح، وتمكنت من فتحها والاستيلاء عليها فترة قصيرة. ولاريب أن مطامع زنوبيا وما وصلت إليه أثارت مخاوف الإمبراطور أوريليان Aurelian الذى اعتلى عرش الإمبراطورية سنة ٢٧١م. فأخذ يفكر جدياً فى الإطاحة بزنوبيا، والقضاء على

Sinnigen (William G.) & Boak (E.R.), A Hist. of Rome to A.D. 565. Six edition, (١) (U.S.A., 1977), pp. 393-394.

محاولة الاستقلال التي قامت بها، وكان أن زحف على رأس قواته نحو الشرق في العام التالي (٢٧٢م)، وتمكن من استرداد المناطق التي استولت عليها زنوبيا في آسيا الصغرى، ثم واصل تقدمه حتى بلغ أنطاكية التي هجرها الأهالي قبل أن يقترب الأمبراطور منها، ولما وصل مدينة حمص التقى مع زنوبيا في معركة عنيفة، انتهت إلى الحاق الهزيمة بزنوبيا وارتدادها إلى تدمر، حيث قبعت داخل أسوارها، ولكن الأمبراطور ما لبث أن تعقبها، وألقى حصاراً عنيفاً على المدينة في نفس العام، انتهى بسقوطها في يده، وأسر زنوبيا أثناء محاولتها الفرار إلى فارس. وهكذا أخفقت زنوبيا في تحقيق ما هدفت إليه، وقدر لها أن تسير مكبلة بالأغلال في موكب أوريليان أثناء دخوله روما مكلاً بتاج النصر، وفي العاصمة سمح لها بأن تقضى البقية الباقية من حياتها حرة إلى حد ما^(١).

دقلديانوس : (٢٨٤ - ٣٠٥)

وهكذا عمت الفوضى الشاملة أرجاء الأمبراطورية في القرن الثالث، فلم يعد الانسان أمناً على حياته أو معيشتة، وتفشت الأوبئة والأمراض. وصار حدوث المجاعات أمراً مألوفاً، وتكررت غزوات الجرمان والبرابرة على الحدود، ناهية المدن القديمة التي كانت مولداً وبراساً للحضارة، وبعد أن كان أهالي تلك المدن ينعمون بالحياة الهادئة طوال عدة قرون، وينحصر جل تفكيرهم في الحصول على الكماليات والسلع الترفيحية، صاروا عاجزين عن الوقوف أمام الخطر الجرمانى، ولم يعد بوسعهم أن يفعلوا شيئاً سوى تقوية تحصيناتهم داخل مدنتهم، تاركين ضواحيها فريسة للسلب والضياع، فنهبت المزارع، وأتلفت المحاصيل، وترك مساحات هائلة من الأراضي الزراعية الخصبة بوراً؛ وكان من الطبيعى أن تمتد يد الفوضى والخراب إلى الصناعة والتجارة، فانهارت تقاليدهما ونظمهما^(٢).

Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 394 - 395; Chapot (Victor), Le Monde Romain., (١) (Paris, 1951), p. 81; Cary (M.) & Scullard (H.H.) A Hist. of Rome. Third edition, (London, 1975), pp. 513-514.

Robinson, op. cit., p. 401. (٢)

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة بجذورها فى أعماق الأمبراطورية، خاصة بعد انتهاء حكم أسرة سيفيروس سنة ٢٣٥م، بدت الأمبراطورية فى حاجة ملحة إلى أباطرة ينتشلونها من وهبتها، ويعملون على إنقاذها مما تمكن بأرجائها من مظاهر الضعف والانحلال من ناحية، والأخطار الخارجية التى تهددتها من ناحية أخرى.

وقيض للأمبراطورية جندى رقيق الحال فلاح الأصل، من إقليم دلماشيا المطل على البحر الأدرياتي، هو الأمبراطور دقلديانوس، ليقوم بتدارك موقف الأمبراطورية المتداعى، ومعالجة مشاكلها المتفاقمة. ولا نجافى الحق إذا قلنا أن دقلديانوس تمتع بشخصية قوية شجاعة أثارت الهيبة فى نفوس رعاياه، لاسيما بعد أن خلع على نفسه صفة الألوهية، وأوجد لنفسه مكاناً وسط الآلهة. وقد دفعه إلى ذلك اعتقاده أن عظمة الأمبراطور ستزداد قوة ونفوذاً، وحياته ستكون أكثر أمناً، لو أنه زج بنفسه وسط الآلهة؛ وكان أن جرت عبادته فى معظم أنحاء الأمبراطورية، خاصة فى الجزء الشرقى منها. ولم يكتف دقلديانوس بذلك، بل نقل عن ملوك الساسانيين فى فارس الذين أحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والقدسية والجلال، الكثير من تقاليدهم ومراسم احتفالاتهم ووثابهم الرسمية، فلم يعد يكثر من التنقل بين رعاياه، واختار العيش منعزلاً عن الأعين فى بلاط قائم على سلسلة طويلة من المراسم، وهكذا صار الأمبراطور حاكماً مقدساً مترفعاً، محجوباً عن شعبه، وجب على من يريد مقابله أن ينطرح على الأرض أمامه صاغراً، ويقدم له فروض الطاعة والولاء ذليلاً؛ وصار يلبس عند ذاك تاجاً وحذاء قرمزياً وأثواباً ذات لون أرجوانى^(١). وفى نفس الوقت حرص دقلديانوس بعد ارتقائه عرش الأمبراطورية على إلغاء نظام الحكم الذى وضع أوغسطس قواعده، ملقياً به عرض الحائط، وشرع فى حكم الأمبراطورية حكماً استبدادياً مطلقاً لم تعهده من قبل، فله وحده حق التصرف المطلق فى الشؤون المالية، وحق تشريع

(١) رنسيان (ستيفن)، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على (القاهرة ١٩٦١)، ص ١٦ - ١٧، بينز، الأمبراطورية البيزنطية، ص ٧٨ - ٧٩

القوانين والاستثنائات بالسلطة التشريعية، وهو القائد الأعلى للجيش، وسياسته هي التي تقرر مصير الملايين من رعاياه. أما مجلس السناتو، فعلى ضوء ما صار إليه الحال منذ بداية حكم دقلديانوس، لم يلبث أن تجرد تماماً من سلطته التشريعية، وضاعت امتيازاته الشكلية، وبذلك صار شبحاً من أشباح الماضي لامتني له^(١).

على أن دقلديانوس أخذ على عاتقه - منذ بداية حكمه - إصلاح شأن الأمبراطورية وتقويتها، واضعاً في حسبانها ما ينبغي عليه انجازه. صحيح أنه ليس أول الأباطرة الذين تولدت في نفوسهم رغبة الإصلاح، وصحيح أيضاً أن معظم أعماله كانت حلقة في سلسلة الإصلاحات التي قام بها بعض الأباطرة المصلحين من قبله، إلا أنه كان من أشد المتمسكين بالعودة بالامبراطورية إلى سابق مجدها وعظمتها في أيامها الأولى. ولعالجة مشاكل الأمبراطورية الملحة، فكر دقلديانوس جدياً في إعادة النظام والاستقرار إلى جميع أنحاء الأمبراطورية، وإصلاح الشئون المالية، وإعادة تنظيم الجهاز الإداري، ومضاعفة عدد الجيش.

وقد كان من المألوف قبل عهد دقلديانوس تركيز السلطة في أيدي الأباطرة، غير أن ما تميزت به الأمبراطورية من مساحة شاسعة، جعلت من الصعب على فرد واحد أن يضطلع بأعبائها بكفاءة ومقدرة. وقد سبق لماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م) أن عين رفيقاً له Consort عند بداية حكمه، كما قسم فاليريان (٢٥٤ - ٢٦٠م) الأمبراطورية بينه وبين ابنه جالينوس. وهنا نلاحظ أن دقلديانوس فعل نفس الشيء، فبعد ثلاث سنوات من توليته منصب الأمبراطورية، عين ماكسيميان وهو قائد قدير من بانونيا، زميلاً أو قسيسماً له بلقب «أوغسطس»^(٢) Colleague (Co-emperor) or fello-Augustus، وترك له

(١) رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص ٦٣؛ Stephenson, op. cit., p. 29; Painter, op. cit., p. 6.

(٢) أوغسطس لقب اشتهر به أوكتافيانوس (٢٧ ق.م - ١٤م) وحمله من بعده أباطرة روما، ومعناه العظيم أو الجليل.

مهمة حكم الجزء الغربى من الأمبراطورية، على حين احتفظ هو بحكم الجزء الشرقى. ويبدو أن دقلديانوس رأى أن ذلك التقسيم غير كاف للقيام بأعباء الأمبراطورية، إذ بعد ذلك بسبع سنوات (٢٩٣م) عين قنسطنطيوس وجاليريوس Galerius كمساعدين شركاء يحمل كل منهما لقب «قيصر» Caesar، وله مسئولية إقليمية خاصة، الأولى لمساعدة ماكسيميان فى الغرب، والأخير لمساعدة الأمبراطور فى الشرق، وهكذا قسمت الأمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية، يشتمل كل قسم منها على عدد من الولايات : فعهد إلى قنسطنطيوس بالغال وأسبانيا وبريطانيا، أما جاليريوس فقد احتفظ بمناطق الدانوب والبلقان، فى حين عهد إلى ماكسيميان بإيطاليا وأفريقية، أما دقلديانوس فقد احتفظ بمصر وراقيا والولايات الآسيوية. وبمقتضى هذا النظام تقرر أن يستقل الأوغسطان بعد عشرين سنة من بداية مباشرة مهام منصبيهما، على أن يحل القيصران محلهما؛ وبذلك تتلافى الأمبراطورية قيام أية مشاكل حول وراثة العرش من ناحية، والبعد عن ويلات الحروب الأهلية من ناحية أخرى. ومما يجدر ذكره أن دقلديانوس لم يفقد سلطته الأمبراطورية بموجب ذلك التنظيم، إذ أن تلك السلطة بمعناها الحقيقى ظلت فى يده، فهو وحده قائد الجيش، والسيد الأعلى، له لقب الأمبراطورية ووظيفتها^(١). ثم رأى دقلديانوس أن ما أوجده من تنظيم إدارى للأمبراطورية بقسميها الشرقى والغربى، يقتضى قيام أربع مدن رئيسية كبرى تصلح مقرأ للحكام الأربعة الكبار فى الأمبراطورية، وتلك المدن هى : تريف على نهر الراين بألمانيا أقام فيها قنسطنطيوس، وسرميوم (بلغراد الحالية) أقام فيها جاليريوس، وميلان بشمال إيطاليا - لأن روما لم تعد صالحة للبقاء عاصمة وحيدة للأمبراطورية الضخمة - أقام فيها ماكسيميان، ونيقوميديا (ازمت الحالية) Izmit على الشاطئ الآسيوى للبوسفور، وقد اختارها دقلديانوس لنفسه حتى يستطيع مراقبة مناطق الدانوب فى الشمال والأطراف الفارسية فى الشرق^(٢).

Robinson, op. cit., p. 404; Jones, op. cit., p. 29.

(١)

(٢) فشر: أوربا العصور الوسطى، ج ١ ص ٣؛ دوسن (كريستوفر)، تكوين أوربا، ترجمة ومراجعة

د. محمد مصطفى زيادة، د. سعيد عاشور، (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢١.

والأمر الذى لا خلاف فيه أن نجاح ذلك التنظيم الذى أوجده دقلديانوس يرجع بالدرجة الأولى إلى نفوذه الشخصى، وليس إلى جوهر التنظيم نفسه أو روحه، بدليل أنه عندما استقال دقلديانوس من منصبه فى عام ٣٠٥م، كان هو الذى أجبر زميله ماكسيميان على التقاعد مثله، فى الوقت الذى استغل فيه نفوذه الشخصى من أجل وصول قنسطنطيوس وجاليريوس إلى منصب الأوغسطين، واختيار قيصرين جديدين لهما. وهكذا بات من الواضح أن النظام الذى أسس دقلديانوس قواعده لم يأت بالفائدة المرجوة منه عند التطبيق، لاسيما أن من العيوب الجسيمة التى انطوى عليها عدم تذرع القيصر بالصبر حتى يصير أوغسطس، كما أن كل قائد فرقة عسكرية دفعته أطماعه وأحلامه - بعدئذ - لمحاولة الوصول إلى منصب الأوغسطس أو القيصر (١).

ويعتبر إصلاح النظم المالية وإيجاد نظام عادل لجمع الضرائب من أهم الواجبات الملحة، التى رأى دقلديانوس العناية بها. فبدأ بسك عملة نقدية سليمة لوقف التضخم والحد من ارتفاع الأسعار فى عام ٢٩٦م، ورغم ما أحرزته تلك العملة من نجاح، إلا أن الأسعار ظلت مرتفعة، ولكى يتغلب على تلك المشكلة، بادر بإصدار مرسوم فى عام ٣٠١م - لايزال جزء منه باقياً حتى يومنا هذا - تضمن الحد الأقصى لأثمان السلع العادية والمنتجات التى تمثل الحاجات الأساسية للرعايا الرومان، مثل القمح والزبد والجبن واللحم والمصنوعات الجلدية والأقمشة. وفى المقابل عمل دقلديانوس على ضرورة تثبيت الحد الأقصى لمعدلات الأجور للعاملين فى مختلف المهن، مثل صناعات السفن، وعمال الحرير والصوف، والنقاشين، ومدرسى المدارس الابتدائية والثانوية؛ وهنا نلاحظ أن دقلديانوس بذل قصارى جهده لسريان المرسوم، فصار الموت عقوبة مخالفيه، فيما يتعلق بتدهور الطبقات الدنيا من جراء الأوضاع الاقتصادية السيئة فى الإمبراطورية، بحيث صار من الصعب عليها مواجهة متطلبات الحكومة، وبلغ الأمر ذروته عندما اضطر الكثير من أفرادها إلى ترك مزارعهم وهجر تجارتهم، عمل دقلديانوس

على مواجهة تلك المشكلة، بأن أصدر مرسوماً أجبر فيه الفلاحين وأصحاب المهن والحرفيين على قبول مبدأ الوراثة، بمعنى أن يتكفل الأبناء بمزاولة مهنة الآباء إلزاماً، سواء رغبوا في ذلك أم كرهوا، وبذلك ارتبط صغار المزارعين بالأرض من جهة، وصارت الحرفة وراثية من جهة أخرى^(١).

أما بالنسبة لنظام الضرائب، فبسبب ارتباط نظام السيولة النقدية في الإمبراطورية لجأ دقلديانوس إلى فرض الضرائب العينية بدلاً من الضرائب النقدية، وألقى على عاتق ملاك الأراضي وموظفي مجالس المدن مسئولية جمع الضرائب المقررة. والجدير بالذكر أن عضوية مجالس المدن كانت من الوظائف المرموقة التي يتطلع الكثير إلى الحصول عليها، ولكنها غدت ابتداءً من عصر دقلديانوس عبئاً ثقيلاً، فأصحابها لم تقتصر مهمتهم على القيام بالأعمال المسندة إليهم فحسب، بل صاروا ضامنين للضريبة المقررة، والويل كل الويل إذا ثبت فشلهم في جمعها من الأهالي، فعليهم أن يتحملوا دفع قيمتها، ويجرى إبعادهم بعد ذلك عن وظائفهم، حيث تقع عليهم وحدهم تبعة البحث عن وسائل أخرى لمعيشتهم^(٢).

وإذا انتقلنا إلى الجيش، نلاحظ أن دقلديانوس اعتزم جعله الأداة الجديرة بالدفاع عن الإمبراطورية وحدودها ضد أعدائها، ويتضح ذلك بجلاء في حرصه على التمسك بفكرة خطوط الدفاع على الصدود، فبنى العديد من القلاع والتحصينات، والمواقع الدفاعية المنيعة حيث ترابط الحاميات بصفة دائمة، وشق الطرق الضخمة التي تسمح للجند بالتحرك السريع. ورغم أن بعض الفرق العسكرية كانت تشتمل ... آنذاك - على أعداد من الجرمان في أوروبا، والبربر في أفريقية، والعرب في سوريا، إلا أن الغالبية العظمى تألفت من المواطنين الرومان المتمتعين بحقوق المواطنة الرومانية كاملة. وحرصاً من دقلديانوس على درء الأخطار الخارجية، استلزم الأمر زيادة أعداد الجيش، لذلك أصدر أوامره بجعل

Robinson, A Hist. of Europe., pp. 466 467, Hay, The Medieval Centuries., p. 4 (١)

Barrow, op. cit., pp. 173.

(٢)

الخدمة فى الجيش إلزامية، كما سمح - لأول مرة - لأبناء الجنود والمحاربين القدماء والمتطوعين بالانخراط فى سلك الجيش^(١). ولم يلبث دقلديانوس - ومن بعده قنسطنطين - أن قام بإدخال بعض الإصلاحات على الجيش، فأعاد تنظيمه على أسس جديدة، بأن قسمه إلى فرعين واضحين : أحدهما للقيام بواجبه فى حراسة حدود الأمبراطورية عند نقاط معينة، ويتألف هذا الفرع من جند وراثيين يقتنولون أجورهم أرضاً أطلق عليهم قوة الحدود Limitanei؛ أما الفرع الآخر، فكان بمثابة جيش مركزى احتياطى سريع الحركة هو جيش المعية أو الردفاء Comitatus Comitatenses (الردفاء هم هيئة النبلاء المحاربين الملحقين بشخص الأمبراطور) تحت قيادة الأمبراطور، على أهبة الاستعداد للتحرك، لدفع الأخطار عن الأمبراطورية فى حينها دون إضاعة للوقت؛ أما الحرس البرياتورى (الأمبراطورى) الذى كان يلعب دوراً هاماً فى تنصيب الأباطرة وخلعهم، فقد ذهب إلى غير رجعة^(٢).

قنسطنطين : (٣٠٦ - ٣٣٧)

تنازل دقلديانوس عن العرش فى عام ٣٠٥م، بعد أن بلغ الستين من عمره، ونال منه المرض، غير أن تنازله أعقبه نشوب حرب أهلية، أدت إلى انهيار نظام وراثية العرش الذى وضعه - حسبما أسلفنا - بهدف تجنب الأمبراطورية قيام الثورات وأخطار الحروب الأهلية. وقد استمرت الحروب الأهلية مشتتة سبع عشرة سنة، حتى استطاع قنسطنطين الوصول إلى عرش الأمبراطورية بعد أن تغلب على منافسيه. وكان قنسطنطين الابن الأكبر لقنسطنطيوس، من أم كانت ساقية (نادلة) فى حانة تدعى هيلينا، ولد فى نيسوس (نيس فى يوغوسلافيا) Naissus فى ١٧ فبراير حوالى سنة ٢٨٠م، وعندما صار والده قيصرًا ومسئولاً عن بريطانيا وغالة طبقاً للنظام الذى وضعه دقلديانوس، طلق زوجته هيلينا حتى

(١) Stephenson, op. Cit., p. 53; Charlesworth, The Roman Empire., p. 44.

(٢) Cary & Wilson, op. cit., pp. 339-340;

رتسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٦؛ بينز، الأمبراطورية البيزنطية، ص ١٧١ - ١٧٢.

يستطيع الزواج من ثيودورا ابنة ماكسيميان، وأرسل طفله قنسطنطين إلى بلاط دقلديانوس اينال قسطنطين من التعليم^(١). ولما مات قنسطنطينيوس بمدينة يورك ببريطانيا، نادت حاميتها الرومانية بابنه قنسطنطين أمبراطورا سنة ٣٠٦م، حسب الطريقة الويلة التي بذل دقلديانوس جهده، وقام باصلاحاته، ابتغاء الحيلولة دون وقوعها من بعده^(٢). وهكذا اندلعت نيران حرب أهلية مريرة استمرت حتى سنة ٣١٠م حين كان هناك ثلاثة من الزعماء يتنازعون السلطة، كان هناك ليسينيوس Licinius في الشرق، وماكسنتيوس في إيطاليا، وقنسطنطين الذي ارتكزت قوته على بريطانيا وغالة. وقد برهن قنسطنطين على أنه قائد بالغ المهارة، يتميز بالشجاعة الفائقة، ففي سنة ٣١٢ زحف بقواته عبر جبال الألب إلى روما لمقابلة خصمه ماكسنتيوس الذي كان يتفوق عليه كثيراً في عدد جنوده. وفي معركة جسر ملفيان Milvian Bridge على مقربة من روما، دارت معركة هائلة، انتصر فيها قنسطنطين على منافسه وقتله، وجعله هذا النصر سيداً على الغرب؛ وتقاسم قنسطنطين حكم الامبراطورية مع ليسينيوس حاكم الشرق فيما بين عامي ٣١٢ و٣٢٤، وفي سنة ٣٢٤ هزم قنسطنطين خصمه الشرقي وخلعه عن عرشه، وبذلك توحدت الامبراطورية على يده مرة أخرى^(٣).

ولا يخفى علينا أن قنسطنطين سار على خطى سلفه دقلديانوس في الإصلاحات الإدارية والتنظيمات المالية والحربية، فقام بإتمام الأعمال التي بدأها ذلك الأمبراطور، حتى أنه صار من الصعب وضع خط فاصل بين أعمال هذين الامبراطورين^(٤) فمازالت العملة الرومانية على عهد قنسطنطين في تحسين مضطرد، بشكل أدى إلى إحياء الثقة واستقرار الوضع الاقتصادي في الامبراطورية^(٥). ومما يؤكد نجاح قنسطنطين في تثبيت العملة أنه أنشأ عملة

Jones, The Decline of the Ancient World., p. 39. (١)

(٢) فشر، أوربا العصور الوسطى، ج ١ ص ٤.

(٣) كانتور : تاريخ العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٧٧)، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مراجعة د. علي الغمراوي، ج ١، ص ٧٦.

(٤) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج ١ ص ٢٦.

Cary & Wilson, A Shorter Hist. of Rome., p. 342. (٥)

ذهبية جديدة تسمى الصوليدس (الصولدي) Solidus حافظت على وزنها ونقاؤها - غير منازع - حتى القرن الحادى عشر الميلادى^(١). وقد حقق السلام الذى ساد ربوع الأمبراطورية انتعاشاً فى أسواق الذهب والفضة، فكثرت تداولهما، وأخذ الإنفاق طابع السخاء، ومما يدل على ذلك ما لجأ إليه ليسينيوس خلال الصراع الذى احتدم بينه وبين قنسطنطين حول الوصول إلى منصب الأمبراطور، فقد أعطى لمؤيديه هدايا تذكارية فى صورة صحاف من الذهب والفضة، كما قدم قنسطنطين لقواده ومؤيديه هدايا مماثلة لتأكيد إخلاصهم وولائهم. ومن المحتمل أن وفرة المعادن الثمينة آنذاك ترجع إلى إحياء العمل فى مناجم الذهب القديمة من جهة، واستغلال مناجم جديدة من جهة أخرى. يضاف إلى ذلك أن جزءاً من اتفاق قنسطنطين أتى من احتياطي الذهب والفضة الذى كدسه ليسينيوس، ثم آل إليه فى نهاية الأمر بعد أن تغلب عليه؛ ولم يكد ينفذ ذلك الاحتياطي، حتى قام قنسطنطين بمصادرة كنوز المعابد الوثنية القديمة، الأمر الذى هباً له الحصول على كميات هائلة من سبائك الذهب والفضة^(٢).

ولما كانت الأمبراطورية قد خلت من أصحاب المهن الحرفية المدربين من جراء متاعب القرن الثالث، فقد أولى قنسطنطين تلك المشكلة عنايته، وعمل على علاجها بأن أصدر مرسوماً سنة ٣٣٧م جاء فيه : «نحن الأمبراطور، نأمر المهنيين المسردين فى القائمة الملحقة، فى أية مدينة اختاروا الإقامة فيها، بأنهم سوف يعفون من جميع الخدمات العامة، شريطة أن يكرسوا أوقاتهم لمزاولة حرفهم، كى يصبحوا أكثر مهارة وخبرة، وعليهم تدريب أبنائهم. وأولئك المهنيون هم : المهندسون، وصانعو السقوف المصورة، والجصاصون، والنجارون، والأطباء، والحجارون، وصائغو الفضة، والبناعون، والبيطريون، والناسجون بالذهب، وبنائو الأرصفة، والرسامون، والنحاتون، والحدادون، وبنائو الرخام، وسباكو المعادن، وصباغو الثياب الأرجوانية، وصانعو الزجاج، والخزافون، والسمكريون،

(١) رنسيان . الحضارة البيزنطية، ص ١٩.

Kent & Painter, Wealth of the Roman World., pp. 15 - 18.

(٢)

والفراعون». ولا جدال أن ذلك المرسوم أثبت أن هناك عجزاً خطيراً في جميع أنواع المهن الحرفية المدربة، كما أنه أظهر في نفس الوقت كيف أن إنقاذ الإمبراطورية من أزمة القرن الثالث كان عملاً بطيئاً معقداً، تطلب جهوداً مضنية^(١).

ولم ينس قنسطنطين أن يمد يد الإصلاح إلى الجانب العسكري، فواصل سياسة سلفه في تحصين الإمبراطورية وتقوية دعائمها، وأمر بتشييد سلسلة من الحصون المنيع على امتداد جبهتي الراين والدانوب، وسواحل ويلز وكمبرلاند Cumberland في بريطانيا؛ على أنه زاد من أعداد الجرمان في الجيش زيادة هائلة، ليله إليهم، وتفضيلهم على غيرهم^(٢).

وإذا كانت الإصلاحات التي قام بها قنسطنطين تعتبر إمتداداً لما قام به سلفه دقلديانوس كما سبق أن ذكرنا، فإن اعترافه بالمسيحية، وتأسيسه القسطنطينية وجعلها عاصمة للإمبراطورية، جعلاً منه علامة بارزة في مجرى التاريخ، ونقطة تحول هامة في مسيرة الحضارة العالمية، إذ بفضل هاتين الخطوتين يمكن القول أن العالم ألقى خلفه رداء العصر القديم، وأخذ يوجه أنظاره نحو آفاق العصر الوسيط. وسوف نتناول موضوع اعتراف قنسطنطين بالمسيحية تحت عنوان مستقل، مكتفين الآن بتناول الحديث عن تأسيس القسطنطينية.

الواقع أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية يدل على شجاعة وجرأة بالغين، لأن روما كانت رمزاً لعظمة تلك الإمبراطورية. ويبدو أن قنسطنطين أدرك بثاقب بصيرته أن روما لم تعد تصلح مقراً للإمبراطورية، لأنها من الناحية العسكرية بعيدة عن الحدود، يضاف إلى ذلك أنها تموج بآنصار الجمهورية. وغير خاف أن روما أخذت تزداد ضعفاً منذ وفاة

Ibid., p. 18.

Cary & Wilson, op. cit., p. 339; Jones, op. cit., p. 47.

(١)

(٢)

الأمبراطور أوكثافيانوس أوغسطس سنة ١٤م، ولذلك اقتنع دقلديانوس تماماً عندما أراد إحداث تغييرات جوهرية في جسد الأمبراطورية، أن روما لم تعد تصلح مقرأً مناسباً لإدارة الحكم، وجرى نقل عاصمته إلى نيقوميديا الواقعة في تركيا الآسيوية^(١). وكذلك كان الأمر بالنسبة لقسطنطين، فبعد أن أمضى ثمانية عشر عاماً يجاهد من أجل الوصول إلى المنصب الأمبراطوري، أعلن في عام ٣٢٤م عن قراره نقل العاصمة بعيداً عن روما؛ وقد كان أمامه العديد من المدن القديمة التي كان بإمكانه أن يختار إحداها عاصمة جديدة، مثل نيقوميديا التي اتخذها سلفه عاصمة له، وكان بوسعها أيضاً أن يختار إحدى المدن القديمة الشهيرة مثل الاسكندرية أو أنطاكية، وكلتاها من المراكز التجارية العظيمة، أو أثينا المعروفة بتاريخها العريق، ولكنه أثر أن يتعد عن كل ماله علاقة بالماضي^(٢). والحقيقة أن المسألة لم تكن مجرد التخلص من الارتباط العاطفي بالماضي، فهي أبعد من ذلك بكثير في رأينا. إذ المعروف أن الأخطار الرئيسية التي تهدد الأمبراطورية جاءت من جبهتي الدانوب والفرات، وبمعنى آخر من ناحية البرابرة الضاربين على مقربة من ثغور الأمبراطورية وأطرافها شمال نهر الدانوب من ناحية، ومن قبل الفرس فيما وراء نهر الفرات من ناحية أخرى. ولواجهة تلك الأخطار، كان لابد من الانتقال من روما إلى الشرق. ومن أجل ذلك نبتت في ذهن دقلديانوس فكرة نقل مقر حكمه إلى نيقوميديا في الجزء الشرقي من الأمبراطورية كما رأينا. كذلك اعتزم قسطنطين اتخاذ مكان بالقرب من اليوسفور يصلح مقرأً للامبراطورية، حتى يتمكن من مراقبة جبهتي الدانوب والفرات والإشراف عليهما بنفسه، أما جبهة الراين فمن الممكن أن يعهد بمسئولية حمايتها إلى حاكم بلقب قيصر^(٣).

وكيفما كان الأمر، فقد اختار قسطنطين عاصمته الجديدة مكان بيزنطة القديمة الواقعة على اليوسفور. وقد أسس بيزنطة جماعة من الملاحين من ميجارا

Rice (Tamara Talbot), Byzantium, (London, 1969), p. 10.

(١)

Ibid., pp. 11-12.

(٢)

Gwatkin & Dixie, "Constantine and his City", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 16

(٣)

Megara عام ٦٥٧ ق. م. وقبل تأسيسها كانت جماعة أخرى من المستعمرين الميجاريين قد استقرت في خلقونية على شاطئ البوسفور الآسيوي المقابل. وقد لجأ أولئك الذين قدر لهم تأسيس بيزنطة إلى معبد دلفي ليشير عليهم بما يراه، فأشار عليهم أن يبنوا مدينتهم «في الجهة المقابلة لمدينة العميان». وفي حيرة بالغة بدأ أولئك الرواد رحلتهم بحثاً عن الحظ حتى وصلوا إلى الموقع المجاور للقرن الذهبي، حيث يتقابل بحر مرمرية مع البوسفور، فجذبتهم روعته ومزاياه الجغرافية، واختاروه مكاناً لإقامة مدينتهم، وتحققوا أن أهل خلقونية كانوا عمياناً حقاً حين أهملوا الموقع الأفضل في الجانب الآخر، حيث فاتهم أن يدركوا ميزة تأسيس مدينة على الشاطئ الأوربي بدلاً من الآسيوي، ولذلك أدرك الميجاريون معنى عبارة الإله، وقرروا أن يبنوا مدينتهم على النتوء البارز في المكان المعروف حالياً باستانبول، وأطلقوا عليه اسم بيزنطة Byzantium تكريماً لقائدهم بيزاس Bysas^(١). ومن الواضح أن موضع مدينة القسطنطينية يتميز بأهمية جغرافية واستراتيجية، فمن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء القارتين آسيا وأوروبا، إذ يحدها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبي من جهة الشمال، وبحر مرمرية في الجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثاً تحمي المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته الأسوار المنيعة التي أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، فقد سيطرت سيطرة تامة على كل تجارة البحر الأسود، فمنها تتجه طرق التجارة شمالاً إلى روسيا، وشرقاً إلى آسيا حيث تؤدي الطرق البرية إلى الهند والصين ووسط آسيا، وغرباً إلى وسط أوروبا، وجنوباً إلى الشام ومصر وأفريقية. ومما يجدر ذكره أن القسطنطينية بفضل مزاياها التي تحدثنا عنها، ظلت قادرة على الوقوف في وجه أعدائها، والحفاظ على الامبراطورية الشرقية لمدة تربو على الألف عام^(٢).

Rice, op. cit., pp. 13 - 14;

(١) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ٢ - ٤

Jones, op. cit., p. 50; Hay, op. cit., p. 14.

(٢)

وبعد أن اتجه قنسطنطين بنظره نحو بيزنطة، قرر عام ٣٢٤م وضع أساس عاصمتها الجديدة عندها. وتروى الأسطورة المسيحية أن الامبراطور وقد حمل حرية في يده، تجول حول المدينة سائراً على قدميه ليضع حدودها، وقد صحبه في تلك الجولة أفراد حاشيته الذين تعجبوا من اتساع المساحة التي حددها للعاصمة، فاجترأوا وسألوه : «عند أى مدى سوف يقف مولانا في تحديد مساحة العاصمة؟»، فأجابهم قائلاً : «عندما سيقف من هو سائر أمامى»، ويقصد بذلك الإشارة إلى وجود دليل خفى أو قوة إلهية تلهمه وتقوده فى هذا العمل^(١). وقد جمع قنسطنطين ما يلزم لعملية البناء من العمال والمواد الأولية من كل مكان، وأحضر تحفاً وأثراً وثنية رائعة جميعها من روما وأثينا والاسكندرية وإفسوس، زين بها شوارعها وميادينها. ومنحت المدينة الجديدة من الامتيازات المالية، كي تجتذب عدداً كبيراً من السكان، وجرى تشجيع الأثرياء على بناء منازلهم والاستقرار فيها بمنحهم الأراضي؛ واشتهرت المدينة بكثرة ما شيده قنسطنطين بها من كنائس، ولم يقدم داخل أسوارها أى قربان وثنى لأنها خضعت للدين الجديد وأصبحت وفقاً عليه، وبذلك أخذت الطابع المسيحي منذ البداية، ويبدو أن قنسطنطين أعطاها لقب «روما الجديدة»، وأخيراً احتفل بافتتاحها رسمياً فى ١١ مايو سنة ٣٣٠م، بعد أن استغرقت عملية البناء ست سنوات^(٢).

ويعتبر تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعهد أخذ العالم الإغريقى والعالم الرومانى، يبتعد فى خلاله كل منهما عن الآخر شيئاً فشيئاً، حتى غدت وحدة الامبراطورية الرومانية مسألة بعيدة المنال. ذلك أنه على حين ظل الحكم الرومانى قائماً فى القسم الشرقى من الامبراطورية كما تركه دقلديانوس وقنسطنطين، وعلى حين ظلت مظاهر ذلك الحكم قائمة، لم تتعرض لأية أخطار حتى استيلاء الفرنجة (الصلبيين) على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، آلت مصائر القسم الغربى من الامبراطورية إلى نهاية مختلفة تماماً، إذ انهار تحت وطأة هجمات الجرمان

(١) أومان (شارل)، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر، (القاهرة ١٩٥٣)، ص ١٧؛

عمر كمال توفيق، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢٧ - ٢٨.

Jones, op. cit., p. 49.

بعد حوالي مائة وخمسين سنة كلها ضعف مطرد^(١). ومن المظاهر التي ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، أن المد الاقتصادي أخذ ينحسر عن الغرب الأوربي، فهاضت الثروات في أيدي تجار الأسكندرية وأنطاكية وغيرها، ويتضح مدى الخسارة الاقتصادية التي لحقت بمدينة روما في حقيقة أن قمح مصر بدلاً من أن يرسل إليها، صار يرسل إلى القسطنطينية لإطعام شعبها^(٢). وآخر المظاهر التي ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، هو تسلل المؤثرات الشرقية في نواحي الحكم والإدارة والآداب في القسم الشرقي من الامبراطورية، ومن ثم سيطر الطابع الهلينيستي على ذلك القسم، علي حين ظل الغرب الأوربي متمسكاً باللاتينية وتراثها. ولما كانت المؤثرات اليونانية أقوى من اللاتينية، فقد تابع الشرق تقدمه وازدهاره، في الوقت الذي أخذ فيه الغرب يسير في مضمار التخلف^(٣). وبذلك بدأت سمات العصور الوسطى تطل علي المجتمع الأوربي وتفرض نفسها عليه.

(١) فشر، أوربا العصور الوسطى، ج ١ ص ١١.

(٢) Baynes (Norman H.), Decay of the Western Power and its causes; in Universal Hist. of the World, ed. by J. A. Hammerton., Vol. 4., pp. 2230-2231.

(٣) ابراهيم العدوي، المجتمع الأوربي، ص ٤٣.

الفصل الثاني

المسيحية والامبراطورية الرومانية

رغم أن الامبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع قد أصابها التفكك والانحلال فى جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، حتى بات من الواضح أنها تسير فى طريق الأفول، إلا أنها من ناحية العقيدة والحياة الروحية قد سلكت طريقاً مغايراً لذلك تماماً، فقد ازدهرت الحياة الدينية بأرجائها فى نشاط وحيوية بالغين، بشكل يطابق الحقيقة المعروفة فى التاريخ، من أن الناس فى أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية، يتجهون دوماً نحو القوى الروحية ويتعلقون بها، أملاً فى الخلاص والنجاة. ومن المعروف أن هذين القرنين شهداً انتشاراً سريعاً للديانة المسيحية، إلى جانب ما كان موجوداً من العبادات الوثنية^(١).

والجدير بالذكر أن الديانات الوثنية المحلية التى كانت منتشرة فى أرجاء الامبراطورية لم تشبع رغبة الأهالى، ولم تهدئ من خلقهم الروحى، لأنهم رأوا فيها مجرد رموز شكلية لا تثير الحماس الدينى، ومن هنا أخذوا يتطلعون إلى ديانة تخلصهم من أدران الخطيئة، وتعوضهم شقاء الحياة ومصاعبها، وكان أن وجدوا بغيتهم فى الديانات الوافدة من الشرق. ومن أهم تلك الديانات التى وجدت تجاوباً عجبياً منهم، وأعظمها فى نظرهم، ديانة الأم الكبرى الفريجية كيبيلى Cybelle من أسيا الصغرى، وديانة ميثراس Mithras من فارس، وديانة إيزيس من مصر. وقد عرفت تلك الديانات بالديانات الغامضة، لأن طقوسها كانت سرية، بمعنى أنه كان لابد من توفر شروط خاصة فيمن يريد اعتناقها، فإذا اجتاز مرحلة القبول اطلع على أسرار طقوسها، ولا يجوز له أن يبوح بها لغيره. ورغم أن كل ديانة من تلك الديانات قد اختلفت فى طقوسها وشعائرها عن

Painter, A Hist. of the Middle Ages., p. 11.; Jones, The Decline of the Ancient (١) World., p. 24.

الأخرى اختلافاً واضحاً، إلا أنها جميعاً اشتركت في ملامح وسمات عامة، أرضت حاجة المواطنين الروحية^(١). وهنا نلاحظ أن الأمبراطورية الرومانية نظرت إلى جميع الديانات الأجنبية نظرة التسامح، طالما أنها لم تكن تحدث انقلاباً في مركز العبادات الرومانية السائدة من ناحية، وإذا كانت بأمونة العواقب من الوجهة السياسية من ناحية أخرى، وإذا كان مرغوباً فيها من الوجهة الخلقية من ناحية ثالثة. ومما يذكر في هذا المقام أنه منذ عصر أوغسطس (٢٧ ق. م. - ١٤ م) ظهر شكل جديد من أشكال الديانات، وهو عبادة الأمبراطور، وقد لقيت تلك العبادة في شرق البحر المتوسط استجابة تلقائية، لأنه لم يكن هناك حد فاصل بين الإله والإنسان، أما في روما، فإن الأمر كان مختلفاً، إذ أن فكرة الألوهية بأي معنى من المعاني لرجل على قيد الحياة كانت فكرة بعيدة عن الاستحسان، لا تتفق مع التقاليد السائدة، وإذا تمعنا قليلاً في عبارة الأمبراطور لوجدنا أنها كانت تعبر عن الولاء للمواطن الأول، ولحكومة روما، وللأفكار التي تتعلق بها^(٢).

وعلى أي حال، فقد دخلت ديانة كيبيلى روما سنة ٢٠٤ ق.م، وظلت منذئذ تحت رقابة لجنة تسمى لجنة الخمسة عشر المكلفة بالإشراف على العبادة العامة، ولم يسمح لها بالتعبير عن نفسها تعبيراً كاملاً إلا في القرن الثالث الميلادي، شأنها في ذلك شأن الديانات الأخرى الوافدة من الشرق. وقد صاحبت تلك الديانة ترتيلات ورقصات غامضة، وتميزت طقوسها بالقصف والعريضة، وفي القرن الثاني الميلادي أحرزت تلك الديانة شعبية هائلة، وانتشرت بسرعة بالغة في أفريقية، والغال، وليديا، وفريجيا، وإيطاليا، وغيرها من الأقاليم^(٣). وكان يجري الاحتفال بتلك الديانة في الربيع، فإذا أقبل عيدها الربيعي، صام أنصارها وصلوا، وحزنوا لموت أتياس Attis حبيب كيبيلى وقرينها، وجرح كهنتها سواعدهم، وشربوا دماهم، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب. فإذا كان

(١) Painter, op. cit., pp. 11 - 12.

(٢) Barrow, The Romans., pp. 143 - 146.

(٣) Lindsay (T.M.), "The Triumph of Christianity", in Camb. Med. His., Vol. I., (٢) p. 90.

اليوم الثاني ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهالي المحتفلين ببعث أتياس وعسودة الحياة إلى الأرض من جديد، وفي آخر يوم من أيام الاحتفالات تحمل صورة الأم العظمى كيبيلى فى موكب النصر، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحييتها وتناديها فى روما باسم «أمتنا» *Nostra Domina* (١).

أما ديانة ميثراس الوافدة من فارس، فقد فاقت مثيلاتها من الديانات الغامضة الأخرى، فميثراس الإله الذكر الخالد الذى هزم الموت إلى الأبد، أوجده أهورامزدا *Ahuramazda* خالق الحياة. وقد وقف ميثراس إلى جانب أهورامزدا إله الخير فى صراعه الأبدى مع أهريمان *Ahriman* إله الشر. وعرف ميثراس أيضاً كإله للنور والحق والطهر والشرف، وكان يقال أحياناً أنه هو إله الشمس الذى يقود الحرب ضد أهريمان إله الباطل والظلمة. والميثرائية بهذا لا تخرج عن المرحلة المتأخرة من عبادة زرادشت، التى تتلخص تعاليمها فى أن العالم نشأ عن أصلين هما : النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير، وعن الظلمة نشأ كل شر. والجدير بالذكر أن روما لم ترث ديانة ميثراس من فارس مباشرة، بل عن طريق آسيا الصغرى، حيث كان أهم مراكز عبادتها فى طرابيزون. وقد انتشرت عبادة ميثراس انتشاراً واسعاً فى الغرب الأوروبى خلال القرنين الأول والثانى للميلاد، واحتلت مكانة مرموقة فى روما العاصمة، كما أنها انتشرت أيضاً فى الموانئ والمراكز التجارية مثل الاسكندرية وبيرايوس وقرطاجنة ولندن (٢). وقد تركت الميثرائية أثراً واضحاً فى نفوس الجند الذين كانوا يفضلونها على غيرها، ذلك أنها كانت حامية لهم، تبعث فى نفوسهم الأمل والقوة والشجاعة والصدق والأخوة، ولم يأت القرن الثالث إلا وكانت غالبية الجيش الرومانى من أتباعها، وظهر ميثراس «الشمس التى لا تغلب» على العملات فى صورة فارس. غير أن الميثرائية واجهت منافساً خطيراً لا سبيل إلى مقاومته، وهو الديانة المسيحية،

(١) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، ج ٣، ص ١٤٧.

(٢) Grant (Michael), *The World of Rome*, (London, 1960), pp. 168 - 171.

التي رحبت بالنساء كأتباع لها يجدون راحتهم النفسية من خلالها، على خلاف الميثرائية التي قصرت عضوية أتباعها على الذكور دون الإناث^(١).

أما الإلهة المصرية إيزيس، فقد لقيت من التكريم أكثر مما لقيته ديانة كيبيلى، وقد عرفت شعوب البحر الأبيض المتوسط كلها كيف مات أخوها وزوجها أوزوريس (سيرابيس) إله الخير بعد أن دخل فى صراع مع أخيه «ست» إله الشر، وإخلاص إيزيس لذكراه، وتجوّلها فى العالم القديم تجمع بقاياها من شرق الأرض وغربها. وتشير الأسطورة إلى ما أنطوت عليه قصة الإلهة إيزيس، الأم الحزينة والزوجة الأمينة، من الحنو والرأفة، وما أختصت به طقوسها من الرقة، وما اشتملت عليه صلواتها المسائية من أعمال البر والخير المشفوعة بالرحمة والشفقة؛ هذا وقد رحبت ديانة إيزيس بجميع الناس، فشملت دائرتها الرجال والنساء، بعكس الميثرائية التي لم ترحب بالنساء^(٢). وقد انتقلت ديانة إيزيس إلى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد، على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من الجهات المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيغى وصقلية؛ ومما يسترعى الانتباه أن غالبية أتباع الإلهة المصرية كانوا عادة من العبيد والمعتقين والأجانب وفقراء الرومان، وإن ظهر بينهم فى بعض الأحيان سيدات من الطبقة الأرستقراطية؛ وبارتقاء أسرة فلافيوس عرش الأمبراطورية يبدأ العصر الذهبى لعبادة إيزيس فى روما، ولدينا نقش من عصر فسباسيان Vespasian (٦٩ - ٧٩م) أول أباطرة تلك الأسرة، كتبه أحد العبيد تعظيماً لإيزيس التي لا تقهر Isis Invicta، وتحمل نقود فسباسيان التي سكّت فى روما وغيرها من المدن صورة إيزيس فى معبدها بساحة مارس^(٣). وقد شجع الأمبراطور دوميتيان (٨١ - ٩٦م) آخر أباطرة تلك الأسرة ديانة إيزيس، ومن

(١) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١١.

(٢) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٢، ج ٣ ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٣) عبد اللطيف أحمد على : مصر والأمبراطورية الرومانية فى ضوء الأثرى البردية، (القاهرة ١٩٦٥)، ص ١٤٨ - ١٤٩.

أجلها بنى معبداً هائلاً لإيزيس وسرايس^(١). وقبل أن ينتهى القرن الثانى الميلادى احتلت ديانة إيزيس مركز الصدارة فى الأمبراطورية الرومانية، ولقيت رواجاً عالمياً، وقدر لها أن تتفوق على المسيحية قبل اعتراف قنسطنطين بها، وخير دليل على ذلك أن نفوذها الدينى وصل إلى أبعد نقطة فى بريطانيا^(٢).

وعلى أية حال، تلك كانت أهم الديانات الوافدة الوثنية السائدة فى الأمبراطورية الرومانية فى القرون الأولى قبل الميلاد وبعده. ولقد ثبتت تلك الديانات دعائمها وتأصلت جذورها فى نفوس الغالبية العظمى من الشعب الرومانى ممثلة فى الطبقات الوسطى والدنيا التى وضعت آمالها فيها. على أنه يجب أن نشير إلى أن تلك الديانات الوافدة، رغم انتشارها الواسع، إلا أنها لم تستطع أن تفرض سيادتها كاملة على بقية العقائد المختلفة. ففى نفس الوقت اتجه بعض المثقفين من أفراد الطبقة الارستقراطية إلى الآراء والمذاهب الفلسفية، منهم من كان على مذهب المتشككة أو الشكوكيين^(٣) Sceptics، والبعض الآخر كان على مذهب الغنوسية^(٤) Gnosticism، كذلك كان البعض على مذهب

Bury, A Hist. of the Roman Empire., p. 394.

(١)

Lindsay, op. cit., p. 90.

(٢)

(٣) بدأت مدرسة التشكك بالفيلسوف بيرون Pyrron (٣٦٥ - ٢٧٥ ق.م)، ولد فى إيليس، وصحب الاسكندر إلى الهند فى شبابه، فرأى «فقراء» الهنود، وأعجب بما كانوا يبنون من عدم مبالاة بالحياة وثبات فى الآلام، بيد أنه لم يكتب شيئاً ولا يعرف مذهب إلا عن طريق تلميذه تيمون الهجاء، وكان الأخير يرى أن أصل البلاء هو تضارب المعرفة، وما من شئ يمكن معرفته على وجه اليقين، لذلك وجب على المرء أن يوقف حكمه، وألا يصدر أحكاماً جازمة أبداً، ويذكر أيضاً أنه لاشئ يهم، ولا حتى ما إذا كان يعيش أو يموت، وبهذا يبلغ الهدف : وهو الاتزان والطمأنينة ورباطة الجأش. أنظر : (تارن) الحضارة الهلنستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على، (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٤) الغنوسية وهى صوفية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة، وقد نشأت قبل المسيحية، وترجع بأصلها إلى وحى أنزله الله منذ البدء وتتأمله المريون سرّاً، وتعد مريدتها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة. وكانت الغنوسية تعدو على الأديان والمذاهب بالتأويل والتحوير، مدعية تحويلها إلى معنى أعمق. وترى الغنوسية أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة، وإنما هو العرفان الحدسى التجريبي الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف، وأما غايتها فهى الوصول إلى معرفة الله على هذا النحو، بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة. أنظر : (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٤٤).

الفلسفة الرواقية Stoicism، وهى أكثر الفلسفات رواجاً وواقعية، ولها الغلبة على سائر الفلسفات، لأنها تتفق مع الأخلاق والمثل الرومانية : الإقدام، والرجولة، والثبات عن طريق القوة الروحية، وسيطرة المرء على نفسه، وإخضاع الشهوات للعقل، ومقاومة الظلم، وتحدى الطغاة، والتجلى فى وجه الخطوب، ومقابلة الموت بصدر رحب، وتجنب ما وراء الطبيعة. والحق أن الرومان كانوا رواقين قبل أن يسمعوا عن المذهب الرواقى بزمان طويل. ويرجع المذهب الرواقى إلى مؤسسه زينون (٣٣٦ - ٢٦٤ ق.م) الذى ولد فى كيتيوم Citium من أعمال قبرص، عاش فى أثينا يعلم الناس، ودعى وأصحابه بالرواقين، لأنه كان يتحدث إلى سامعيه فى بهو عام دى أعمدة هو السقيفة أو «الرواق» Stoa، وكان مستمعوه كثيرين معجبين بسمو أخلاقه. وقد أفاد زينون من المذاهب الفلسفية الإغريقية المنتشرة آنذاك، بيد أن الفضل يرجع إليه فى تأسيس مدرسة للأخلاق تختلف اختلافاً بينا عن غيرها من المدارس. فأهم ما نادت به الرواقية مبدأ الأخوة بين البشر أجمعين، فالناس يجب أن يكونوا جميعاً متساويين، لا فرق بين حر وعبد؛ وقد أثرت الرواقية فى شعور الرومان على مر العصور، أفاد منها المفكرون المسيحيون منذ القرن الثانى بما جاءت به من تفصيل القول فى الفضائل والردائل، وفى صفات الله، وفى العناية الإلهية. كما نجد لها صدى فى كتابات الفيلسوف سينيكا Seneca والأمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠)^(١). والجدير بالذكر أن الرواقية الرومانية كانت تختلف عن الرواقية الإغريقية، ذلك أن الرومان لم يكن من مبادئه اعتناق أية فلسفة كما وصلت إليه، سواء كانت فيما وراء الطبيعة أو أخلاقية أو سياسية، ولكنه كان يطوعها طبقاً لميوله ومعتقداته. وينبغى الإشارة إلى أن الرومانى كان عازفاً عن متابعة المسائل الفلسفية التى تتناول ما وراء الطبيعة، مؤكداً اهتمامه بالدرجة الأولى بالعمل وبواقعه وقدراته، وإضفاء طابعه على ما يقوم باقتباسه^(٢).

(١) Lyon (Bryce) & Herbert (H. Rowen) and Hamerow (Theodore S.), A Hist. of Western World., (U.S.A., 1974), Vol. I., p. 61;

تارن، الحضارة الهلنستية، ص ٣٥٠ - ٣٥٦.

Barrow, The Romans., pp. 151 - 158.

(٢)

ثم ظهرت الديانة المسيحية في أفق الحياة الروحية بتعاليم أعطت الأمل والنور للمواطنين الرومان، وسط دياجير اليأس والشقاء التي غلفت حياتهم. والحق أن ما تميزت به تلك الديانة من قوة الإيمان جعلها تتفوق على غيرها من العبادات الشرقية الغامضة، ذات الطقوس السرية، فكما رأينا من قبل أن ديانة ميثراس حرمت على النساء دخول دأثرتها ومزاولة طقوسها، وقدست ديانتا كيبيلي وإيزيس النساء والأمومة على حساب الآخرين، أما المسيحية فقد أتت من أجل جميع البشر، ذكوراً وإناثاً. ولا ريب أن قصة المسيح الرائعة، وما لقيته من آلام وعذاب لا يمكن مقارنتها بما جاءت به المذاهب الفلسفية الإغريقية، التي لم ترض أفكارها إلا صفوة المثقفين من الطبقة النبيلة الارستقراطية، في الوقت الذي لم تشبع فيه رغبات العامة الروحية^(١). وأخيراً ينبغي ألا ننفل أن المسيحية التي أعلنت زيف كل الديانات الأخرى، استطاعت أن تقاوم من منطلق هذا المبدأ، عبادة الأمباطور التي شجعها الأباطرة الرومان وساندوها بنفوذهم لتنفيذ أغراضهم السياسية. على أن المسيحية إذا كان قد كتب لها النصر على بقية الأديان، فإن ذلك كلفها الكثير، إذ قدر لها بعد صراع مرير مع أعدائها - اليهودية الوثنية - أن تقضى حوالى ثلاثة قرون مليئة بالعذاب والآلام والتضحيات، حتى استطاعت في النهاية أن تفرد جناحيها على الأمباطورية الرومانية.

واليهود الذين رفعوا راية العداء في وجه المسيحية كانوا دون شعوب الأمباطورية الرومانية، هم الشعب الوحيد الذي ظل محتفظاً أشد الاحتفاظ بتقاليده وعقيدته الخاصة^(٢). وبداية كانت السلطات الرومانية متسامحة مع اليهود، آلت على نفسها حماية ديانتهم، وأعطتها ضمانات - ترجع إلى أيام يوليوس قيصر - بموجبها زاولوا شعائرهم الدينية في حرية وأمن؛ كما أعطتهم الحق في اتباع تقاليدهم الدينية، إذ من المعروف أن اليهودى لا يعمل أيام السبت

Stephenson, Medieval Hist., pp. 42 - 43.

(١)

(٢) بوسن، تكوين أوروبا، ص ٣٠.

من كل أسبوع، حيث يتخذ يوم عبادة وراحة، كما لا يمكن مقاضاته في ذلك اليوم أيضاً، وجرى اعفاؤه من الخدمة العسكرية^(١)، وسمح لليهود بإصدار عملة نقدية خاصة بهم، دون أن يطبع عليها صورة الأمبراطور. ورغم كل تلك الامتيازات التي منحتها روما لليهود، إلا أنهم قابلوها بروح انفصالية، وتكتل قومي، وتعصب ديني، وانعزال عن المجتمع^(٢)، الأمر الذي بعث في نفوس العناصر الأخرى الكراهية الشديدة لهم.

وقبل أن ينتهى القرن الأول الميلادى بلغ عدد اليهود في العاصمة حوالى عشرين ألف، كانوا يشتغلون بالصناعات اليدوية وبالتجارة في الحوانيت. وكان لهم عدد كبير من المعابد، لكل واحد منها مدرسته وكتيبته، وعرف عنهم احتقارهم للديانات الوثنية، وامتناعهم عن الذهاب إلى المسارح الرومانية أو مشاهدة الألعاب، فضلاً عن فقرهم وما نتج عنه من قذارة، ولكن هذه الصفات لم تمنع الكثير من الرومان المثقفين من المناداة بإعجابهم بالديانة اليهودية التي كانت تدعو إلى وحدانية الله^(٣)، معارضة في ذلك الديانة الوثنية وعبادة الأمبراطور، ولذلك اتجه البعض منهم إلى الدخول فيها.

وقد بدأ الخلاف واضحاً بين اليهود والسلطات الرومانية عندما ارتقى كاليجولا عرش الأمبراطورية سنة ٣٧م، فقد أمر جميع أتباع الديانات القائمة آنذاك أن يقدموا قرباناً له، كما أمر رجاله في أورشليم أن يضعوا تمثاله في الهيكل، ولكن اليهود أظهروا نفورهم الشديد من وضع تمثال منحوت لإمبراطور وثني في هيكلهم، مما أدى إلى بروز مشكلة حلها كاليجولا بموته. وفي عام ٧٠م ثار اليهود ضد السلطات الرومانية ثورة خطيرة في جودايا Judaea، ولكن القائد الرومانى تيتوس رد على تلك الثورة بالعنف، فقتل معظم من كان في أورشليم (القدس) من اليهود، واستباح أموالهم، ودمر هيكلهم، حتى كاد تيتوس أن يقضى

Jones, op. cit., p. 25.

Barrow, op. cit., pp. 175 - 176.

(٣) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، ج ٢، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

على كل أثر لهم. ومن المؤكد أن الضربة التي أصابتهم كانت من القوة، بحيث شتقت شملهم وشردتهم في جميع أنحاء الإمبراطورية^(١)، ولكنها لم تمنعهم من إشعال نار الثورة مرة أخرى في عامي ١١٥ - ١١٦ م. وقد واجه الإمبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) ثورة اليهود في قوة وحزم، فقصى عليها، ومنع اليهود من القيام بطقوسهم الدينية علناً، وفرض عليهم ضريبة شخصية جديدة، وحرم عليهم أن يدخلوا بيت المقدس إلا في يوم واحد محدد في العام، ليبكوا فيه أمام خرائب الهيكل^(٢).

وهكذا عانى اليهود من النفي والأهوال والتشريد ما عانوا، وحرم عليهم دخول المدينة المقدسة، وتلفتوا حولهم خائفين، فاقدين الثقة في روما، يراودهم الأمل في النجاة من العذاب الذي قاسوه على يد السلطات الرومانية. وكان يبدو في نظر العديد من اليهود أن حكم روما جزء من انتصار الشر القصير الأجل، الذي سيقضى عليه إما بتدخل الله نفسه، أو أن يرسل الله إلى الأرض مخلصاً أو مسيحاً Messiah ليخلصهم من براثن الطغاة، ويرفع عنهم نير الذل والعذاب، ويقول أسفار الرؤيا أن هذا المنقذ - أو المخلص - لن يطول غيابيه، وأنه حين ينتصر على الطغاة، سيرتفع إلى الجنة كل العادلين والفقراء والمظلومين، حتى من كان منهم في جوف القبور، ليتمتعوا فيها بالنعيم الأبدي^(٣). ولكن أمل اليهود في ظهور مسيح ينقذهم ويعيدهم إلى بيت المقدس، سرعان ما تبخر عندما أتى المسيح بديانة ليست كالدين اليهودي مقصوراً على شعب بعينه، ولكنها ديانة أضاعت حياة الناس جميعاً بما بعثت فيهم من أمل في ملكوت الله المقبلة، وفي السعادة الدائمة بعد الموت، ووعدت أشد الناس ذنباً بالعفو عن ذنوبهم. وكانت

(١) المرجع السابق، ص ١٨٤ - ١٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٩ - ١٩٣.

المبادئ السامية التي أتى بها المسيح كفيلة بأن تجعل اليهود يقاومونها على اختلاف شيعهم، وينظرون إلى رسالته بعين الحقد والكراهية وأخذوا ينالون من دعوته وأنصاره.

ومن المعروف أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ولد في بيت لحم القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى القدس، خلال عهد الإمبراطور أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤ م)، وقد سمي المسيح بالاسم العادى المؤلف «يسوع» Yeshua ومعناه معين يهوه. ويكتنف الغموض التاريخ المبكر للمسيحية، ويصعب إدراك كيف اشتد عودها ونجحت في الانتشار في مختلف أنحاء الإمبراطورية. والحقيقة التي لا جدال فيها أن المسيحية ظلت تتمتع بالحرية في أيامها الأولى ما يقرب من ثلاثين سنة، لأن السلطات الرومانية والناس لم يفرقوا آنذاك بين المسيحية واليهودية. ويرجع الفضل في انتشار المسيحية في وقت مبكر إلى جهود القديس بولس الذي نظم المجتمعات المسيحية، وحدد تعاليمها؛ وقد ساعدت أوضاع الإمبراطورية الرومانية على نجاحه في مسعاها، إذ كان يسافر عبر طرق التجارة وشبكة المواصلات الرئيسية التي أبدعتها العبقورية الرومانية. بعد أن فرض السلام الروماني عليها الأمن والطمأنينة^(١). أضف إلى هذا أن سيادة اللغة اليونانية في الجزء الشرقى من الإمبراطورية، واللغة اللاتينية في الجزء الغربى منها، جعل من السهل انتقال الأفكار والمعتقدات بين مختلف أنحاء الإمبراطورية، وبالتالي انتشار المسيحية ووصولها إلى أماكن بعيدة في سرعة فائقة^(٢). وقد أثار اليهود القلاقل ضد القديس بولس إبان قيامه بالدعوة للديانة المسيحية، في الوقت الذي حرص فيه الموظفون الرومان على حمايته، باعتباره منشقاً على الديانة اليهودية، لأن السلطات الرومانية لم تميز آنذاك بين المسيحية واليهودية^(٣). ويلاحظ أن الغالبية العظمى من أنصار المسيحية خلال انتشارها في القرنين

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., Vol. I., pp. 86 - 87; Barrow, The Romans., P. 176.

(٢) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٣٥.

Barrow, op. cit., pp. 176 - 177.

(٣)

الأول والثاني، كانت تضم أحت الطبقات فى المجتمع الرومانى، كالفقراء والعبيد والعمال، وإن كانت المسيحية لم تعدم قلة من الأنصار الأثرياء والمثقفين. وقبل أن يأتى القرن الثانى إلى نهايته، اتسعت دائرة أنصار المسيحية ممن ينتمون إلى الطبقات العليا مثل أعضاء من مجلس السناتو، وفرسان، وأطباء، وضباط فى الجيش، ومحامين بارزين، وموظفين كبار، وقضاة وغيرهم. وسلك الأبناء والزوجات نفس السلوك، فاعتنقوا المسيحية، بل كثيراً ما كانت الزوجات تسبقن أزواجهن للانضمام إلى صفوف المسيحية. وهكذا أخذت تقاليد المجتمع الرومانى ونظمه المألوفة فى الانهيار، وحلت مشاعر التسامح والتواضع محل المهانة والاحتقار، وهى سمات أخذ يتردد صداها فى ربوع الأمبراطورية بعد انتشار المسيحية^(١).

غير أن سياسة التسامح التى أبدتها السلطات الرومانية حيال المسيحية فى أيامها الأولى لم تدم طويلاً، فقد انقلبت تلك السياسة إلى حملات اضطهاد واسعة قامت بها ضد المسيحيين. ويخطئ من يظن أن روما قامت باضطهاد المسيحيين بسبب عقيدتهم، فتلك مسألة لم تكن تعنيها فى قليل أو كثير، طالما لا تتعارض مع مقتضيات السياسة العامة للدولة، ولكنها احتفظت لنفسها بحق التدخل أو اتخاذ إجراءات عنيفة ضد أية ديانة تشكل خطراً على النظام العام أو الأخلاقيات العامة. ومن هذا المنطلق غيرت الأمبراطورية من سياستها عندما رفض أتباع المسيحية - مثلاً رفض اليهود - تقديس الأباطرة وعبادتهم، وإحراق البخور أمام تماثيل الآلهة دليلاً على ولائهم للأمبراطورية. أضف إلى ذلك أن الدولة أحسست بالانزعاج عندما اكتشفت أن أتباع الديانة الجديدة اعتبروا أن الدنيا زائلة وشيكة الغناء، على خلاف الوثنيين الذين كانوا يقدرون دنياهم وحضارتهم. ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين مواطنين يملوهم الشر، وعنصرأ خطراً فى المجتمع لابد من خضوعه للدولة، وبعبارة أخرى رأت فى المسيحية ثورة اجتماعية تعمل على تقويض أركان المجتمع الرومانى ونظمه وتقاليده^(٢).

Lindsay, op. cit., Vol. I., p. 95.

(١)

Painter, op. cit., pp. 11 - 13; Barrow, op. cit., pp. 178 - 180; Salmon, op. cit., pp. 320 - 323.

(٢)

وقد عاشت القوتان - المجتمعات المسيحية والحكومة الرومانية - فى وئام فى أيام الأمبراطورية الأولى، ثم بدأ الصراع على عهد الأمبراطور نيرون (٥٤ - ٦٨م)، عندما اضطهد العديد من المسيحيين فى روما، وهو أول اضطهاد فى سلسلة الاضطهادات التى تميز بها تاريخ روما، وإن كان لا يمكن إقامة الدليل على أنه كان عاماً، وفى ذلك الاضطهاد الذى نال من المسيحيين فقد القديسان بطرس وبولس حياتهما فى عام واحد لعله عام ٦٤م، وكانت التهمة الموجهة للمسيحيين أنهم كونوا تنظيمًا غير شرعى يتعارض مع سياسة الدولة، لابد من العمل على استئصاله والقضاء عليه. لقد وقعت الواقعة بالمسيحيين، وزلزلت الأرض تحت أقدامهم، وتعرضوا لأقسى أنواع العذاب. من ذلك أنهم كانوا يلطخون بالقار، وتشعل النيران فى البعض منهم، ويعدمون حرقاً بشدهم على خازوق ليكونوا بمثابة مشاعل فى الألعاب الليلية بالحدائق الأمبراطورية وسيرك الفاتيكان، والبعض الآخر يلقى به إلى الوحوش الضارية فى مدرج أو ساحة الملاعب العامة^(١). وعلى عهد الأمبراطور دوميتيان (٨١ - ٩٦م) وقع الأذى والاضطهاد بالمسيحيين مرة أخرى حتى بلغ الأمر أن وصف الكتاب المسيحيون ذلك الأمبراطور بأنه «ثانى الطغاة»^(٢). ولدينا أقدم وثيقة تاريخية تناولت اضطهاد المسيحيين، وتصور ما لاقوه من أجل العقيدة، وهى خطاب كتبه بلىنى الأصغر Pliny the Younger حاكم بيثينيا Bithynia فى آسيا الصغرى إلى تراجان (٩٨ - ١١٧م) جاء فيه أنه أطلق سراح كل الذين قدموا القرايين وأحرقوا البخور أمام تمثال الأمبراطور، أما أولئك الذين رفضوا وأصرروا على مسيحيتهم، فقد نفذ فيهم حكم الاعدام^(٣).

ومما يثير الدهشة أن البعض من الوثنيين كانوا على استعداد للتستر على أصدقائهم المسيحيين وإخفاء حقيقة عقيدتهم عن أعين السلطات الرومانية، كما أن حكام الولايات كانوا يحجمون - فى كثير من الأحيان - عن تطبيق العقوبات

(١) Salmon, A Hist. of the Roman World., pp. 181 - 182.

(٢) Ibid., p. 226.

(٣) Stephenson, op. cit., p. 44., Burry, op. cit., p. 446.

عليهم. والجدير بالذكر أن حركة الاضطهاد لم تكن عامة أو واسعة النطاق في
الامبراطورية، إلا عند حدوث كوارث طبيعية أو قلاقل وثورات شعبية، أو إذا أراد
حاكم ضعيف، لا يتمتع بحب الجماهير أن يصرف الأذهان عنه. وكما يقول
ترتوليان^(١) أجراً المدافعين عن المسيحية آنذاك: «فإذا فاض نهر التبرير على
الأسوار، أو نقصت مياه نهر النيل فلم تبلغ الحقول، أو أمسكت السماء عن المطر،
وإذا زلزلت الأرض، أو حدثت مجاعة، أو انتشر وباء تتعالى الصيحات على
الغورهاقة: «فليلق بالمسيحيين إلى الأسد»، فعلاً كانت تستجيب السلطات
الرومانية للشعور العام الذي كان يلقي اللوم دوماً على المسيحيين. وفي تلك
الأثناء كان هناك من المسيحيين من تنقصهم الشجاعة على احتمال البلاء، ولو أن
الكثير منهم أعطوا المثل الرائع على التضحية واحتمال الشدائد؛ ومن المستحيل
قراءة قصص البطولة والاستشهاد، دون أن تهتز المشاعر للبطولة الرائعة التي
أبدوها كل من الرجال والنساء، خاصة عندما ندرك أن مضمون هذه القصص
عبارة «أنا مسيحي» Christianus sum أو «أنا مسيحية» Christiana sum،
وكانت تلك العبارة تعرض قائلها لأبشع أنواع التعذيب والموت^(٢).

وفي القرن الثالث الميلادي أخذت العلاقة بين الدولة والكنيسة طابعاً جديداً لم
تألفه من قبل، فقد أفرز السلطات الرومانية ما وصلت إليه المسيحية من نفوذ
واتساع سلطان، حتى أنها صارت قوة منظمة، وبمعنى آخر دولة داخل الدولة

(١) كوينتوس سبتموس ترتوليان القرطاجني Quintus Septimius Tertulianus؛ ولد في قرطاجنة
- أو ضواحيها - من أبوين وثنيين حوالي سنة ١٦٠م، وتوفي حوالي سنة ٢٢٠. وكان والده
قائداً رومانيا، ولما شب عن الطوق درس البلاغة والأدب في روما، واهتم بدراسة الطب، ولكنه لم
يلبث أن انصرف عنها إلى دراسة القانون، فبرع فيه، واشتغل بالمحاماة عاماً واحداً في روما.
وفي كهولته اعتنق المسيحية وتزوج بمسيحية، ورسم قسماً. وقد دافع عن الدين المسيحي دفاعاً
عظيماً مجيداً، ووضع عدة مؤلفات منها كتاب «دفاع» تناول فيه ما أحاط بالمسيحيين من ألوان
الاضطهادات على أيدي الرومان، وكتاب «إلى الأمم» هاجم فيه الوثنية والفلسفة. أنظر:
Glover (T.R.), The Conflict of Religions in the Early Roman Empire. Fourth ed.,
(London, 1910), pp. 307 - 322; Salmon, op. cit., p. 323.

(٢) Salmon, op. cit., p. 323.;

بل، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ص ١٢٨ - ١٣٠.

(الامبراطورية)^(١)، تعارض العنف، وتآبى الانخراط فى الجيش الرومانى، ليس لأحد على أتباعها سطوة إلا الكتاب المقدس وطاعة الله. ويحسن بنا أن نكرر فى هذا المقام أن اضطهاد المسيحيين وإيقاع صفوف الأذى بهم آنذاك، ليس معناه أن ذلك كان يجرى باسم الدين، وإنما كان يجرى لصالح وحدة الامبراطورية. ويمكننا أن نلمس ذلك بوضوح فى موقف الامبراطور سبتيميوس سيفيروس (١٩٣ - ٢١١م) تجاه المسيحية، إذ لم يكن معادياً لها فى أول الأمر، ولكنه أصيب بالهلع من جراء الزيادة السريعة فى أعداد المسيحيين، فأمر بتحريم تعميدهم، وفى مصر ملأ السجون بهم، ودفع بالبعض منهم إلى الجلادين، وألقى بالبعض الآخر إلى الحيوانات المفترسة فى ساحة قرطاجنة. وقد نهج الامبراطور ديكويوس (٢٤٩ - ٢٥١) نهج الامبراطور سبتيميوس سيفيروس فى إيقاع الأذى بالمسيحيين، وإن كان قد اتخذ إجراءات أشد عنفاً ضدهم، من ذلك أنه أوجب على كل مواطن أن يقدم القرايين والندور وآيات الشكر للوثنية، وحصوله على شهادة بذلك يقدمها للسلطات الرومانية عند الحاجة، وكان الذى لا يقدم هذه الشهادة يعتبر مسيحياً. ومما يلفت النظر أن المرسوم الذى أصدره ديكويوس نجح فى إحداث ردة بين بعض المسيحيين، وفى خلق متاعب للكنيسة أثارتها إعادة قبول المرتدين. على أن بعض ضعاف النفوس سمحت لهم ضمائرهم أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة، على حين حصل البعض الآخر على شهادات بطريق الاحتيال^(٢). وما لبث عدااء الحكومة أن ازداد، ففى سنة ٢٥٧م أمر الامبراطور فاليريان بمصادرة أملاك الكنيسة، ونفى رجالها، وكان الاعداد نصيب قلة من الأساقفة الشجعان تحولوا تصرفاته؛ وبعد فترة وجيزة وقع فاليريان أسيراً فى أيدي الفرس فى عام ٢٦٠م، وارتقى ابنه جالينوس عرش الامبراطورية، فلم يسلك سلوك أبيه، وبادر برفع الاضطهاد عن المسيحيين وإيقاف الهجوم عليهم، وأمر أن يرد إليهم ما صودر من ممتلكاتهم، وسمح لهم ببناء الكنائس وامتلاك العقارات.

Lindsay, op. cit., Vol. I., p. 96.

(١)

Charlesworth, The Roman Empire., p. 162; Barrow, op. cit., pp. 181 - 184;

(٢)

جيون، سقوط الامبراطورية الرومانية، ج ١ ص ٣٣ - ٣٤.

ومنذ ذلك الوقت تمتعت الكنيسة بسلام وهدوء داماً أربعين سنة، حصل فيها المسيحيون على حرية ممارسة عقيدتهم، وشهدت الكنيسة طوال تلك السنين حركة نماء وازدهار لم تشهدها من قبل، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في ازدياد أتباع العقيدة، وانتشارها بشكل أكثر في مجتمع الطبقة الارستقراطية^(١).

وحول ما لقيه المسيحيون من اضطهادات على أيدي الحكومة الرومانية، لا يستطيع أى باحث أن يغفل الفظائع التي ارتكبتها الأمبراطور دقلديانوس في حق المسيحية، فما أن ارتقى العرش سنة ٢٨٤م، حتى هاله ما وصل إليه أمر المسيحية من نفوذ وعلو شأن، وراعه انصراف أتباع تلك الديانة عن عبادة الأمبراطور، وهو أمر رأى فيه تهديداً لسلامة الأمبراطورية وأمنها، ولذلك اعتزم محاربة العقيدة وإلحاق الأذى بأتباعها؛ ولم يكن دافعه إلى ذلك مقتته للمسيحية، ولكن خشية أن يؤدي أهمال شأنها إلى هدم صرح المجتمع الروماني. أضاف إلى ذلك أنه كان من بين كبار موظفيه أعداء للمسيحية، أشدهم بغضاً وعداوة لها مساعده جاليريوس الذي كان يحمل لقب قيصر. فقد أوحى إليه بجسامة الأخطار التي تهدد الأمبراطورية من قبل المسيحية، وشجعه على استخدام نفوذه من أجل إعادة الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة. وزادت مخاوف الامبراطور عندما اكتشف أن من بين قواته النظامية - ضباطاً وجنوداً - في القصر الامبراطوري نفسه أنصاراً لتلك الديانة^(٢). ومما أكد مخاوف الامبراطور وأثار حفيظته، تلك الأخطار الخارجية الممثلة في الجرمان والفرس، لا سيما أن المسيحية كانت قد دخلت فارس، وتبين أن المانوية^(٣) كانت تمت إليها بصلة قوية^(٤).

Jones, op. cit., p. 26.;

(١)

جبيون، سقوط الأمبراطورية الرومانية، ج ١ ص ٤٥٧.

Downey, The Later Roman Empire., pp. 15 - 16.

(٢)

(٣) تنسب المانوية إلى صاحبها ماني (٢١٦ - ٢٧٧م)، ولد في ماردين بالقرب من بابل، وأعلن عقيدته في سن الخامسة والأربعين خلال عهد الملك الساساني سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م). والعالم عند المانوية قائم على أصلين هما الخير والشر أو النور والظلمة. ويرى ماني أن الخير والشر ممتزجان معاً في الإنسان، وأن المرأة هي السبب في إيقاع الرجل في الذنوب، فإذا =

(٤) أسد رستم، الروم، ج ١ ص ٣٥ - ٣٦.

ومهما يكن من أمر، لم يطق دقلديانوس أن يرى في المسيحيين جماعة منفصلة عن جسد الدولة، لا تخضع له. ولم يلبث أن أمر بتجريدهم في الجيش من الرتب العسكرية وطردهم من صفوفه، وإقصائهم أيضاً عن الوظائف المدنية إلا إذا قدموا القرايين لجوهر Jupiter Optimus Maximus الراعى التقليدى لمدينة روما؛ وأعقب ذلك أن أصدر مرسوماً في نيقوميديا في ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣م، تضمن إجراءات مشددة، بموجبها أغلقت جميع الكنائس، وهدمت بعد مصادرة أملاكها، وجمعت الكتب المقدسة وأحرقت، ومنعت إجتماعات المسيحيين، وقبض على رجال الدين منهم وزج بهم في غياهب السجون؛ أما أولئك الذين قاوموا أوامر دقلديانوس، فقد أنزل بهم أبشع أنواع التنكيل والعذاب، وجرى الحكم بالإعدام على كل مسيحي تحدثه نفسه عقد أية إجتماعات لممارسة العبادة؛ وحرم المسيحيين من حماية القانون، الأمر الذى جعلهم يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه اسم «عصر الشهداء»^(١)، لكثرة عدد المستشهدين من جهة، ولشدة عنف الاضطهاد الذى تعرض له أتباع المسيحية من جهة أخرى. ومما يذكر أن الكنيسة القبطية في مصر والحبيشة لازالت تؤرخ الأحداث بعصر دقلديانوس أو عصر الشهداء^(٢). ويبدأ التقويم القبطى بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤م - وهو نفس اليوم الذى يوافق أول شهر تصوت، بداية السنة المصرية القديمة - ذكرى استشهاد العديد من المسيحيين، وعلى الرغم مما قام به دقلديانوس تجاه المسيحيين من إجراءات عنيفة، إلا أن ذلك لم يفت في عضدهم،

= امتنع عنها، وعاش عيشة الزهد، وصام عن الطعام بعض الوقت، فإن ما فيه من عناصر الخير يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة. وقد رفض ماني التوراة تماماً وقبل الإنجيل فقط، ويرى أنه رسول الحق وخليفة بوذا وزراشت والمسيح ويتضح من ديانة ماني أنها ديانة مركبة، أى أنه اقتبس معتقداته من ديانات أخرى وألف بينها. وظل ماني ينشر دعوته حتى صلب سنة ٢٧٢م، وحشى جلده بالقش. وقد انتشرت المانوية أول الأمر في بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سوريا وفلسطين ومصر، ومنها انتقلت إلى طرابلس وقرطاجنة، في الوقت الذى انتشرت فيه في الغال وبريطانيا. انظر: حسن بيرنيا، تاريخ إيران، ص ٣١٧ - ٣٢١؛ أسد رستم، الروم، ج ١ ص ٤٧ - ٤٨.

(١) Jones, op. cit., pp. 36 - 37.

(٢) بل، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ص ١٥٨ - ١٥٩.

فقد استرخصوا الموت في سبيل العقيدة، وأظهروا ألواناً من الشجاعة والصبر والبطولة والتضحية، جعلتهم موضع إعجاب المعاصرين بشكل أدى إلى اعتناق الكثير منهم المسيحية.

تغير موقف الأمبراطورية الرومانية من الديانة المسيحية تغييراً جذرياً باعتلاء قنسطنطين العرش، فقد أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م - Edict of Milan اعترف فيه بوضع المسيحية على قدم المساواة مع بقية الديانات الأخرى المعترف بها داخل الأمبراطورية. وبذلك وضع مبدأ التسامح الدولي للأديان من الناحية الرسمية في التاريخ، فغدا لكل مواطن الحق في اختيار ديانتة ومزاولة شعائرها بطريقته الخاصة دون أى ضغط من السلطات. ولا جدال أن ذلك المرسوم رفع الاضطهادات ووسائل التعذيب عن جميع المسيحيين، وأزاح عن كاهلهم القلق والجهد النفسى والمعاناة، ولم يعد الموظفون الجشعون يحتالون عليهم ويهددونهم بالويل والثبور كما كان الأمر من قبل، وفي الوقت نفسه كفل لهم القانون الحماية الكاملة لأرواحهم ومبانيهم وممتلكاتهم. وينبغى التأكيد أن مرسوم ميلان لم يضع المسيحية في وضع متميز أرقى منزلة من سائر الأديان الأخرى، ولكنه وضع مبدأ الحرية الدينية لتلك الديانة، بعد أن كانت ذات وضع غير معترف به من الوجهة الشرعية من جهة، وبعد أن كانت الديانات الوثنية هي الوحيدة المعترف بها من قبل الدولة من جهة أخرى^(١).

وقد اختلفت الآراء حول الأسباب التي دفعت قنسطنطين إلى إصدار مرسوم ميلان. هل كان ذلك بسبب اعتناقه المسيحية؟ وهل كان اعتناقه المسيحية نابعاً من شعور داخلي واحساس ديني صادق؟ أو هل كان تحوله إلى المسيحية عملاً سياسياً بارعاً أملتة الظروف القائمة آنذاك، بهدف الحصول على أتصار من المسيحيين؟ كل تلك الأسئلة مهما اختلف الباحثون في الإجابة عليها، فمن المسلم

Gwatkin (H.M.) & Dixie (M.A.), "Constantine and his City", in Camb. Med. (١) Hist. Vol. I. p.5;

به أنها تعكس الفرحة المفاجئة للكنيسة المنتصرة على أعدائها الوثنيين. وقد جاء في الروايات المعاصرة أن قنسطنطين رأى رؤيا قصصها على مؤرخه وصديقه ومستشاره أوسابيوس (٢٦٠ - ٣٤٠م) Eusebius أسقف قيصرية في فلسطين، مفادها أنه إبان النزاع بين قنسطنطين وماكسنتيوس حول الوصول إلى منصب الإمبراطورية، وكان الأخير قد استولى على روما، ووصل الأمر إلى ضرورة وضع نهاية له بقيام معركة حاسمة تدور بين الطرفين. وطبقاً للأسطورة صار وضع قنسطنطين حرجاً، وبدا له أن الأحداث أثبتت عجز الآلهة الوثنية عن مساندة أنصارها خلال نضالهم من أجل الوصول إلى السلطة، وتذكر ما عرفه عن المسيحية من أبيه الذي نهج مع أتباعها نهج التسامح إعجاباً بمتانة أخلاقهم وصدق إخلاصهم، ومن ثم رأى - قبل عبوره جبال الألب إلى إيطاليا - فوق قرص الشمس الجانحة للمغيب صليباً من النور مكتوباً عليه *in hoc signo* *vinces* (By this Conquer)، أى «بفضل هذا تنتصر»، ويروى أن تلك الرؤيا في السماء أدهشت كل الجيش بأسره، بنفس القدر التي أدهشت به الإمبراطور نفسه؛ وفي تلك الليلة أيضاً ظهر المسيح في رؤيا لقنسطنطين، أوصاه فيها أن يتخذ من الصليب راية وشعاراً له في هجومه على عدوه ماكسنتيوس. ومما يروى أن قنسطنطين - بفضل تلك الرؤيا - استطاع إحراز النصر عليه خارج روما في موقعة جسر ملقيان في أكتوبر سنة ٣١٢م، انتهت بمقتل ماكسنتيوس وإعلان قنسطنطين أوغسطساً^(١)، حسب النظام الذي أوجده دقلديانوس. ومهما قيل من أن قنسطنطين قد انضم إلى صفوف المؤمنين بالمسيحية لأسباب سياسية أو دينية، فإن ذلك الأمر يعتبر حدثاً بالغ الأهمية، إذ بفضل الخطوة التي أقدم عليها كان من الواضح أن المسيحية في صراعها مع الوثنية سيكتب لها النصر في النهاية، لاسيما إذا اعتنق إمبراطور ما المسيحية. ولا يغيب عن البال أن أتباع المسيحية آنذاك، كانوا يمثلون أقلية ضئيلة بالنسبة لأنصار العبادات الأخرى، تألف معظمها من الطبقات الدنيا من المجتمع في المدن، أما الأغلبية الساحقة من

Jones, op. cit., pp. 39 - 40; Downey, op. cit., pp. 21 - 22.

(١)

طبقة السناتو والمتقنين فكانت وثنية، بالإضافة إلى أن الفلاحين ورجال الجيش - فيما عدا مصر وأفريقية - كانت وثنياتهم هي الغالبة^(١). وبفضل قنسطنطين - أو بالأحرى مرسوم ميلان - صارت المسيحية ديانة مرخصة *religio licita*، أفقدت الديانات الأخرى معظم نفوذها وقوتها^(٢)، حتى يمكننا القول أن الدولة رغم إطلاقها مبدأ التسامح الدينى بإصدارها مرسوم ميلان كما أسلفنا القول، إلا أن اعتناق قنسطنطين المسيحية جعل ميزان التسامح - من الناحية الواقعية - يميل ميلاً أقرب ما يكون للمسيحية، دون المساس بالوثنية. ومما يؤكد ذلك، أنه في الوقت الذي منع فيه قنسطنطين المسيحيين من التعرض للوثنيين والاحتكاك بهم، نراه قد أمر بتدمير ثلاثة معابد شهيرة هي اسكليبيوس Asclepius في إيجة، وهليوبوليس، وأفريكا Apheca في فينيقيا، لما تزاوله من طقوس فاسدة. وعلاوة على ذلك بنى قنسطنطين عدداً من الكنائس الرائعة في روما والقسطنطينية وبيت لحم ونيقوميديا وأنطاكية وغيرها وأوقف عليها المزارع الواسعة.

وينبغي علينا أن نتفهم أن وضع الأمبراطور المسيحي قد اختلف عن وضع أسلافه الوثنيين، فقد كان عليه أن يحكم مجتمعاً مغايراً، احتل فيه مكانة الأخ المسيحي لرعاياه، أما الأمبراطور الوثني فله شخصيته التقليدية النابعة من المنصب الأمبراطوري، ولذلك ظلت العملات الأمبراطورية - لبعض الوقت - تحمل النقش والرموز الوثنية المألوفة، استناداً إلى أنه لازال امبراطوراً لأنواعين مختلفين من الرعايا، وهم الوثنيون والمسيحيون؛ كذلك واصل قنسطنطين وخلفاؤه حتى عهد الأمبراطور فالنتينيان الأول (٣٦٤ - ٣٧٥ م) وجراتيان (٣٧٥ - ٣٨٣)، حمل لقب الكاهن العظيم Pontifex Maximus^(٣). وكان من الممكن لو قدر لامبراطور وثني أن يعتلى العرش بعد قنسطنطين مباشرة، أن يبدل الاتجاه الذي سار فيه قنسطنطين تبديلاً تاماً. غير أن أبناء قنسطنطين نهجوا سياسة التسامح

Jones, op. cit., p. 50.

(١)

Reid (J.S.), "The Reorganisation of the Empire.", in Camb. Med. Hist., Vol. I., (٢) p. 37.

Downey, op. cit., pp. 30 - 31.

(٣)

تجاه المسيحية، في الوقت الذي لقيت فيه الوثنية العنت والاضطهاد على أيديهم، وهدم العديد من معابدها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد وسعوا من دائرة الامتيازات التي منحت للكنيسة، بإعفاء رجالها من ضريبة الرأس *Capitatio*، وأعفى الأساقفة أيضاً من المثول أمام المحاكم العلمانية في القضايا الجنائية، وجرت محاكمتهم أمام مجالس مؤلفة من زملائهم فقط^(١).

على أن المسيحية رغم ذلك لم تعد من هو كاره لها، فعلى قدر ما أيد قنسطنطين وأبناؤه المسيحية من قبل، وجدت الوثنية من أيدها بإخلاص وولاء. وخير صورة لذلك الامبراطور جوليان المرتد. وقد شجعه على القيام بخطوته تلك ما رآه في الجدل الذي أثاره المسيحيون حول الثالوث وطبيعة المسيح، ومآرأه في تكالب رجال الدين المسيحيين على المناصب الكنسية^(٢). وقد امتلأ صدره حماساً لإعادة الأمبراطورية إلى أيامها الأولى، أيام المواطن الأول، وكان يميل إلى التمسك بعبادة الأجداد التي تتمثل في عبادات روما التقليدية، لأن هجرها يعتبر كارثة تؤدي بالامبراطورية. ولما كان متعلقاً بالثقافة الهيلينية، بعد أن سرى إلى قلبه حب عالم الفلسفة اليونانية، فقد أطلق على أنصاره الهلنيين، أما المسيحية فقد كانت في رأيه ديانة بربرية سيئة، جعلت الرجال يغفلون عن القيام بواجباتهم، ولذلك أطلق على أنصارها الجليليين^(٣) *Galilaeans* وهو اسم أقل تشريفاً لهم. وراح جوليان يقوم بإجراءات قمع شديدة ضد المسيحيين، بغية جذب الناس إلى ديانته، منها إبطال المراسيم التي سنت من قبل لمنع تقديم القرابين، والأمر بإعادة فتح المعابد الوثنية، وإرجاع الأراضي والممتلكات التي استولت عليها الدولة لتلك المعابد، أما المعابد الوثنية التي هدمها المسيحيون وبنوا على أنقاضها بيوتاً لهم، فقد أمر بإعادة بنائها على نفقة أولئك الذين انتزعوا أحجارها، الأمر الذي ألقى

Jones, op. cit., p. 54.

(١)

(٢) إسحق عبيد، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، ص ٦٢.

(٣) كان جوليان يكره المسيحية ويحتقرها، ولا يطبق اسم «المسيح»، ومن ثم راح يشير إلى المسيحيين بكلمة «الجليليين»، وهو اسم أقل تشريفاً لهم، إصراراً منه على عدم ذكر لفظة المسيح.

على كواهلهم عبثاً جسيماً، كذلك أصدر تعليماته بهدم كنائس المسيحيين التي أقامت صروحها على أنقاض المعابد الوثنية، ورغبة منه في إنعاش الوثنية وتثبيت وضعها، فقد منح أتباعها الوظائف والألقاب، في الوقت الذي ألغى فيه الامتيازات التي تمتعت بها الكنيسة، ووهبها لكهنة معابده الوثنية^(١). والحق أن محاولة جوليان إحياء أمجاد الوثنية تعتبر آخر المحاولات اليائسة التي كان نصيبها الفشل الذريع، ذلك أن الوثنية كانت قد ماتت فعلاً من الناحية الروحية، ولم يبق فيها رمق يجدد شبابها، أضف إلى هذا أن افتقارها إلى القواعد الأخلاقية التي تفردت بها الكنيسة جعلتها تلقى سلاحها، وتسرع الخطى نحو مصيرها المظلم.

ولم تلبث الوثنية أن تلقت ضربة قاصمة على يد الأمبراطور ثيودوسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥)، الذي أثر نبذ سياسة التسامح الديني، فأصدر مرسوماً سنة ٣٩٢ أعلن فيه بطلان العبادات الوثنية ومنع تقديم القرابين، وإحراق البخور، وإراقة الخمر، وممارسة الكهانة، ومعرفة الغيب، وما إلى ذلك من العادات والتقاليد الوثنية، ثم صادر معابد الوثنية التي غدت منذئذ متاحف فنية، كما صادر أملاكها على أن تؤول هذه إلى الكنائس والجيش الأمبراطوري^(٢). وهكذا استخدمت الدولة من أجل إعلان شأن المسيحية نفس الأسلحة التي استخدمتها ضدها عندما كانت تساند الوثنية في القرن الماضي، فعلى حين أنها قامت باضطهاد المسيحية من قبل حفاظاً على وحدة الأمبراطورية، نراها الآن تسعى حثيثاً لاستئصال شأفة الوثنية وأعداء المسيحية، بهدف الحفاظ على وحدة الأمبراطورية وبقائها^(٣).

ولا جدال أن المسيحية خلال الخمسين عاماً التي تلت اعتراف قنسطنطين بها، حققت الكثير من خطوات النجاح، ففي تلك الفترة شاهد المجتمع الروماني

Jones, op. cit., pp. 59 - 60; Downey, op. cit., p. 53. (١)

Vasiliev (A. A.), Hist. of the Byzantine Empir, (Paris, 1952), Vol. I., p. 83., (٢)

السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٣٧.

نشأة أرستقراطية جديدة قامت على المسيحية متأسية في ذلك بالبلاط والأسرة الإمبراطورية، ولكن الأرستقراطية القديمة التي نشأت في أحضان الوثنية وألفت تقاليدها، ظلت - هي وغالبية المثقفين - على وثنتيتها. ومما يجدر ذكره أن الوثنية في صراعها مع المسيحية من أجل البقاء، أظهرت حيوية تثير الدهشة، فلم تلق بسلاحها من أول جولة، بل ناضلت وظل الأمل يراودها في استعادة نفوذها قرناً آخر من الزمن^(١). ويتضح ذلك إذا علمنا أن الأرستقراطية في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، التي كانت لاتزال تشغل المناصب العليا في الحكومة، دأبت على حماية أتباع الوثنية. وفي القرن الخامس كان العديد من الشخصيات البارزة في المجتمع - فلاسفة وأدباء وقواداً - على ما هم عليه من وثنية، وقد بقيت مدينتا أثينا وأخايا Achaia آخر معاقل للوثنية في الشرق، لاسيما أثينا التي عرفت بأنها أعظم مركز للحياة العقلية في القرنين الرابع والخامس، فأساتذتها وهم في أغلب الأحوال على مذهب الأفلاطونية المحدثة^(٢)، رفضوا اعتناق المسيحية في عزم وإصرار، وظلوا مخلصين لتقاليدهم الوثنية إلى أن ارتقى ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) عرش الإمبراطورية، فمنعهم من اللقاء محاضرات عامة، مهدداً بالنفي كل من يعصى أوامره. وعندما وصل جستنيان إلى عرش الإمبراطورية سنة ٥٢٧م، عقد العزم على سحق آخر بقايا الوثنية في الإمبراطورية، فأغلق مدارسها في أثينا، وصادر الاعتمادات المالية المخصصة لرواتب الأساتذة، واضطهد الفلاسفة، الأمر الذي أدى إلى فرارهم إلى فارس، خشية تعرضهم

(١) يمكن تعريف الأفلاطونية المحدثة بأنها محاولة لوضع فلسفة دينية، وهي مذهب قام على أصول أفلاطونية، أتمه أتباعه في القرنين الثاني والثالث للميلاد. وقد تأثر المذهب باليهودية والمسيحية. وأبرز الأفلاطونيين المحدثين أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠م)، ولد في ليقيوبوليس من أعمال مصر الوسطى، ولم يشرع في الكتابة إلا في حوالى الخمسين من عمره. وقد كان أثر أفلوطين متصلاً عميقاً، ترجمت بعض رسائله إلى اللاتينية في القرن الرابع، ووجد فيها القديس أوغسطين عوناً كبيراً. انظر: (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٨٥ - ٢٩٧).

للسجن أو الموت، وظلوا هناك حتى حصل الملك الفارسي على وعد من چستتيان بمعاملتهم معاملة طيبة عند عودتهم إلى وطنهم^(١).

آباء الكنيسة :

من المعروف أن المسيح عليه السلام وضع للناس أسلوباً للحياة، ولكنه لم يقم بمحاولة وضع أساس لنظام لاهوتي، فطالما كان أتباعه يعظون أناساً بسطاء غير متعلمين كان ذلك كافياً، وبمعنى آخر كان باستطاعة الفرد البسيط من الناس أن يشبع أحاسيسه وعواطفه ومشاعره بمعرفة قصة المسيح وحياته وألامه. ولكن المثقفين من الرجال، أولئك الذين مارسوا طرق التفكير الكلاسيكي، أرادوا الوقوف على صحة العلاقة بين الله والمسيح في نقاط محددة دقيقة، كما كانوا دائمى السؤال عن طبيعة الملائكة، وعن المقصود بالقول أن الخبز والنبيذ تحولوا إلى لحم المسيح ودمه^(٢)، وهل العذراء مريم أم للمسيح في طبيعته البشرية أم في طبيعته الإلهية، وغيرها من الأسئلة التي اختلفوا حولها. ومن الطبيعي أن الحاجة صارت ملحة للإجابة على تلك الأسئلة، لاسيما بعد أن أعلن قنسطنطين اعترافه بالمسيحية عام ٣١٣. ومهما يكن من أمر، فقد ألقى على عاتق مجموعة من رجال الدين الباحثين أطلق عليهم آباء الكنيسة The Church Fathers مهمة إيجاد

Lindsay, op. cit., Vol. I., pp. 112 - 114;

(١)

يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٣٠١.

(٢) ورد في أناجيل متى ومرقس ولوقا وصفا لعشاء السيد المسيح الأخير مع تلاميذه، ويصفه متى بهذه العبارة : «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال : خذوا كلوا، هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا». وقد طورت الكنيسة العشاء الرباني في وقت مبكر جداً، فقد تطلب العشاء المقدس - أو التناول المقدس - أداء بعض الطقوس، الغرض منها تحقيق أهداف روحية. فالؤمن وسط العشاء المقدس، يأكل قطعة من الخبز ويحتسى قليلاً من النبيذ من مائدة مشتركة تحولها قدرة الله، التي انتقلت في خيط متصل إلى المسيح ثم إلى تلاميذه، ثم إلى رجال الدين، إلى مادة سماوية هي على التوالي جسد المسيح ودمه. وإذا كان سلوك المؤمن وقت التناول مسيحياً حقاً، فإن خطاياہ السابقة بهذا العمل تحمى، ويظفر بالحياة الأبدية في النعيم. أنظر : (برنتن : أفكار ورجال، قصة الفكر الغربي، ص ١٨٩ - ١٩٠).

لاهوت مسيحي يعمل على إرضاء الطبقة المثقفة فى المجتمع الرومانى. وأعظم أولئك الآباء أهمية كليمنت السكندرى (١٥٠ - ٢١٧م)، وأوريجين السكندرى (حوالى ١٨٥ - ٢٥٤)، وجيروم (حوالى ٣٤٠ - ٤٢٠)، وأمبروز (حوالى ٣٤٠ - ٣٩٧)، وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠). والجدير بالذكر أن أولئك الرجال كانوا على دراية حقة بأعمال ومؤلفات الفلاسفة الكلاسيكيين، ومن ثم أفادوا تماماً من أفكارهم وأساليبهم، الأمر الذى مكنهم من شرح الديانة المسيحية للمثقف بلغة وأفكار مألوفة لديه ترضى نزعتهم؛ ولما كانوا يرغبون فى التفوق على الوثنيين المثقفين، فقد عكفوا على اقتباس الكثير من المؤلفات الكلاسيكية، خاصة أفكار الأفلاطونية، التى كانت - من أوجه عديدة - مطابقة للأفكار المسيحية^(١).

وسنحاول أن نلقى بعض الضوء على أولئك الآباء الذين دافعوا عن الكنيسة إبان أيامها الأولى، وأسهموا بأرائهم فى تثبيت أركانها، وتبيان سلطتها ونفوذها. وبداية ولد كليمنت السكندرى Clement of Alexandria وثنياً فى الأسكندرية، وفى رواية أخرى باثينا؛ عرف الأسرار الوثنية والمذاهب الفلسفية، وانتهى بتفضيل الأفلاطونية، غير أنها لم تشبع حياته الروحية، فاعتنق المسيحية. ويرى كليمنت أن الفلسفة مفيدة للإيمان وليست ضرورية له، وهى تمهيد لابد منه للذين يصلون إلى الإيمان عن طريق الاستدلال؛ وكان يرى أيضاً أن واجب المسيحي المثقف يقضى عليه بالتفقه فى الدين، وأن الفلسفة خير أداة لتحقيق تلك الغاية^(٢).

أما أوريجين Origen فهو تلميذ كليمنت السكندرى، درس عليه فى صباه، ثم حصل علمه بنفسه، ففاق أستاذه، وقد ولد بالأسكندرية من عائلة كانت وثنية ثم تنصرت، وكان فى السابعة عشرة من عمره عندما عصفت بالكنيسة المصرية اضطهادات الامبراطور سبتيموس سيفيروس التى كانت السبب فى إعدام أبيه ليونيداس ومصادرة أملاكه، ثم اضطلع بمنصب رئيس المدرسة المسيحية

(١) Painter, op. cit., p. 15.

(٢) يوسف كرم، المرجع السابق، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

بالأسكندرية - وهى مدرسة لتعليم أصول الدين - محل كليمنت، فأصاب كثيرا من النجاح، واستطاع أن يجتذب إلى علمه وبلاغته الكثير من الطلبة. وقد قام أوريجين بعدة رحلات أخرى رحلته إلى فلسطين عام ٢٥٠م، وفيما هو هناك شب اضطهاد هائل، فاعتقل وعذب عذاباً أليماً تحمله بشجاعة وصبر. غير أن التعذيب ألحق الضرر بجسده الواهى، فتوفى بمدينة صور، بعد أن أعلن عن رجوعه عن الآراء التى غيرت السلطات عليه. وقد دون أوريجين مؤلفات ضخمة، معظمها شروح على الكتب المقدسة، وحرصاً منه على تحقيق نصوص الكتب المقدسة تعلم اللغة العبرية، وقابل بين الترجمات اليونانية بعضها وبعض، وبينها وبين الأصول؛ وقد عرف عنه صدق ولأئه للكنيسة، وشدة تمسكه بالإيمان الصادق، والتوجه بكل إحساسه وشعوره نحو الحياة الروحية^(١). هذا وقد احتوى كتابه المشهور «المبادئ الأولى» Peri archon أول عرض فلسفى منظم للعقيدة المسيحية، أما كتابه الشذرات Stromateis فقد أثبت فيه أن الثقافة الكلاسيكية أمر ضرورى لفهم العقيدة المسيحية والكتاب المقدس فهما صحيحا^(٢).

أما القديس جيروم Jerome، فقد ولد حوالى سنة ٣٤٠م بالقرب من أكويلا، من أبوين على المذهب الكاثوليكي. ونال قسطاً وافراً من التعليم فى مدينة روما، ودرس الآداب اللاتينية واليونانية دراسة عميقة؛ وخلال دراسته فى روما عاش عيشة صاخبة، بيد أنه عندما بلغ سن العشرين اعتنق المسيحية وتمسك بمبادئها تمسكاً شديداً؛ وفى أكويلا كون جماعة من الأخوة الزهاد النساك، انضم إليها زمرة من أصحابه. ثم ترك جيروم عائلته، وأخذ معه مكتبته إلى الشرق الأدنى، حيث دخل أحد الأديرة فى أنطاكية فى عام ٣٧٤م. وهناك انتابته حمى شديدة، رأى خلالها رؤية غيرت مجرى حياته، فانسحب من الدير ليعيش عيشة النساك فى الصحراء. ولما كان ميله للدراسة يملأ جوانحه، فقد انتهز الفرصة وتعلم اللغة

Katz, Decline of Rome., p. 56.;

(١)

يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٧٤ - ٢٨٤.

(٢) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، ج ٣، ص ٣٠٩ - ٣١٣.

العبرية؛ وفي عام ٣٨١ زار مدينة القسطنطينية، وقدر له في تلك المدينة أن يدرس على يد اللاهوتي العظيم جريجورى النازيانزى (٣٢٩ - ٣٨٩) Gregory of Nazianzum. وعندما زار مدينة روما في العام التالي (٣٨٢) قابل البابا داماس الأول (٣٦٦ - ٣٨٤) الذى شجعه على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية، ذلك أن الكنيسة قد أدركت آنذاك أن الترجمات اللاتينية المختلفة للكتاب المقدس كانت غير جيدة، لكثرة ما جاء بها من أخطاء، فضلاً عن اعتمادها على مصادر غير جديرة بالثقة. وقد قام جيروم فعلاً بتنقيح النسخة اللاتينية بعد أن رجع إلى مصادر يونانية وعبرية، ثم أخرج للكنيسة ترجمة منقحة صحيحة للعهد الجديد باللغة اللاتينية، وهى الترجمة التى أضحت النسخة المعتمدة في الكنيسة في العصور الوسطى والعصر الحديث^(١). ثم خرج جيروم من روما في عام ٣٨٥ إلى أنطاكية، واستقر به المطاف في بيت لحم بفلسطين، حيث أنشأ ديراً للرهبان صار هو رئيسه، كما أنشأ نزلاً لحجاج الأراضى المقدسة، وأتاحت له الظروف فرصة كافية ليواصل دراساته باللغة العبرية والكلدانية، فضلاً عن كتابة العديد من الرسائل التى أعطينا لمحات حية عن الحياة آنذاك، ولم ينقطع جيروم عن الكتابة، حتى حضرته الوفاة سنة ٤٢٠^(٢).

ومن أباء الكنيسة القلائل الذين تعتنز بهم المسيحية القديس أمبروز St. Ambrose، الذى ولد في مدينة ترييه (تريث) Trier في بلاد الغال حوالى عام ٣٤٠م، من أسرة رومانية عريقة، ونال حظاً وافراً من التعليم، فدرس القانون والآداب اللاتينية واليونانية في روما، وقد أجمعت الظروف على أنه سيحظى بمكانة مرموقة في المجتمع، وفعلاً عندما خلا منصب رئيس أساقفة ميلان في عام ٣٧٤م، عين في ذلك المنصب بعد أن حصل على تأييد إجماعى شامل، ويروى أنه أثناء النظر في انتخاب رئيس الأساقفة صاح طفل صارخاً : «أمبروز للأسقفية»، الأمر الذى عزز مركزه في شغل المنصب؛ وسرعان ما تولى أمبروز عن زخرف

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, A Hist. of the Western World., p. 144.

(٢) Wand, A Hist. of the Early Church to A.D. 500., (London, 1977), pp. 206 - 210.

الحياة، وكرس حياته لخدمة الكنيسة، وكانت الثروة موضع احتقاره، بدليل أنه بادر بالتخلي عن الميراث الذي ورثه عن أبيه، ووزعه على الفقراء والمحتاجين^(١). وكان لتربيته في جو التقاليد السائدة بين طبقة الموظفين المدنيين في الأمبراطورية أثر بعيد في آرائه، إذ لم يقلل إخلاصه للمسيحية من ولائه للدولة الرومانية، لا اعتقاده أن المسيحية سوف تكون مصدر قوة للأمبراطورية، وأنه كما انتصرت الكنيسة على الوثنية، فسوف تنتصر الأمبراطورية المسيحية على الجerman المتبربرين؛ ويرى امبروز أن قانون الكنيسة لا يمكن تطبيقه إلا على أيدي الأساقفة الذين يخضع لسلطانهم جميع الناس حتى الأمبراطور نفسه^(٢). وقد أعطى المثل على قوة نفوذ الكنيسة أمام الأمبراطور عندما أرادت جستينا Justina أرملة ثالنتينيان الأول في عام ٣٨٥م - وكانت على المذهب الأريوسي - الاستيلاء على أحد كنائس ميلان لصالح الأريوسيين، ولكن امبروز اتخذ موقفاً حاسماً ضدها، إذ أمر جموعاً ضخمة من أتباعه بوضع أيديهم على الكنيسة موضع النزاع، كي يمنع جند الأمبراطورة من الاستيلاء عليها بالقوة، وقد حقق امبروز ما أراد، إذ لم تلبث القوات الأمبراطورية أن فكت حصارها عن الكنيسة. وتشير حادثة أخرى لما بذله امبروز من جهد في مواجهة حكم الأباطرة المسيحيين، عندما أجبر الأمبراطور ثيودوسيوس الأول أو العظيم على طلب المغفرة، لارتكابه مذبحه قام بها في ثيسالونيكا (سالونيكا) Thessalonica في بلاد اليونان في عام ٣٩٠ راح ضحيتها سبعة آلاف من سكان تلك المدينة، عقاباً لهم على ثورة قاموا بها وقتلوا حاكمها، وهو بهذا العمل أكد أن الأباطرة عليهم الخضوع لسلطة الكنيسة^(٣)، الأمر الذي جعله يحتل مكانة بارزة في النضال الذي دار بعد ذلك بين البابوية والأمبراطورية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

Wand, op. cit., p. 203.

(١)

(٢) بوسن، تكوين أوروبا، ص ٥٢.

(٣) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., pp. 143 - 144; Wand, op. cit., pp. 203 - 205.

وأخر آباء الكنيسة العظام، بل وأعظم مفكرى عصره على وجه الإطلاق، هو القديس أوغسطين St. Augustine الذى لازال ظله يخيم على الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية. ولد سنة ٣٥٤ فى تاجستا شرقى نوميديا Numidia (سوق الأخرس فى الجزائر حالياً)، من أب وثنى وأم مسيحية، ونال قسطاً وافراً من التعليم وأجاد اللغة اللاتينية، ودرس القانون فى قرطاجنة، ثم تركه بعد ذلك إلى البلاغة؛ ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره، غادر قرطاجنة إلى روما، وهناك تلوث بشبابه بالردائل التى تحدث عنها فى صراحة تامة، حتى أنه رفض اختيار زوجة له، وفضل أن يتخذ له عشيقة، عاش وفيّاً لها حتى افتراقاً فى عام ٣٨٥م، وقد أنجبت منه طفلاً. وإذا كانت حياته الخاصة سارت على هذا المنوال، إلا أن حياته العقلية كانت على النقيض تماماً، فقد ساقته تلك الحياة إلى الفلسفة الوثنية ولكنها لم تشبع حاجته، فتحول عنها إلى الأفلاطونية المحدثّة، ثم استهوتها تعاليم المانوية؛ وهنا نلاحظ أن رحلة الشك هذه لم تصل به إلى الحقيقة المنشودة. وفى عام ٣٨٣ استمع أوغسطين لعظات القديس امبروز كبير أساقفة ميلان، فاثّار اهتمامه شرح العهد القديم، واشتد تأثره بالمسيحية تأثراً أَرْضَى عاطفته الدينية، وخلصه من موجة الشك العارم التى كانت تجثم على صدره. وفى عام ٣٨٧ عمده أمبروز، وعزم العقد على تكريس حياته لخدمة الدين المسيحى، فلما وصل إلى أفريقية باع ما تركه له أبوه من ميراث صغير، ووزع ثمنه على الفقراء. وفى ٣٩١ اختير أسقفاً لمدينة هبو (بونا الحالية فى الجزائر)، وظل يشغل ذلك المنصب، فى الوقت الذى واصل فيه كتاباته اللاهوتية، حتى نوفى سنة ٤٣٠م أثناء الحصار الذى فرضته جماعات الوندال الجرمانية على تلك المدينة^(١).

ومن مؤلفات أوغسطين كتابان يعدان من أعظم كتب الأدب واللاهوت، فاعترافاته Confessiones وهى من أروع كتب السيرة الذاتية التى بقيت من العالم القديم، وأوسعها شهرة، وصف فيها ما اقترفه من ذنوب وأثام فى صباه،

Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., pp. 144 - 146.;

(١)

برنثن، أفكار ورجال، قصة الفكر الغربى، ص ٢٣٤.

ثم قصة هدايته وتوبته إلى الله في وضوح. أما أعظم مؤلفاته أهمية كتابه الآخر «مدينة الله» De Civitate Dei، الذي شرع في كتابته سنة ٤١٣م، وانتهى منه سنة ٤٢٦. ويعتبر هذا الكتاب فلسفة للتاريخ وصورة للأفكار اللاهوتية والسياسية، التي سيطرت على أوروبا العصور الوسطى حتى عصر توما الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد دفعته الكارثة التي حلت بمدينة روما على يد الأريك القوطي سنة ٤١٠م إلى تأليف هذا الكتاب، فقد أذاع الوثنيون في كل مكان من الامبراطورية أن المسيحية هي سبب ما حل بالمدينة من تخريب ودمار. وأحس أوغسطين بتزعزع الثقة في قلوب الناس من جراء تلك الكارثة، فذكر أن ما حل بروما لم يكن إلا عقاباً لها على ما إرتكبه من آثام وشرور كامنة في ثنايا الآلهة الوثنية وتقاليدها. ولم يجد صعوبة في إثبات أن كثيراً من المدن والامبراطوريات قد انحلت وسقطت قبل مجيء المسيحية بزمان طويل. وقد ذكر أوغسطين في كتابه أن هناك مدينتين موجودتين معاً: مدينة الأرض ومدينة الله، الأولى من صنع البشر تفنى كما يفنى جسم الإنسان، أما مدينة الله فإنها أبدية تدوم مع الروح، وإذا جاز أن تتحطم مدينة الإنسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لاتزال بخير؛ أضف إلى هذا أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة، على حين أن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانها، وفي وسع الكنيسة أن تكون هي بعينها مدينة الله. وتجدر الإشارة إلى أن البابوية اعتمدت على كتاب مدينة الله في إبراز تفوق مدينة الله - أي الكنيسة وعلى رأسها البابا -، على المدينة الأرضية - أي الدولة وعلى رأسها الأمبراطور -؛ وهكذا قرر أوغسطين مبدأ أن تكون سلطة البابا ممثل الله على الأرض ورأس الكنيسة، في منزلة أعلى من تلك التي يتمتع بها الأمبراطور وهو الحاكم العلماني، الأمر الذي يترتب عليه خضوع الدولة للكنيسة^(١).

Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., p. 146;

(١)

مارتمان وباراكلاف، الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى، ص ٤٥ - ٤٦؛ برنتن، أفكار ورجال، ص ٣٦؛ هرنشو، علم التاريخ، ص ٢٧ - ٢٨.

الآريوسية والاثناسيوسية :

نشأ في المسيحية في القرن الرابع الميلادي اختلاف في وجهات النظر حول المسائل اللاهوتية، وهو أمر من الطبيعي حدوثه. والجدير بالذكر أنه عندما كان يثار جدل حول قضية ما، ويشتد ويتفاقم، ويؤدي في النهاية إلى نزاع، كان لا بد من عقد مجمع من الأساقفة يقوم بدراسة موضوع الجدل ووضع الحل المنشود. وفي أثناء ذلك القرن شهدت المسيحية نزاعاً بين رجلين من رجال اللاهوت - وهما أريوس وأثناسيوس - في مدينة الأسكندرية، ترتب عليه انقسام أتباعها إلى مجموعتين، المجموعة الأولى وهي التي تناصر أريوس أطلق عليها الآريوسية، والمجموعة الأخرى وهي التي تناصر أثناسيوس أطلق عليها الاثناسيوسية. وقد احتدم الخلاف بين الآريوسية والاثناسيوسية حول العلاقة بين الرب والمسيح، أو بين الأب والإبن، إذ نادى أريوس وكان قد بدأ حياته باعتراف الأفلاطونية المحدثه القائلة أن الله واحد لا يتجزأ، أن الابن (المسيح) أقل من الأب في الجوهر، ووضعه بين بقية المخلوقات، حقيقة قال بسمو هذا المخلوق، ولكنه وضعه بين سائر البشر، وأقرت الآريوسية أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، أي أن وجود المسيح لاحقاً للإله في الزمن ونابعاً منه، أو أدنى من الإله الأب بشكل ما؛ بيد أن الاثناسيوسية رفضت هذا الرأي قائلة أن الأب والابن من جوهر واحد أو مادة واحدة Homoousios. وهنا نلاحظ أن الآريوسية التي تميل إلى التوحيد في كثير من نواحيه، اهتمت في المقام الأول بمخاطبة عقول المثقفين وإقناعهم، على حين وجهت الاثناسيوسية جل اهتمامها تجاه الغالبية العظمى من البسطاء. وبعبارة أخرى، استهدفت الآريوسية جعل العقيدة منطقية تتجاوب مع العقل، أما الاثناسيوسية فهدفتها نابع من المشاعر والأحاسيس العاطفية التي احتلت المكانة الأولى في نظرها. وعندما اشتد الجدل والنزاع بين الجانبين حول هذه المسألة، دعا الأمبراطور قنسطنطين العظيم إلى عقد مجمع في مدينة نيقية في غرب آسيا الصغرى للبت في هذه المسألة. وكان أن عقد المجمع المسكوني الأول في ٢٠ مايو سنة ٣٢٥ برئاسة الأمبراطور لمناقشة تعاليم أريوس وأثناسيوس، حضره جمع

هائل من الأساقفة بلغ عددهم حوالي ٢٧٥ أسقفًا، فضلاً عن عدد كبير من رجال الدين أقل درجة. وفي هذا المجمع عرض كل فريق آراءه ووجهة نظره، وبعد نقاش طويل تجلت فيه مقدرة أثناسيوس وبلاغته، انتهى المجمع إلى رفض آراء أريوس ونفيه إلى تربييه في بلاد الغال وإدانة أنصاره بالهرطقة^(١).

غير أن النزاع بين الأريوسية والأثناسيوسية لم يقف عند هذا الحد، فقد شرع قنسطنطيوس - ابن قنسطنطين وخليفته - يبحث بنفسه أبوة المسيح، حتى انتهى رأيه إلى اعتناق مذهب أريوس، وما لبث بعد أن نجح في توحيد الإمبراطورية، واستقرت له الأمور سنة ٣٥٣م، أن قرر طرد أثناسيوس من كرسي الاسكندرية، وإطلاق سراح أريوس من منفاه، ورجوعه إلى الاسكندرية^(٢). غير أن أثناسيوس ذلك الرجل الذي يرجع إليه معظم الفضل في استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث Trinitarian doctrine، لم يركن إلى الكسل بعد تقاعده الاضطراري، فقد دأب على كتابة بعض المؤلفات التي تبحث في اللاهوت المسيحي، كما أنه لم يلق بسلاحه في وهدة اليأس، إذ رجع إلى الاسكندرية في عام ٣٦٢، ودعا إلى عقد مجمع أقر الاعتراف بعقيدة نيقية القائلة بأن جوهر المسيح مساو لجوهر الله، وبموجبه عاد إلى مقر أسقفية وسط مظاهر الفرح والتهليل؛ ولكن الإمبراطور جوليان المرتد الذي كان يبغض المسيحية والمسيحيين - مبعاً ويخص أثناسيوس بكراهية خاصة، أبدى دهشته من الجراءة التي مكنت أثناسيوس من العودة إلى الاسكندرية دون أخذ رأي الإمبراطور، ولذلك استنكر تصرفه، وأمر بإبعاده عن منصبه ونفيه من مصر في أكتوبر سنة ٣٦٢م^(٣). وبعد أن توفي جوليان في العام التالي (٣٦٣) أتى جوفيان إلى عرش

(١) Jones, op. cit., pp. 42 - 43; Painter, op. cit., pp. 16 - 17.

أما لفظة «الهرطقة» فهي كلمة يونانية الأصل معناها الرأي المستقل أو الاجتهاد الفردي، وقد استخدمتها الكنيسة لدمغ المخالفين لرأي الكنيسة، وما اتفق عليه في المجامع الكنسية المبكرة.

(٢) Jones, op. cit., p. 54; Wand, op. cit., pp. 171 - 172; Piganiol (André), L'Empire Chrétien, (Paris, 1947), pp. 94 - 95.

(٣) Wand, op. cit., p. 172; Piganiol, op. cit., p. 140;

جيبون، اضطحلال الامبراطورية الرومانية، ج ٢، ص ٧٠ - ٧٣.

الأمبراطورية، ولم يلبث أن أعلن اعتناقه المسيحية على المذهب الأثناسيوسى، فى الوقت الذى خرج فيه أثناسيوس من عزلته عندما بلغه خبر موت چوليان، وعاد مرة أخرى إلى كرسى أسقفية الأسكندرية، وظل فى منصبه إلى أن مات فى الثمانين من عمره، بعد عشر سنوات من عودته^(١).

الفصل الثالث

المجتمع الجرمانى وعلاقته المبكرة بالامبراطورية

من المعروف أن حضارة أوروبا في العصور الوسطى قامت على ثلاث قواعد هامة : أولها الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الأمبراطورية الرومانية المتأخرة، وثانيها نمو الديانة المسيحية وسرعة انتشارها، وثالثها الشعوب الجرمانية والتبريرة^(١). وقد مر بنا من قبل كيف أخذت الأحوال في الأمبراطورية الرومانية في القرنين الثالث والرابع تمر بمرحلة انتقالية كان لها بعيد الأثر في هدم صرح العالم القديم وبداية العصور الوسطى، وبمعنى آخر ظهور قيم ومبادئ جديدة، تخالف ما ألفه الناس من قبل. وقد كان من الممكن أن تبقى الأمبراطورية في الغرب الأوربي أمداً أطول رغم الانحلال الذي دب في كيائها، لولا هجمات البرابرة وغزواتهم التي أسرعت بالأمبراطورية نحو تقويض دعائمها. وقد انقسمت الشعوب المتبريرة التي كانت تهيم وراء جبهتي الراين والدانوب إلى قسمين متميزين هما الشعوب المغولية أو الشعوب الآرية - الألطانية والشعوب الجرمانية. وقد جاءت الشعوب المغولية أصلاً من مناطق الاستبس في أواسط آسيا الممتدة من جبال أورال حتى جبال ألطاي، واشتملت على العديد من الجماعات مثل السكيثيين، والسارماتيين، والهون، والبلغار، والآفار، والمجريين، والمغول، والأترك؛ وهم أقوام بدو رحل، لا يعرفون الزراعة، عاشوا على رعي الخيول وتربيتها، ينتقلون من مكان إلى آخر سعياً وراء العشب والكلأ. أما الشعوب الجرمانية فموطنها الأصلي شبه جزيرة اسكندناوه، وهي المادة البشرية التي شكلت أوروبا الحديثة، ويختلف الجرمان عن الشعوب المتبريرة المغولية في أنهم عرفوا الزراعة ومارسوها^(٢). ومما يجدر ذكره أن الشعوب الجرمانية قد نهضت بدور بارز في مصير القارة الأوربية في القرن الخامس الميلادي، بسبب الهجرات والغزوات التي قامت بها، والتي انتهت إلى تأسيس ممالك جديدة غيرت معالم الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي، على حين

Hoyt (Robert S.) & Chodorow (Stanley), Europe in the Middle Ages., (U.S.A., (١) 1976), p. 55.

Stephenson, Mediaeval Europe., p. 48.

(٢)

أن هجرات الشعوب المغولية وغزواتها لم تؤد إلى استقرار دائم ذي أهمية في أراضي الأمبراطورية^(١).

وتنقسم الشعوب الجرمانية بدورها إلى مجموعتين عظيمتين، يؤكد كل منها الوضع الجغرافي : مجموعة الشعوب الجرمانية الشمالية والشرقية، ومجموعة الشعوب الجرمانية الغربية. فالشماليون هم الذين فضلوا البقاء في شبه جزيرة اسكندنافيا وما حولها، حيث تفرعت عنهم الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية، وتمتد مساكن الشرقيين بين الإلب والفيستولا وسواحل البحر الأسود، على حين امتدت مساكن الغربيين بين الإلب والراين. وقد تألفت مجموعة الشعوب الجرمانية الغربية من قبائل وجماعات عديدة لعبت دوراً هاماً في أحداث أوروبا العصور الوسطى مثل الكمبري، والتوتون، والشيروسكي، والشاتي، والماركوماني، والكوادي، والسوفي، والثورنجيين، والجوتنج، والأيماني. كذلك اشتملت مجموعة الشعوب الجرمانية الشرقية على قبائل وجماعات عديدة لعبت نفس الدور في أحداث أوروبا مثل الوندال، والبرجنديين، والقوط، والجيبيداي، واللومبارديين، والسكيريين، والهيرولي^(٢).

وينبغي القول أن لفظة البربرية التي أطلقها الرومان على الشعوب المستقرة فيما وراء الراين والدانوب، لا يقصد بها الوحشية أو الهمجية بأي حال من الأحوال، بل أية مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي الذي لم يبلغ مرحلة التنظيم الرأقي الناجم عن الاستقرار المدني والدولة ذات الحدود الإقليمية المعنية، وبمعنى آخر المقصود به حضارة القبيلة تمييزاً لها عن حضارة المدينة^(٣). وقد استعار

Deanesly (Margaret), A Hist. of Early Medieval Europe. From 476 to 911., (١)
(London, 1960), p. 19.

Lot (F.), Les Invasions Germaniques., (Paris, 1935), pp. 30-32; Piganiol, (٢)
L'Empire Chrétien. 325 - 395, p. 13.

(٣) بوسن، تكوين أوروبا، ص ٨٣.

الرومان كلمة بربري barbarian من الإغريق، الذين أطلقوها - على عاداتهم - على كل الأجانب، ولو كانوا في مثل حضارتهم وثقافتهم^(١).

ويرجع الفضل فيما وصل إلينا من معلومات عن الجرمان إلى علم الآثار وكتابات المعاصرين، فالأدوات التي استخدموها، والكنوز التي دفنت معهم أو فقدت منهم مصادفة، كشفت عنها الحفريات في العصور الحديثة. أما كتابات المعاصرين فقد أعطانا يوليوس قيصر وتاكييتوس عنها وصفاً مبكراً لحياة الجرمان وعاداتهم. وحول ما كتبه يوليوس قيصر (١٠١ - ٤٤ ق.م) تكشف عنه «مذكرات في الحرب الغالية» Commentarii de Bello Gallico وهي عن سياسته وحملاته في إقليم الغال (فرنسا الحالية). وقد تضمنت تلك المذكرات وصفاً موجزاً عن أصل سلالات الجرمان وثقافتهم؛ أما كتابات تاكييتوس عن الجرمان، فهي أعظم الكتابات التي عرفها العالم الروماني أهمية^(٢).

رسم المؤرخ كورنيليوس تاكييتوس Cornelius Tacitus صورة رائعة عن حياة الشعوب الجرمانية وعاداتها وتقاليدها في كتابه «جرمانيا» Germania واسمه كاملاً «بحث في أصل الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها» De Origine, moribus et populis Germaniae. ولد حوالي عام ٤٤ أو ٥٥ م على الأرجح، وتثقف بالثقافة الرومانية العالية، وكان زوجاً لابنة أجريكولا Agricola القائد الروماني الشهير فاتح شمال بريطانيا، وتدرج في سلك الوظائف التي يشغلها أعضاء مجلس السناتو. وفي عام ٩٨ م (ارتقى إلى منصب

Cantor (Norman E.), Medieval Hist. The Life and Death of a Civilization., (١) (U.S.A., 1969), p. 105.

من الواضح أن اليونان والرومان حين أطلقوا على الشعوب الجرمانية لفظة بربرية barbari لم يكونوا يقصدون بذلك الثناء عليهم. وأكبر الظن أن هذا اللفظ يقابل لفظ فرفار Varvar في اللغة السنسكريتية، ومعناه اللفظ الجاف غير المثقف، وهو شديد الصلة أيضاً بلفظ بربير berber.

Taylor (Henry Obsorn), The Mediaeval Mind., Vol. I (London, 1936), pp. 138 - (٢) 139.; Copeland (W.O.L.), The Germanic Invaders., pp. 2211 - 2212.

عبد اللطيف أحمد على، مصادر التاريخ الروماني، ص ٢١ - ٢٢.

قنصل Consul تم سداد، وظيفة البروقنصل Pro-Consule، وبهذا اللقب عين حاكماً لولاية آسيا (الصغرى) عام ١١٢م. من المعروف أنه كان كثير التردد على البلاط الإمبراطوري، وصديقاً حميماً لبنيى الصغير الخطيب المقوه المرموق، وظلت الصداقة تربط بينهما طوال حياتهما^(١).

ألف تاكيتوس كتابه زمن الإمبراطور تراچان (٩٨ - ١١٧)، وهو أعظم وصف قام به مؤرخ قديم، تناول حياة الجرمان. والجدير بالذكر أن تاكيتوس لم يزد الجرمان فى مناطقهم الأصلية على حدود الإمبراطورية، ولكن بوصفه من الطبقة الأرستقراطية، كان باستطاعته التحدث مع الجند العائدين من الجبهة، والاطلاع فى حرية على الوثائق الحكومية. وقد وضع كتابه بهدف عقد مقارنة بين البساطة المثالية فى المجتمع الجرمانى التى ذكرته بفضائل روما القديمة من ناحية، والتدهور والانحطاط الذى وصل إليه المجتمع الرومانى من ناحية أخرى، وحث مواطنيه الرومان على أن ينهجوا نهج الفضائل الجرمانية، وأن ينفضوا ماعلق بحياتهم من مظاهر الانحلال والترف من ناحية ثالثة^(٢).

ويذكر تاكيتوس فى كتابه أن موطن الجرمان يحيط به المحيط من الشمال، ويفصله عن بلاد الغال نهر الراين والدانوب، وتفصله عن سرماتيا Sarmatia وداكيا Dacia سلسلة جبال وعرة (سلسلة جبال الكريات). وموطن الجرمان أو جرمانيا - كما وصفها تاكيتوس - بلاد كثيفة، ذات مسالك وعرة، ومناخ بالغ القسوة، لاتبعث السرور فى النفس. ويرى أن القبائل الجرمانية تتميز بعنصرها النقى، الذى لم يخالطه دماء غيرهم من الشعوب الأخرى، ويتصف أفرادها بصفات جنسانية معينة : عيون زرقاء حادة لامعة، وشعر أصهب، وقامة طويلة ضخمة. غير أن الجرمان أثقل قدرة على تحمل العمل اليدوى الشاق، وأقل

Church (A.J.) & Brodribbe (T.), The Complete Works of Tacitus., (New York, (١) 1942), pp. ix - x ;

إبراهيم طرخان، تاكيتوس والشعوب الجرمانية، ص ١١ - ١٥؛ فرنشوى، علم التاريخ،

ص ٢٤ - ٢٥.

Cantor, op. cit., p. 108. (٢)

الشعوب احتمالاً للعطش والحر، أما البرد والجوع فقد تم رسماً حينئذٍ، نتيجة مناخ وتربة بلادهم^(١).

وأرض الجرمان بشكل عام مليئة بالغابات والأحراش، معرضة للرياح الشديدة، تغلبت المستنقعات، وهي وإن كانت صالحة لزراعة الحبوب، إلا أنها تحتاج لأشجار الفاكهة، ومواشيها ضئيلة الحجم، وفيرة الأعداد، مفتقرة إلى الجمال. ولم يهتم الجرمان بحياسة الذهب والفضة إلا قليلاً، ويمكننا أن نرى لديهم أوان فضية، وهذه قدمت هدايا إلى سفرائهم وزعمائهم. وهنا نلاحظ أن سكان الحدود من الجرمان هم الذين عنوا بالذهب والفضة لفائدتهما التجارية، أما أولئك الذين ظلوا بعيداً عن الحدود الرومانية، فقد داموا على استخدام نظام المقايضة البسيطة في معاملاتهم^(٢).

أما ديانة الجرمان، فكانت خليطاً من الأساطير وعبادة قوى الطبيعة ومظاهرها، مثل الكواكب والنجوم والشمس والرعد والبرق وغيرها. والإله الرئيسي الذي عبده هو عطارد Mercurus، وفي أيام معينة من السنة كانت القرابين تقدم إليه، حتى من الضحايا البشرية، أما هرقل Hercules ومارس Mars فكانت القرابين تقدم لهما من الحيوانات عادة. وهناك البعض من قبيلة السويثي Suevi كان يقدم القرابين إلى الإلهة إيزيس. ولم يحدث أن شيد الجرمان معابد خاصة لألهتهم، إذ كانوا يرون أنه من السخف أن تظل الآلهة حبيسة بين الجدران، أو أن تمثل بأي شكل يشبه الصورة البشرية^(٣). واعتقد الجرمان في الحياة الأخرى، ومن ثم نشأت لديهم عقيدة الأطياف. ولما كان الإله وودان Wodan ينتقى من الأرواح من يدخل في نعيم العالم السفلي، كان على بقية الأرواح أن تظل هائمة على الأرض، تنتشر بين الناس النحر والرهبه، ولا تزال

Church & Brodribbe, op. cit., pp. 709 - 710; Tacitus, A treatise on the Situation, (١) Manners and Inhabitants of Germany., (U.S.A., 1977), pp. 247 - 248.

Tacitus., p. 249.; Church & Brodribbe, op. cit., pp. 710 - 711.

Tacitus., p. 251; Church & Brodribbe, op. cit., p. 713.

(٢)

(٣)

هذه النظرة تتمثل فى حكايات الجان والأشباح والحوريات والغيلان والسعلاة^(١). وهم أكثر الناس اعتقاداً فى الفأل والطيرة، ويعتقدون مع الشعوب الأخرى فى التفاؤل بأصوات الخيل. وثمة طريقة للتنبؤ بمصير الحروب الدائرة بينهم وبين أعدائهم، وهى أنهم يحاولون القيام بأسر واحد من القبيلة التى هم فى حرب معها، فإذا نجحوا أجبروه على مبارزة واحد اختاروه من بينهم، على أن يحمل كل مبارز سلاح قبيلته، ويقبل انتصار أحدهما على الآخر، نذيراً بنتيجة الحرب الدائرة بين الطرفين^(٢).

ومن المعروف أن الجرمان لم يقطنوا المدن فى أيامهم الأولى، ولم يشيدوا بيوتهم مجاورة لبعضها البعض، ولكنهم عاشوا مبعثرين ومتفرقين، حول نبع أو فى غابة، فى أكواخ مشيدة من الكتل الخشبية والطينى من غير تهذيب أو إصلاح. كذلك عتوا بحفر الكهوف فى باطن الأرض، وحرصوا على إخفاء معالمها بتغطيتها بأكوام من المهملات، لاستغلالها فى تخزين حبوبهم ومحاصيلهم، فلا يستطيع العدو الوصول إليها إذا تعرضوا لهجوم شديد، بالإضافة إلى أنهم لجأوا إليها فى فصل الشتاء فراراً من قسوة البرد الشديد. واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات المفترسة، وهذا لاحظ أن نرى النساء لا يختلف عن الرجال، فيما عدا لباسهن الداخلى الذى يصنع من التيل، وخلو السترة الخارجية من الأكمام، بحيث تظهر أذرعتهن عارية وكذلك جزءاً من الصدر^(٣). وشرايبهم كانوا يصنعونه من الشعير أو القمح، أما النبيذ فلم يستطع الحصول عليه غير الجرمان المقيمين على الحدود الرومانية، وعرف عنهم الميل إلى الشراب حتى الثمالة، حتى أنه صار من السهولة إيقاع الهزيمة بهم، إذا أسرفوا فى الشراب. وكان طعامهم بسيطاً يتألف من الفاكهة الطبيعية واللبن ولحوم الصيد^(٤).

(١) على الغمراوى، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٧ - ٨.

Church & Brodribbe, op. cit., pp. 713 - 714.

(٢)

Copeland, The Germanic Invaders., p. 2222.; Tacitus., pp. 256 - 257; Church & (٣)

Brodribbe, op. cit., pp. 716 - 717.

Tacitus, p. 257; Church & Brodribbe, op. cit., p. 720.

(٤)

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعى إلى أحرار وعبيد، ولم يزاوِل الأحرار من حملة السلاح شيئاً من ألوان الحياة المادية، مثل الاشتغال بالزراعة أو التجارة، وإنما قضوا كل وقتهم فى الحرب أو التدريب على حمل السلاح، أما الأفتان والعبيد فقد اقتصر عملهم على الاشتغال بالزراعة، ويسود بعض الاعتقاد بوجود شكلين من أشكال الزراعة القروية، الأول يعتمد على العبيد، والآخر قام به أحرار لا يخضعون لزعامة حربية. وأرض القرية الصالحة للزراعة كانت مقسمة إلى قسمين على مدار العام، قسم يزرع، والآخر يترك كى تستعيد الأرض خصوبتها. وفى مجتمع القرية الزراعى قسمت الأرض الصالحة للزراعة بين الأسر، وتركت أراضي المراعى والغابات مشاعاً^(١).

أما الجماعات الجرمانية المقيمة بالقرب من السواحل، فقد احترفت التجارة أحياناً، وركوب البحر، والاشتغال بالقرصنة، وهى كلها أمور ارتبطت إذ ذاك بالحرب، وولدت فى النفس الشجاعة والحرية^(٢). ومن المشاهد أن الأرقاء لم يَنُوزُوا الأعمال المنزلية فى بيوت السادة كما هو الشأن عند الرومان، فهذه مهمة زوجة السيد وأطفاله. ولكن العبد التزم بأن يقدم لسيدده قدراً معيناً من الحبوب، وعدداً من الماشية، وكية من الخشب، وكان للسيد الحق فى ضرب عبده وتسخيريه فى الأعمال القهرية، وقد يقتله فى ثورة الغضب والانفعال كما يقتل أحد أعدائه، وفى مثل هذه الحالة لا يدفع السيد تعويضاً أو دية^(٣).

والحياة القبلية من الخصائص الرئيسية فى المجتمع الجرمانى. وهنا نلاحظ أن أسماء مثل «الفرنجة» و«السكسون» وغيرها، لا تعنى قبائل معينة، ولكنها تعنى مجموعة من القبائل متشابهة فى لغتها وتقاليدها وعاداتها. إذ من المحتمل أن الشعوب الجرمانية قبل أن تبدأ هجراتها من موطنها الأصلية اختلفت كل مجموعة منها عن الأخرى اختلافاً بينا، سواء فى اللغة أو العادات نتيجة انعزالها

Tacitus, pp. 256 - 257; Painter, A Hist. of the Middle Ages., pp. 23 - 24. (١)

(٢) إبراهيم العسوى، المجتمع الأودى فى العصر الوسيط، ص ٥٧.

Church & Brodribbe, op. cit., p. 721. (٣)

خلال تجوالها، مما أدى إلى تطوير لغتها وخصائصها الثقافية من ناحية، وتعديل أسلوبها في الحياة في المنطقة التي استقرت فيها من ناحية أخرى. ولهذا كله نشأت اختلافات واضحة بين مختلف الشعوب الجرمانية^(١). وقد عاشت القبيلة عيشة صاخبة، لها رئيس يحيط به زمرة من رفاقه في الحروب، وكل قبيلة مجلس خاص يتألف من القادرين على حمل السلاح، فإذا جد أمر اجتمع كافة الأحرار وتدارسوه، إلى أن ينتهوا إلى قرار بشأنه، ومن المعروف أن الجرمان أولعوا بالحرب والمغامرات الحربية، وبمعنى آخر كانت الحرب شاغلهم الأول. وسلاحهم المفضل هو الحربة المعروفة باسم Framea ذات الرأس القصير التي لا يزيد طولها عن ستة أقدام، وهي سهلة الاستخدام سواء عند الالتحام في المعركة أو للقذف من بعد، كذلك لم يرتد المحارب صدره مزودة بحمي جسمه، ولكنه حمل في يده درعاً زينها بالوان منتقاة. وينبغي القول هنا أن حفريات القبور أثبتت صحة ما جاء به تاكيتوس حول الأسلحة التي استخدمها الجرمان. ولما كانت خيولهم لا تتميز بالسرعة ولا بالرشاقة، فقد تركزت قوتهم في فرق الرجالة، التي كانت تحارب جنباً إلى جنب مع الفرسان؛ ودرجوا على حمل جثث قتلاهم في المعركة حتى قبل أن يتحدد مصيرها، ومهما كانت خطورة الموقف. ومن العار أن يتخلى المحارب عن درعه ويقرر من المعركة، إذ يعتبر الجبن من أخط الجرائم التي تشينه، ومن يثبت عليه ذلك يحرم من حضور الطقوس الدينية المقدسة، ولا يحق له الاشتراك في مجلس الجرمان العام، ولذلك فضل الكثير ممن لانوا بالفرار من المعركة، التخلص من حياتهم بالانتحار^(٢). ولا جدال أن كثيراً من العشائر الجرمانية تناولتها يد التغيير خلال الفترة الواقعة بين عصر تاكيتوس والقرن الخامس الميلادي، بسبب وفيات زعمائها وأبطالها، أو سقوطهم صرعى في ساحات الوغى، ولذلك اختفت أسماء قبائل ترجع إلى زمن مبكر، في الوقت الذي

Painter, op. cit., p. 20.

(١)

Tacitus, pp. 256 - 257.; Church & Brodribbe, op. cit., pp. 711 - 712; Copeland, (٢) op. cit., pp. 2217 - 2218.

أعيد فيه تشكيل قبائل أخرى^(١). ومن الجرمان من انخرط كجنود مرتزقة في الجيوش الرومانية، ووصل العديد منهم إلى ضباط وقواد أصحاب رتب عالية، ومنهم من جرى تجنيده في الحرس الإمبراطوري، وفي كثير من الأحيان دأبت الإمبراطورية على استئجار جماعات جرمانية تحت أمره قائدها للدفاع عن حدودها^(٢).

ويتضح جوهر التنظيم السياسي الجرمانى فى أن زعيم القبيلة، فضلاً عن الأعباء الملقاة عليه وقت السلم، كانت مهمته الأولى قيادة الحروب، فهو الذى يضع الخطط الحربية ومشارييعها، ويوجه النداء إلى المحاربين الشجعان الباحثين عن المغامرة، وعليهم أداء اليمين بالطاعة والولاء، وفي مقابل ذلك يمدهم بالأسلحة والطعام، والحصول على أنصبة من الغنائم^(٣). وقد آمن المجتمع الجرمانى بمبدأ المشورة فى تصريف أموره مهما قل شأنها. فبالنسبة للأمور الصغيرة التى تحتاج إلى حل سريع، اقتصر الأمر على اجتماع يحضره زعماء العشائر للتشاور، أما فيما يتعلق بالأمور الخطيرة، كان لابد أن يجتمع الشعب الجرمانى كله كى يأخذ ما يصلون إليه من قرار صفة الإجماع. وقد جرى عند اجتماع القبيلة أن يأتى أفرادها مسلحين، فإذا ما اكتمل عدد الحاضرين، جلسوا صامتين، وأذا نهم صاغية لما يقدمه زعيمهم من اقتراح، فإذا لم يوافقوا على اقتراحه أخذوا يزمجرون ويهمهمون بألفاظ مبهمه دلالة على الرفض، أما إذا لقي الاقتراح القبول والاستحسان لديهم، فإنهم يعبرون عن ذلك بضرب الحراب بعضها ببعض^(٤). ومن الواضح أن الملوك أو الزعماء كانوا لا يرثون العرش، وإنما يتم انتخابهم على أساس النبالة، أما القادة الحربيون فلا يقع الاختيار على أحدهم إلا إذا توافرت فيه الكفاءة والمقدرة. وكان باستطاعة أى زعيم حكم مدة

Taylor, op. cit., Vol. I., pp. 139 - 140;

(١)

قشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٢٠.

Jones, op. cit., p. 71.

(٢)

Painter, op. cit., p. 22.

(٣)

Tacitus, pp. 251 - 252.

(٤)

طويلة أو أحرز نصراً عسكرياً عظيماً أن يكون أسرة ملكية، ولكن التعاقب على العرش ليس ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء، فعند موت الملك يجتمع الزعماء، وينتخبون أحد أعضاء الأسرة الملكية الجدير بالعرش، وهذا يعنى أن يكون أفضل محارب^(١). وقد بقى حق الشعب الجرمانى فى انتخاب الملك أو اختياره، تقليداً سياسياً قوياً فى العصور الوسطى دام عدة قرون، لاسيما فى الدول التى ظلت فيها النظم الجرمانية ذات تأثير ونفوذ؛ فكان انتخاب الملك معمولاً به فى إنجلترا فى أواخر القرن التاسع الميلادى فى حالة رفع الملك الفرد Alfred الشهير إلى عرش إنجلترا، وحتى لغاية سنة ١١٩٩م عندما دان الملك يوحنا John بعرشه للمبدأ الانتخابى^(٢).

وكان يتم تصريف شئون العدالة فى محاكم شعبية للبت فيها، فأمام مجلس القبيلة العام كان من حق أى مواطن جرمانى أن يرفع دعواه. وهنا لابد أن يمثل المتهم أمام المحكمة، فإذا لم يأت تعلن المحكمة إدانته، ويتم الاقتصاص منه، أما إذا ظهر المتهم أمام المحكمة، فعليه تقديم الدليل بإحضار عدد من الرجال يقسمون على براءته، فإذا لم يستطع إثبات براءته عليه أن يدفع للمدعى عليه مبلغاً من المال يختلف حسب طبيعة الجريمة التى ارتكبها^(٣). وتختلف أنواع العقوبة حسب نوع الجريمة، فالجبناء والهاربون من ميدان القتال يعاقبون علانية بالشنق على الأشجار، حتى يكونوا عبرة ودرساً للغير، أما الذين أتوا أعمالاً سيئة لا تليق بالمجتمع الجرمانى وتقاليده، فأولئك يدفنون أحياء فى الطين أو فى مستنقع مغطى بسياج، دلالة على خسة الجرم وقضاوته، وحتى لا يراهم أحد^(٤).

وفى المجتمع الجرمانى قدر للمرأة الجرمانية أن تلعب دوراً بعيد الأثر، لاسيما فى الحروب. فمن تقاليدهم المعروفة أن الجيش إذا انسحب من المعركة، أو

Ibid., p. 205.

(١)

Cantor, op. cit., p. 112.; Painter, op. cit., p. 23.

(٢)

Painter, op. cit., p. 22.

(٣)

Church & Brodribbe, op. cit., pp. 714 - 715.

(٤)

لاحقت الهزيمة فى الأفق، اعترضت النساء - خاصة العذارى - طريق المحاربين المتقهقرين بكشف صدورهن، ليدرك الرجال مدى ما يلحق بهم من عار، إذا وقعت نسائهم فى ذل الأسر. ومن المسلم به أن وجود الأمهات والزوجات على مقربة من رعى المعارك الدائرة، جعلهن لا يبدين أى مخاوف من مشاهدة الجروح والدماء السائلة من جهة، وحملهن على بث الشجاعة فى قلوب المحاربين وتقديم الطعام والخدمات لهم من جهة أخرى. وقدر الجرمانى للمرأة مكانتها، وعرف باحترامه ورعايته لها، واعتقد فى أن للنساء إلهاماً وقدسيتها خاصة، ومن ثم التمس نصيحتهن، ولم ير بأساً من العمل بأرائهن، ولكن بعيداً عن الإطراء الخارج عن الحد المألوف، الذى يجعل منهن ألهة^(١).

وتوضح قوانين الزواج عند الجرمان مدى التناقض البالغ بينهم وبين الرومان. وقد نالت تلك القوانين التى اتسمت بالصرامة إعجاب المؤرخ تاسيتوس، ويمكن ذلك الإعجاب فى أن الجرمانى كان يقنع بزوجة واحدة، والقليل النادر من خرج على تلك القاعدة، الأمر الذى جعل للمرأة الجرمانية - كما أسلفنا القول - مكانة مرموقة فى المجتمع. وجرت العادة أن الزوج هو الذى يدفع الدوطة للزوجة، ويتفق والدا العروس وأقاربها على الهدايا التى يتبادلها الزوجان، وهى هدايا تشير دهشتنا، فهدية الزوج عبارة عن ثور وجواد مطهم ودرع ورمح وسيف، من الطبيعى أنها ليست من النوع الذى يرضى الذوق الأنثوى أو يصلح لزينة العروس، أما هدية العروس لزوجها فهى بعض الأسلحة؛ وتدل تلك الهدايا على أن الرابطة القوية التى تربط بين الزوجين كانت تقوم أساساً على الحروب من ناحية، وحتى تضع المرأة الجرمانية فى حساباتها أنها ليست معفاة من المهام الحربية ومتاعبها من ناحية أخرى. وعلاوة على ذلك جرى أن تقسم العروس فى حفل عقد القران على مشاركة زوجها فى السراء والضراء^(٢). ومما يدعو إلى الإعجاب أن الجرمانيات عشن حياة الطهارة والعفة، ولم يعرفن الخلاعة والفجور، وكان من

(١) Taylor, op. cit., Vol. I., p. 139.

(٢) Tacitus, p. 254.

النادر أن تقوم امرأة جرمانية بارتكاب الخطيئة وسط مجتمع لم يرحم من تجلب العار، فمن حق الزوج الذى ضلت زوجته طريق العفاف أن يعاقبها بحلق شعرها، أو يقوم بطردها من بيته، ويشهر بها فى طرقات القرية كلها، ولا ينفع الخاطنة جمالها أو شبابها أو ثروتها فى الحصول على زوج، ومن تقاليد الجرمان أنه لا يسمح بالزواج إلا للعذارى، ويعنى ذلك أن من تدنس شرفها، تنتهى آمالها وأحلامها^(١). ومن عادة الجرمان أيضاً الإكثار من الذرية، وهو الأمر الذى أهمله الرومان - ونعنى بذلك الطبقتين العليا والوسطى - منذ القرن الأول، ومن المؤكد أن تفوق الجرمان فى الخصب البشرى، أدى إلى تفوقهم العددي على الرومان، ولهذا عندما نشبت الحروب بين الفريقين، قدر للجرمان الانتصار^(٢).

ومن الواضح أن الأسرة كانت العصب الأساسى للمجتمع الجرمانى، فبزواج الأبناء والبنات كانت الأسرة - بالضرورة - تنمو إلى عشيرة، يلتزم أفرادها جميعاً بواجبات تجاهها، منها الأخذ بالثأر إذا ما وجد، وتحمل الفدية المطلوبة لمن تلحق به الأضرار من أفراد العشائر الأخرى، وحق كل الأفراد فى إبداء رأى فى مجلس العشيرة العام وتقرير إعلان الحرب، وفى أوقات الهجرة لم يكن هناك بطبيعة الحال ملكية ثابتة للأرض، ولكن عندما بدأت العشائر فى الاستقرار بعد طول تجوال، تقرر للأسرة حق الملكية فى حدود ثلث الموطن، على أن يبقى الثلثان مشاعاً للعشيرة^(٣). ولأرب أن بساطة المعيشة بين الجرمان خلقت بينهم روحاً من التقارب، جعلتهم بمنأى عن الحقد الاجتماعى الذى سيطر على طبقات المجتمع الرومانى، وأوجد بينها التفاوت البعيد.

وأولعت الشعوب الجرمانية بالغناء وترديد الأناشيد، لاسيما أناشيد الحرب والبطولة التى أسماها تاكيتوس «باريتوس» Baritus، وانتشرت بينهم بغرض

Church & Brodribbe, The Complete Works of Tacitus., pp. 716 - 718; Taylor, (١) op. cit., Vol. I., p. 139.

(٢) فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ١٩.

(٣) على الغمراوى، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٨.

إثارة الشجاعة فى النفوس، وإظهار القوة والبأس؛ وكان الصوت العنيف المدوى هو أحب الأصوات لديهم، ولذلك كان من عادة المحاربين وضع دروعهم أمام أفواههم كى يجعلوا الصوت أكثر قوة وارتفاعاً^(١).

ومن الفضائل الحميدة التى تميز بها الجرمان خصلة الكرم التى فاقوا فيها غيرهم، فمن واجب كل مضيف أن يستقبل ضيفه مرحباً، ويقدم إليه أفضل ما لديه من أطعمة وأشربة طبقاً لإمكاناته المتاحة، وإذا حدث أن نفذ طعامه وطرق بابه ضيف، فلا يقفل بابه دونه، بل يجعل من نفسه دليلاً لضيفه، ويتوجه به إلى أقرب جار من غير دعوة أو استئذان، وعند الجار ينال الاثنان بالغ الترحيب^(٢). على أن فضيلة الكرم التى كانت من شيمهم، يقابلها فى الجانب الآخر ميل شديد إلى اليسر، حتى وصل الأمر إذا خسر أحدهم فى لعبة النرد، ومن الجائز أن يقامر على حريته الشخصية التى يعتز بها، وعندئذ يصبح الخاسر عبداً للرابح دون أى ضيق أو تذمر^(٣).

ذلك هو المجتمع الجرمانى الذى وصفه تاكيتوس بدافع الإعجاب الشديد به. ومما زاد من أهمية ذلك الوصف الرائع أن الوثائق الجرمانية التى كتبت بعد عهده، ولا زالت باقية إلى الوقت الحاضر، أكدت ودعمته، على أنه يبدو أن تاكيتوس بالغ - إلى حد ما - فى وصف الفضائل التى يتمتع بها الجرمان، لاسيما عادات الزواج والحياة العائلية، حبا فى لفت الأنظار إلى تلك العناصر الجديدة النقية، بما تحمله من دماء فتية، بات الرومان فى أشد الحاجة إليها إذ ذاك^(٤). ويبقى ثمة أسئلة هامة تلوح فى الأفق أثارت همّة العديد من المؤرخين : من أين أتى أولئك الجرمان؟ وما الأسباب التى دفعتهم إلى إقتحام أبواب الامبراطورية الرومانية؟ وما علاقتهم المبكرة بتلك الامبراطورية؟ وكيف استطاعوا

Church & Brodribbe, op. cit., p. 710. (١)

Tacitus, p. 255; Church & Brodribbe, op. cit., p. 255. (٢)

Church & Brodribbe, op. cit., pp. 720 - 721. (٣)

Stephenson, op. cit., p. 51; (٤)

تأسيس ممالك جديدة لهم في غرب أوروبا عندما عجزت الأمبراطورية عن القيام بواجباتها ومسئولياتها؟

المعروف أن الموطن الأول للشعوب الجرمانية الغربية يقع في البلاد التي تحيط بالحافة الغربية لبحر البلطيق، فيما نطلق عليها حالياً جنوب السويد وجوتلاند Jutland، وشلزويج Schleswig، وهولشتين Holestein، والشواطئ الجنوبية لذلك البحر، فضلاً عن الجزر المتصلة به^(١). ويحيط الغموض الشديد بالتاريخ المبكر للشعوب الجرمانية التي سكنت تلك المناطق منذ أزمنة سحيقة. فالمصادر الأدبية الخاصة بالجرمان لم تشف غليل الباحث، إذ أنها ضئيلة إلى حد بعيد، وكل ما نعرفه عنهم في القرون الأولى قبل الميلاد أتى عن طريق الجهود التي كشفت عنها الحفريات الأثرية كما ذكرنا من قبل. غير أن أول بيانات علمية وصلت إلينا أوردها البحار اليوناني بثياس المرسيلى Pythias Massiliensis، الذي كان قد سافر في رحلة إلى بريطانيا حوالى سنة ٣٥٠ ق.م، وواصل سفره إلى الشمال ليشاهد البلاد التي لا تغيب الشمس في صيفها، وحل بأصقاع أطلق عليها اسم «ثولى» Thule، وليس من المعروف على وجه التحديد ما إذا كانت ثولى هي النرويج أو أيسلندا، ويرى بثياس أنه رأى في تلك الأصقاع أقواماً جرمانية أسماهم الأنجفيونيين، يعيشون على ثمر العليق وحب الجاروس وأنواع من الفاكهة والأعشاب والعسل، ويتاجرون مع غالة وإيطاليا في الكهرمان. ويمكن القول أن الغموض بدأ ينقشع عندما بلغت الشعوب الجرمانية حدود الأمبراطورية على نهر الراين في القرن الثاني قبل الميلاد، فقبل ذلك القرن لم تكن الأمبراطورية تعرف أن خلف أعدائها القدامى وهم الكلت Celts الذين عرفهم الرومان باسم الغاليين Gauls شعباً آخر أشد عداوة، أطلقوا عليه اسم الجرمان Germani^(٢).

Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 29.

(١)

Lot, Les Invasions Germanique., p. 13.; Bang (Martin), "Expansion of the Teu- (٢)
tons. (To A.D. 378)", in Camb. Med. Hist., pp. 183 - 185;

على الغمراوى، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٦.

وليس من المعروف الأسباب التي أدت إلى تحرك القبائل الجرمانية من مواطنها الأصلية فيما وراء نهري الراين والدانوب. من المحتمل أن الدافع إلى ذلك هو الأمل في التخلص من الضغوط الشديدة التي جاءت في مؤخرتها من أجناس أخرى أشد بربرية، أو الحروب المستمرة بين القبائل الجرمانية التي ترغم الخاسر إلى النزوح جنوباً والتجوال خلف الحدود الرومانية حتى يجد المأوى المنشود، أو التزايد في السكان المقترب بحدود المؤن والصيد، كل تلك الأسباب يبدو أنها دفعت الجرمان إلى التحرك. وصفوة القول أن تلك الشعوب لم يكن لديها هدف أو سياسة مرسومة تسعى إلى تحقيقها، كذلك لم تقصد بداية - عند ظهورها على مسرح الأحداث - القضاء على الإمبراطورية، ولكنها عندما اقتربت من حدودها بهرت عيونها ما تتمتع به الإمبراطورية من ازدهار وتقدم ورخاء ومناخ لطيف معتدل، فاثرت بغزواتها وتجوالتها السلمى، مشاركة الإمبراطورية ثرواتها وخبراتها من ناحية، وإيجاد مكان أمين للعيش بين ظهرانيتها من ناحية أخرى^(١).

وكان أن تحركت الشعوب الجرمانية، لاسيما قبائل الكمبرى Cimbri والتيوتون Teutons من موطنها الأصلي في أقصى شمال جوتلاند، وبعد أن شقت طريقها إلى وادي الدانوب الأوسط اتجهت غرباً. كل ذلك وروما لا تعلم شيئاً عما تقوم به تلك القبائل من تحركات وراء حدودها، إلى أن أتت سنة ١١٣ ق.م، وعندئذ بدأت روما تستيقظ من سباتها، وتعرف من هم الجرمان وتقدر خطرهم. ذلك أنه في تلك السنة غزت قبائل الكمبرى والتيوتون أراضي التورسكى Taurisci حلفاء روما القاطنين شمالى جبال الألب بين أعالي الدراف Drave والدانوب، ولم تلبث روما أن أرسلت جيشاً لمساعدة حلفائها، ولكنه منى بهزيمة فادحة على يد تلك القبائل التي اتجهت غرباً بعدئذ نحو الراين، حيث انضمت

Cantor, op. cit., pp. 107 - 108.; Painter, op. cit., p. 24.;

(١)

هارتمان وباراكلاف، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة د. جوزيف نسيم، ص ١١.

إليها قبائل التونجرين (Tigurini) والامبرونيس Ambrones، وفي عام ١١١ ق.م، عبرت تلك القبائل جميعاً نهر الراين إلى إقليم الغال، وهناك اشتبكت في حروب مع القوات الرومانية أظهرت ما هي عليه من قوة وبأس، بدليل أنها طلبت أرضاً داخل الحدود الرومانية للإقامة فيها، ولكن السلطات الرومانية أجابت بالرفض. ثم توالى هزائم القوات الرومانية، ففي عام ١٠٩ ق.م ألحق الكمبري هزيمة قاسية بها، بيد أنهم فشلوا في استغلال موقفهم كغالبين بعدئذ؛ وظهر خطر الكمبري والتوتون مرة أخرى عندما زحفوا أسفل وادي الرون، وهناك تحرك جيشان رومانيان ضخمان لمقابلتهما، بيد أن الضغائن التي كانت تحكم العلاقة بين قائدي الجيش، فضلاً عما نشب بينهما من نزاع، مكنت القبائل الجرمانية من تحطيم الجيش وإلحاق كارثة بهما في معركة رهيبة بالقرب من منطقة الأورانج Orange في عام ١٠٥ ق.م، راح ضحيتها حوالي ٢٠.٠٠٠ ألف روماني، الأمر الذي جعلها من أفدح الكوارث التي لحقت بالرومان طوال تاريخهم، ولو حدث أن قبائل الكمبري والتوتون تابعت زحفها على إيطاليا آنذاك، لما استطاعت قوة أن تصدها، ولكنها أثرت أن تحول وجهتها نحو أسبانيا، ثم مالبت أن غادرتها راجعة إلى بلاد الغال بعد ذلك بثلاث سنوات (١٠٢ ق.م)^(١). وكان أن عقدت روما العزم على مسح العار الذي لحق بها من جراء الهزائم التي نالتها على أيدي الجرمان، فبادرت بإعادة تنظيم قواتها، وعهدت بقيادتها إلى القائد الروماني ماريوس Marius الذي استطاع إلحاق الهزيمة بالتوتون سنة ١٠٢ ق.م في موقعة أيكس Aix في بروفانس، ثم دمر قوات الكمبري في موقعة بالقرب من فرسلاي Vercellae بإيطاليا في ٣٠ يوليو سنة ١٠١ ق.م، توقفت الغزوات الجرمانية على إثرها، وترتب على ذلك أن نعمت روما بفترة هدوء وأمن^(٢).

Lot, op. cit., p. 23; Bang, op. cit., pp. 187 - 191.

(١)

Sinnigen & Boak, A Hist. of Rome to A. D. 565., pp. 179 - 181; Robinson, A (٢)

Hist. of Europe., p. 232.; Bang, op. cit., p. 193..

وبعد فترة الهدوء التي زادت عن أربعين سنة، اضطرت روما أن تخرج من ذلك الهدوء، عندما قام أريوفستوس Ariovistus زعيم قبائل السويقي الجرمانية في عام ٥٨ ق.م بعبور نهر الراين، ثم اجتاحت بعض أراضي إقليم الغال. فبادر يوليوس قيصر الذي تسلم مهام منصبه حاكماً للغال في ذلك العام بمحاربتة. ودارت بينهما معركة بالقرد من ستراسبورج Strassburg انتهت إلى هزيمة الزعيم السويقي هزيمة ساحقة ودحره إلى ما وراء نهر الراين. بيد أن قيصر لم يلبث أن عقد صلحاً مع ذلك الزعيم، وحث السناتو على قبوله صديقاً للرومان وضمه إلى طائفة الحكام المواليين لروما، ولكن أعداءه في روما استغلوا هذا الأمر واتهموه بالخيانة^(١). على أنه من الإنصاف القول أن جانباً كبيراً من الفضل يرجع إلى يوليوس قيصر في أنه استطاع أن يجعل نهر الراين حداً قاصلاً بين الأمبراطورية والجرمان. ومهما يكن من أمر، فقد شهدت المنطقة آنذاك ازدياد أعداء الجرمان واستقرارهم، ودأب التجار الرومان على الوصول إليهم حاملين السلع، وبذلك دخل الجرمان في مرحلة جديدة من مراحل التطور الحضاري^(٢).

وفي تلك الأثناء أخذ الجرمان إلى الهدوء مرة أخرى، في وقت كان من الممكن أن يستغلوا فيه الموقف الناجم عن الحرب الأهلية التي اندلعت أوارها بعد اغتيال يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق.م. وجدير بالذكر أن الجرمان آنذاك رغم شجاعتهم وقوتهم، كانوا منقسمين إلى قبائل متناحرة، دأبت على محاربة بعضها بعضاً، لم تجد من يوحد بينها ويوجهها. على حين أن روما كانت على النقيض من ذلك، فلم تقف ساكنة، بدليل أنه ما إن صار أوكتافيانوس أوغسطس صاحب السيادة في روما، حتى قرر أن يضع حداً للأخطار التي تهدده من الشمال، وبمعنى آخر لم يرض بنهر الراين حداً للأمبراطورية، وصمم على رد الجرمان إلى ما وراء نهر الإلب Elbe. وكان أن عهد بتلك المهمة إلى ابني زوجته دروسوس Drusus وتيبريوس، اللذين استطاعا - بمساندة الأساطيل الرومانية - إحراز

(١) Lot, op. cit., pp. 24 - 25.; Bang, op. cit., pp. 194 - 195.; Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 212-213.

(٢) Katz, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe., pp. 99 - 100.

النصر على الجرمان في عدة مواقع. غير أن ماروبودوس Marobodus القدير ملك الماركوماني، وهم قوم من الجرمان كانوا يقطنون منطقة بين نهري الإلب، والدانوب (وتقابل حالياً بوهيميا)، أثار القلاقل ضد الرومان آنذاك. فأرسل إليه أوغسطس بعض القواد لم يستطيعوا كسر شوكته، ومن ثم أخذ تيبيريوس القائد القدير في إعداد حملة ضخمة، وبعد أن جهزها تجهيزاً تاماً سار على رأسها في عام ٦م ليصد خطر الماركوماني، غير أن قيام ثورة في منطقة بانونيا (شرق فيينا وشمال بلغراد الحالية) اضطرت تيبيريوس إلى عقد اتفاقية مع الماركوماني، استقر الأمر بموجبها على الاعتراف بماروبودوس صديقاً وحليفاً للشعب الروماني. ولم تلبث قبائل الشيروسكي Cherusci والشاتي Chatti الجرمانية أن ثارت على الرومان في عام ٩م، واستطاع زعيم الشيروسكي قتل فاروس Varus القائد الروماني عند غابة تيوتوبرج Teutoburg Forest بعد أن نصب له كميناً، راح ضحيته ثلاث فرق رومانية لم تعوضها روما، لما كانت تعانيه من نقص في القوى البشرية. وفي أعقاب تلك الكارثة المفجعة تخلى الرومان عن فكرة تثبيت حدود الامبراطورية عند نهر الإلب، وجعلوها عند الراين^(١). ومعنى هذا أن الامبراطورية أرغمت على أن يكون الخط الأطول (الدانوب - الراين) حدوداً لها من جهة الشمال، بدلاً من الخط الأقصر (الدانوب - الإلب)، مضحية بذلك بكل الفتوحات الرومانية في شرق الراين، أي في المنطقة المحصورة بين الراين والإلب. وكان لهذه الخطوة عواقب بعيدة المدى بالنسبة لمستقبل الامبراطورية الرومانية وأوروبا بوجه عام، فالشعوب الجرمانية التي تركت وشائها في تلك المنطقة من الامبراطورية، كانت عاملاً من عوامل انهيارها وسقوطها في النهاية.

وبعد وفاة أوغسطس اعتلى تيبيريوس عرش الامبراطورية الرومانية (١٤-٣٧م)، فرأى أن يسير على نهج سلفه فيما يتعلق بحدود الامبراطورية بعد كارثة فاروس، ووطد العزم على عدم التورط في أية حرب قدر الإمكان. ورغم ذلك لم يخلو عصره من حروب خارجية. ففي عامي ١٤ و١٥م كان القائد الروماني

Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 273 - 275, Salmon, A Hist. of the Roman World., (١) pp. 108 - 112.

العظيم جرمانيكوس Germanicus - ابن دروسوس - يقوم بمهمة عسكرية تستهدف تأكيد نفوذ الأمبراطورية على جبهة الراين بعد ما عانت من جراء هزيمة فاروس من ناحية، والقضاء على القلاقل والثورات الناشئة من قبل بعض الفرق العسكرية من ناحية أخرى، غير أن ما كان يعتمل في ذهن جرمانيكوس من أفكار، لم يكن بإمكان الأمبراطورية إيقافها، إذ طغت على جرمانيكوس فكرة إحراز مجد عسكري، ولذلك قام بثلاث حملات مكثفة لاستعادة الأقاليم الشمالية الغربية (بين الراين والويزر Wesser) من أيدي الجرمان، وقد أسفرت جهوده المضنية عن إحراز عدة إنتصارات كلفت الأمبراطورية الجهد والمال والأرواح، اضطرت الأمبراطور إلى إصدار أوامره باستدعاء قائده وإنهاء الحرب مع الجرمان، مع إخلاء المناطق التي استولى عليها وتثبيت حدود الأمبراطورية عند الراين^(١). وبذلك صارت جبهتا الراين والدانوب مرة أخرى حداً فاصلاً بين العالمين الروماني والجرماني، أو بالأحرى بين الحضارة والبربرية، حضارة الرومان وبربرية الجرمان.

واقترضى الموقف على جبهة الراين إبان عهد الامبراطور دوميتيان (٨١-٩٦م) القيام بجهود مكثفة ضد الجرمان، ذلك أن قبائل الشاتي وهي قبائل محاربة قوية الشكيمة تسكن في غابات تاونوس Taunus، دأبت منذ عام ٦٩م على إثارة القلاقل في جبهة الراين، ويبدو أن الموقف كان صعباً، بدليل أن الأمبراطور قاد جيشاً بنفسه في عام ٨٣م، توجه به شمالاً، وهناك استطاع الانتصار على قبائل الشاتي، ثم عاد إلى روما سنة ٨٥م، حيث أجريت احتفالات رائعة احتفاء بعودته ظافراً. هذا وقد حرص دوميتيان على إقامة سلسلة من الحصون وأبراج المراقبة الخشبية على امتداد تلك الجبهة^(٢).

Lot, op. cit., p. 27; Salmon, op. cit., pp. 128 - 129;

(١)

إبراهيم طرخان، تاكيتوس، ص ٣٢.

Salmon, op. cit., pp. 246 - 249.

(٢)

على أن متاعب دوميتيان لم تقتصر على جبهة الراين، فقد امتدت أيضاً إلى جبهة الدانوب، ففي شمال تلك الجبهة عاشت قبائل متبربرة، بعضها كان على صلة طيبة بالأمبراطورية، مثل قبيلة الهيرموندورى *Hermundure* التي استقرت في المنطقة المواجهة لرائتيا *Raetia*، والبعض الآخر بادلها العداء، مثل قبائل الماركوماني والكوادي في بوهيميا، والسارماتيين الذين استقروا في المنطقة الممتدة بين الدانوب و*Theiss*. أما السكيثيون الذين عاشوا في أسفل النهر، والداكيون الذين شغلوا الجزء الأكبر من المنطقة المعروفة حالياً بهنغاريا ورومانيا، فكانوا أشد تلك القبائل مراساً وأقواها. ومهما يكن من أمر، قام الداكيون بعبور الدانوب في عام ٨٥م، واجتاحوا منطقة مؤيسيا *Moesia* (بلغاريا الحديثة)، وعندما تصدى لهم حاكمها الروماني قتلوه، فما كان من دوميتيان إلا أن تولى قيادة الجيوش بنفسه، واشتبك معهم في عدة حروب انتهت إلى إخلاء مؤيسيا منهم، وردهم على أعقابهم إلى ما وراء نهر الدانوب. ويبدو أن الأمبراطورية أرادت أن تتخذ موقفاً حاسماً تجاه الداكيين، بدليل أنه في العام التالي (٨٦م) قام أحد قواد الأمبراطور دوميتيان بعبور نهر الدانوب، مستهدفاً القضاء عليهم في عقر دارهم، ولكنه سقط هو وجيشه في أيديهم، وحيال تلك الكارثة أخذ دوميتيان يعد عدته للانتقام من الداكيين، غير أن ثمة صعوبات قابلته وأخرجت موقفه، ففي جبهة الراين رفع أحد القواد الرومان راية العصيان والتمرد، واستطاع إقناع القوات الرومانية المعسكرة في مينز *Mainz* المناداة به امبراطوراً، في الوقت الذي خرجت فيه قبائل الماركوماني والكوادي الجرمانية على الامبراطورية، وبدأت تهدد منطقة بانونيا؛ ولذلك لم يكن أمام دوميتيان بعد أن أفسدت عليه خطته، إلا التراجع عن استخدام القوة مع الداكيين، مكتفياً بعقد الصلح معهم^(١).

غير أن ما وصل إليه دوميتيان بالطرق السلمية لم يرض الأمبراطور تراچان (٩٨ - ١١٧م)، فحضر باتفاقية الصلح التي عقدت مع الداكيين عرض الحائط، مفضلاً استخدام القوة على السلم. ومما يجدر ذكره أن تراچان كان واحداً من

Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 304 - 305.

أعظم الأباطرة المحاربين، فقد نشأ في مهاد الحرب، ووافقت الحياة العسكرية ميوله، وكان له من الخبرة بالحروب ما جعلته يعمل على كسر سياسة الجمود والضعف التي انتهجتها الأمبراطورية على جبهة الدانوب. ولذلك قرر عبور الدانوب والتوغل في أراضي الجرمان بغية فتح داكيا. ولأشك أن ذلك القرار كان خطيراً للغاية، بيد أنه أعد عدته قبل أن يشرع في تنفيذ مشروعه العسكري، فأعاد تمهيد الطريق البري القديم الذي شيده تيبيريوس على شاطئ الدانوب الروماني كي يسهل تحركات الجنود، وبلغ عدد الجيش الذي جهزه تحت قيادته حوالي ١٠٠.٠٠٠ جندي. والحقيقة أن تراچان رسم خطته الحربية بمهارة فائقة، إذ كان يدرك أن قوة الداكيين تتركز في عاصمتهم الحصينة ترانسلفانيا - Transylvania الواقعة في جبال الكربات، ومن ثم لابد من الاستيلاء عليها. على أي حال، قاد تراچان جيشه الضخم عبر ممرات جبال الكربات، متغلباً على كل ما عترضه من الصعاب، حتى وصل تاباي Tapae في عام ١٠١م، وهناك حقق انتصاراً ساحقاً على الداكيين، بيد أنهم لم يستسلموا، ولم تنهار مقاومتهم، إذ حل فصل الشتاء، فأعاق العمليات الحربية، ولم يحسم الموقف معهم. وفي العام التالي (١٠٢م) عبر تراچان الدانوب مرة أخرى، وشق طريقه إلى ترانسلفانيا، فوصلها بعد أن تغلب على كل مقاومة اعترضت سبيله، وأرغمها على الاستسلام، واضطر الداكيون بزعامة ملكهم ديكيبالوس Decebalus إلى الخضوع لسلام مهين، استقر الأمر بمقتضاه على اعترافهم بسيادة روما، وترك حاميات رومانية في ترانسلفانيا. ثم عاد تراچان إلى روما ليحتفل بانتصاراته على الداكيين، ويطلق عليه لقب الداكي Dacicus^(١).

بيد أن ديكيبالوس ملك الداكيين لم يلبث أن نقض عهده، إذ رفض أن يكون تابعاً ذليلاً لروما، فجمع قواته على غفلة من الرومان في بداية عام ١٠٥م، وانقض على الحاميات الرومانية التي تركها تراچان وراءه، فأبادها، ثم أغار على منطقة مؤيسيا. وعندما وصل الخبر بذلك إلى تراچان أسرع إلى جمع جيش ضخم قاده

Salmon, op. cit., pp. 274 - 277.

(١)

بنفسه إلى داكيا، وعبر نهر الدانوب على الجسر الشهير الذي شيده المهندس السوري أبولودورس Apollodorus، وهو من أروع المنجزات الهندسية آنذاك. ثم شق طريقه إلى ترانسلفانيا للمرة الثانية، فاجتاحها وسحقها، وضمها نهائياً إلى الأمبراطورية. أما الملك الداكي فقد دفعته الكارثة التي ألقت بشعبه إلى الانتحار في الحال سنة ١٠٦م. وحتى لا تقوم للداكيين قائمة بعد ذلك، قام تراچان بنقل الآلاف منهم إلى الجانب الجنوبي من الدانوب، وأحل محلهم مستقرين أتى بمعظمهم من الأجزاء الشرقية للأمبراطورية. وهكذا صارت داكيا ولاية تابعة للأمبراطورية، وأحد مراكز الحضارة اللاتينية في الجزء الشمالي من الدانوب^(١).

ورغم ما بذله الأباطرة الرومان من جهود لإيقاف المد الجرمانى الزاحف على حدود الأمبراطورية، إلا أن هجماتهم في النصف الأخير من القرن الثاني قد ازدادت بشكل لم تألفه روما من قبل. ويظهر ذلك ملياً على عهد الأمبراطور العظيم ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م)، عندما قامت قبائل الماركوماني والكوادي والسارماتيين والشاسي والوندال، بغزو الحدود الرومانية عند الدانوب الأوسط بين سنتي ١٦٧ و١٧٥م، واستولوا على نوريكوم Noricum وبانونيا، ثم توغلوا في شمال إيطاليا حتي وصلوا أكويليا على رأس البحر الأدرياتي. ومن الأمور التي ساعدت تلك القبائل على اقتحام حدود الأمبراطورية آنذاك، ما كانت تعانيه الأمبراطورية من سوء الأحوال بها، لاسيما الوباء الذي فشا سريعاً في مدينة روما والعديد من الولايات، وأدى إلى الفتك بالأهالي، حتى أقفرت بلاد كثيرة من سكانها. ولذلك اضطر الأمبراطور إلى فرض ضرائب جديدة، وأقدم على تجنيد العبيد والمصارعين ورجال الشرطة، واستأجر المرتزقة من الجرمان. ووسط تلك الظروف المريعة السيئة قاد الأمبراطور الجيوش بنفسه، واستطاع فك

Lot, op. cit., pp. 29 - 30.; Salmon, op. cit., pp. 277 - 278; Sinnigen & Boak, op. (١) cit., pp. 310 - 312.

الحصار عن أكويليا، وأرغم الجرمان على إخلاء الأراضي التي استولوا عليها، والارتداد بقلولهم إلى ما وراء نهر الدانوب^(١).

غير أن النصر الذي حققه ماركوس أوريليوس لم يكن حاسماً، فقد ثارت القبائل الجرمانية من جديد، الأمر الذي اضطره إلى اجتياز نهر الدانوب في عام ١٧٨م، وإلحاق الهزيمة بقبائل الكوادي، وكان على وشك أن يضم إلى سيادته مناطق الكوادي والماركوماني والسمارماتيين، ويجعلها ولايات تابعة للإمبراطورية، ولكن الموت عاجله^(٢). وقد كان من المتوقع أن يواصل خليفته ابنه الأمبراطور كومودوس (١٨٠ - ١٩٢م) Commodus السير في نفس الاتجاه، ولكنه أثر السلامة، فمعد الصلح مع الأعداء، لكي يوفر لنفسه حرية التمتع بالملذات في روما^(٢).

وينبغي التأكيد هنا أن الأمبراطورية الرومانية التي كانت قد بلغت أوج عظمتها، بدأت في الاضمحلال بوفاة ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م، فبعد أن ظلت قرنين من الزمان قادرة على صد الجرمان والبرابرة، نعم المواطنون خلالهما بالأمن والسلام، أخذت مظاهر الفوضى تظهر في الأمبراطورية أواخر القرن الثاني، وهوت عظمة روما في لجة الأزمات والمشاكل. وإذا ألقينا نظرة فاحصة على حدود الأمبراطورية في القرن الثالث الميلادي، لوجدنا أن الجماعات الجرمانية قد انتشرت على طول خطوط ومواقع تلك الحدود بشكل لم يعهد من قبل، صحيح أن تلك الحدود قد تعرضت منذ فجر الأمبراطورية لغزوات هنا وهناك قام بها الجرمان، إلا أن تلك الغزوات في القرن الثالث غدت بمثابة ضغوط مستمرة على طول امتدادها. ولم يكن ذلك بسبب ظهور جماعات جديدة من

(١) Sinnigen & Boak, A Hist. of Rome., p. 319.; Simons (Gerald), The Birth of Europe., (Spain, 1987), p. 25.; Cary (M.) & Scullard (H.H.), A Hist. of Rome. Third edition., (London, 1975), pp. 443-444.

(٢) Bang, "Expansion of the Teutons", in Camb. Med. Hist., p.200;
ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، ج ٢، ص ٤٣٧؛ ددلي (رونالد، ر.)، حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي، فاروق فريد، مراجعة د. صقر خفاجة، (القاهرة ١٩٦٤م)، ص ٢٨٩.

الجرمان على الحدود، بل يرجع إلى النتائج المباشرة للسياسة القديمة التي سار عليها الأباطرة منذ وقت مبكر، وهي سياسة تجنيد الجرمان والمتبريرين في الجيش الروماني، التي زادت بدرجة ملحوظة في القرن الثاني، ووصلت مداها في القرن الثالث. وبذلك صارت الحدود قوة مغناطيسية أو بيئة جاذبة اجتذبت إليها الجماعات الجرمانية المحاربة الباحثة عن الثروات المادية من خلال الخدمة في الجيوش الرومانية. ومن ناحية أخرى، صار الطريق الآن ممهداً أمام تلك الجماعات الجرمانية النازحة للحصول على الكثير من الغنائم والأسلاب، لأن بعض مناطق الحدود أصبحت خالية من حامياتها، بعد أن جرى سحبها لتواجه متاعب أشعلها الجرمان في مكان آخر، أو لمشاركتها في أحداث الحروب الأهلية. ومهما يكن من أمر، فقد أخذت حدود الأمبراطورية الشمالية في القرن الثالث تعج بالشعوب البربرية المختلفة، مثل السكسون الذين شغلوا منطقة الشمال الساحلية الواقعة بين الراين والويزر، وأخذت أساطيلهم تقوم بالإغارة على شواطئ بريطانيا والغال؛ والفرنجة الذين استقروا في منطقة الراين الأدنى؛ والأليمانى الذين هددوا أعالي ألمانيا وراثتيا. وإلى الشرق في جبهة الدانوب، اتخذت قبائل الماركوماني والكواذي مراكزها في أعالي الدانوب؛ أما داكيا ومؤيسيا السفلى فقد شغلها جيرانهم القدامى السارماتيون والكاربى Carpi؛ كذلك شغل الوندال جزءاً من هنغاريا، أما قبائل القوط، وهي أشد تلك القبائل خطورة، فقد شقت طريقها من البحر البلطى إلى الشاطئ الشمالي للبحر الأسود، حيث انضمت لها قبائل الهيرولى Heruli^(١).

وحوالى منتصف القرن الرابع الميلادى امتدت القبائل الجرمانية بحذاء الحدود الرومانية الشمالية، من مصب نهر الراين غرباً حتى أقصى شرقى البحر الأسود، بعد أن كان انتشارها من قبل لا يتجاوز نهر الراين وحول بحر البلطيق. كذلك حدث تغيير جوهري في تنظيم القبائل الجرمانية، فالقبائل الصغيرة العديدة التي تحدث عنها يوليوس قيصر، وأسهب تاكيتوس في وصفها، نراها قد تجمعت

Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 389-390.

(١)

فى شكل تحالفات أو اتحادات ضخمة، حتى أن ستة من تلك التحالفات المقيمة حول نهر الراين وحده، كانت على عهد تاكيتوس حوالى ثلاثين قبيلة صغيرة. وليس من شك أن اندماج القبائل الجرمانية فى بعضها، وظهورها فى صورة تكتلات ضخمة، يرجعان إلى الحروب التى خاضتها تلك القبائل ضد الرومان من ناحية، ومحاربة بعضها البعض من ناحية أخرى، والتداخل - مصادفة - أثناء قيامها بالهجرة من الشمال إلى الجنوب من ناحية ثالثة. على أن بعضاً من تلك القبائل الصغيرة المقيمة على امتداد الراين الأدنى ظلت على حالها، لم تندمج فى أى تحالف ضخم حتى نهاية القرن الخامس الميلادى^(١). وخلال تلك الفترة أيضاً، صارت حدود الإمبراطورية بين العالمين الرومانى والبربرى غير واضحة المعالم تماماً، ذلك أن التغلغل الجرمانى داخل تلك الحدود صار يأخذ طابعاً سلمياً هادئاً، بدلاً من الإغارات والغزوات والهجمات العنيفة. ومن المسلم به أن الحضارة الرومانية أخذت تؤثر تأثيراً واضحاً فى الجرمان المستقرين بالقرب من الحدود أو المتصقين بها، حتى يمكن القول أنهم صاروا رومانيين، أما أولئك الذين كانوا بعيدين عن الحدود، فكانوا أقل عمقاً فى تأثرهم بتلك الحضارة^(٢). وقد سلكت الحضارة الرومانية إلى الجرمان عدة طرق، منها الزيارات المتكررة التى دأب التجار الرومان على القيام بها لمناطق الجرمان، ولجوء الكثير من الرومان الفارين من وجه العدالة إلى الجرمان بحثاً عن المأوى الآمن بينهم، وعودة بعض الأسرى الجرمان إلى نوبيهم، كذلك كان لسياسة «فرق تسد» *divide et impera* التى سارت عليها الإمبراطورية من حين لآخر، جعلت بعض القبائل الجرمانية تتحالف مع الرومان ضد القبائل الجرمانية الأخرى^(٣). ومما يجدر ذكره أن السلطات الرومانية أسكنت إبان القرن الرابع أعداداً هائلة من الجرمان فى الجهات التى خربها الحروب، لاسيما جهات البلقان الشمالية وغاليا، وجعلت منهم مستعمرين

Sellery & Krey, *Medieval Foundations.*, p. 70.

Painter, *op. cit.*, pp. 18 - 19.

Sellery & Krey, *op. cit.*, pp. 7 - 8.

(١)

(٢)

(٣)

زراعيين وحرييين، بحيث وجد الغزاة البرابرة مناطق الحدود الرومانية مأهولة عادة بشعوب من جنسهم، ألفوا الحضارة الرومانية، واصطبغوا بها إلى حد متفاوت^(١).

ثم كان أن تجددت هجمات الجرمان على حدود الأمبراطورية مرة أخرى منذ سنة ٣٧٥م، متخذة طابعاً لم تألفه من قبل، فبعد أن كانت الهجمات التي يقوم بها الجرمان عبارة عن غارات متقطعة، تفتقر إلى خطة موحدة، إذا بها تمتد بشكل إغارات واسعة ضخمة منذ ذلك التاريخ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٥٦٨م - وهي السنة التي اقتحم فيها اللومبارديون^(٢) إيطاليا-، أى حوالى قرنين من الزمان، استطاع خلالها كثير من الجماعات الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة، وتأسيس ممالك جديدة داخل تلك الأقاليم، الأمر الذى غير وجه العالم تغييراً جذرياً، وأخذت صورة أوروبا العصور الوسطى تبدو أقرب وضوحاً^(٣). وسنحاول فى الصفحات المقبلة أن نلقى بعض الضوء على أهم الجماعات الجرمانية التي قامت بتمزيق أراضى الأمبراطورية، وانتزعت أجزاء منها، مؤسسة بذلك ممالك جديدة فى الغرب الأوروبى.

(١) بوسن، تكوين أوروبا، ص ١٠٣.

(٢) أنظر كتابنا اللومبارديون فى التاريخ والحضارة. ٥٦٨ - ٧٧٤م (دار المعارف ١٩٨٦).

(٣) Thompson, A Hist. of Europe., pp. 49 - 50.;

سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.

الفصل الرابع

غزوات الجرمان وتأسيس ممالكهم في غرب أوروبا

الهون : Huns

الهون قبائل رحل من العنصر المغولى عرفوا فى أوطانهم الآسيوية باسم هسيونج - هو Hsiung-Hu، وعاشوا فى أعالي النهر الأصفر (هوانج هو) شمال ولاية كان - سو Kan-sou الصينية، ثم بدأوا التوسع والانتشار فى القرن الثانى قبل الميلاد، حتى وصل نفوذهم غرب بحيرة بلكاش فى القرن الأول الميلادى، وتمكنوا من القضاء على امبراطورية الأورز Aorses الواقعة فى منطقة السهوب بين بحيرة أرال وجنوب جبال الأورال. وفى القرن الثانى أو الثالث سيطروا على شمالى الصين فيما يعرف حالياً بمنغوليا، وأسسوا امبراطورية لم تعش طويلاً^(١). والهون أقوام شديدي المراس، يقضى الرجال منهم حياتهم على ظهور الخيل فى أراض السهوب الآسيوية، رحل لا يعرفون للاستقرار معنى؛ وهم مكتنزون الأجسام، قصار القامة، كبار الرؤوس، قمحيو اللون، عيونهم مشقوقة مائلة، وأفواههم كبيرة، وشعرهم أسود صلب، لهم سحنة تثير الاشمئزاز، ويخفون تحت شكلهم الأدمى فظاعة الحيوان المتوحش. وتختلف ظروف حياتهم من فصل لآخر، ففي الشتاء تبلغ بهم المجاعة حدها بسبب الجفاف، فى حين تبلغ الوفرة الزائدة صيفاً. وقد نظر الرومان والجرمان جميعاً إلى قبائل الهون المتبريرة نظرة الرعب والفرع، نظراً لما اشتهروا به من السرعة الخارقة، والمبالغة فى أعدادهم مبالغة زائدة عن الحد. ويعزى إلى الهون اكتشاف حدود الخيل وسروجها، وتتضح تلك الأهمية إذا أدركنا أن الحدود سهلت على الخيل السير مسافات طويلة دون تعب، والسروج مكنت المحاربين من خوض المعارك وهم على ظهور خيولهم. هذا فى الوقت الذى لم يكن لدى الجرمان آنذاك سوى دراية قليلة بالفروسية، جعلتهم لا يستطيعون الصمود أمام قوات الهون. ويصف مؤرخ رومانى الهون بأنهم شياطين خفية، لا يقاتلون من على ظهور خيولهم فقط، بل يقضون حياتهم أيضاً على ظهورها، مما أدى إلى انحراف أقدامهم إلى الخارج

Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 52-54.; Cantor, Mediaeval Hist.; p. 117. (١)

وتقوس سيقانهم ولا يصيب (سمانة) الساق إلا حظ «ضئيل» من النمو. ووصل الأمر بالهون أنهم لا يترجلون عن خيولهم لتناول الطعام، بل يحتفظون بطعامهم المؤلف من اللحم تحت سروجهم، حتى لا يضيعون وقتاً خلال الزحف^(١).

وقد بدأت قبائل الهون المتبريرة الظهور على مسرح الأحداث السياسية أواخر القرن الرابع الميلادي، عندما دفعتها من وراء تحركات غامضة قامت بها قبائل الأورال - الطائية في وسط آسيا، ربما بسبب زيادة أعدادها وزيادة هائلة، أو نشوب صراع وحروب بينها، أو تغيرات مناخية أثرت تأثيراً بالغاً على حياة الهون الرعوية. على أية حال، شقت قبائل الهون طريقها إلى سهول روسيا الجنوبية (شمال البحر الأسود)^(٢)، وهناك أدى ظهورها إلى إثارة الفوضى والقلق، ونشر الفزع والرعب وسط الجماعات الجرمانية المستقرة من قبل. وكان القوط الشرقيون أول تلك الجماعات التي لم تستطع مقاومة جحافل الهون عندما انقضت عليها في أوكرانيا في عام ٣٧٥م^(٣)، مما أدى إلى تحطيم مملكتهم وقرار قلوبهم نحو الغرب ولم يلبث الهون أن زحفوا غرباً إلى أوروبا الوسطى، ناشرين التدمير والخراب في المناطق التي يمرون بها، وكان ضغطهم هو المحرك الفعال لتدفق الجرمان على حدود الامبراطورية في الجزء الغربي منها. أما الشعوب الجرمانية التي عجزت عن الوقوف أمام وحشية الهون أثناء زحفهم العاصف، فقد أرغمت على الانضمام إليهم، والوقوع تحت وطأتهم وسيطرتهم، ومن تلك الشعوب الجيبيداي Gipidae والألان Alans والقوط والصقالبة وغيرهم. وهكذا نرى أن الهون عندما أوقفوا زحفهم إبان القرن الخامس كانوا قد شيدوا امبراطورية ضخمة، جعلوا مقرها في سهل هنغاريا (المجر)؛ ومن المعروف أن تلك

Stephenson, Mediaeval Hist., p. 48; Sellery & Krey, Medieval Foundations., (١)
p. 9; Cantor, op. cit., p. 9;

موس، ميلاد العصور الوسطى، ص ٩٣ - ٩٥.

Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 61.

Katz, The Decline of Rome., p. 104.

(٢)

(٣)

الأمبراطورية قد بلغت أوج عظمتها عندما توحدت تحت زعامة آتिला، الذي ورث الحكم سنة ٤٣٣م، وفي عهده بلغ بلاط الهون منزلة عالية من الثراء الفاحش، بهرت عيون السفراء الوافدين من روما أو القسطنطينية، وتركت أثراً عميقاً في نفوسهم^(١).

فرض آتिला نفوذه وسطوته على القبائل الجرمانية والمتبريرة التي قادها مصيرها إلى الوقوف في طريقه، وتسابق الحكام على إرضائه بتقديم الهبات المالية والهدايا القيمة خوفاً من جبروته. واستطاع آتिला بفضل موقعه المتوسط أن يهدد شطرى الأمبراطورية الشرقي والغربي، وبلغ به الأمر أن دأب على مطالبة الأمبراطورية بإعادة الفارين إليها، وإرغامها صاغرة على دفع جزية سنوية له^(٢). وكان من الممكن أن تستقر العلاقة بينه وبين الأمبراطور على هذا النحو، غير أنها ما لبثت أن توترت عندما طالبها برفع قيمة الجزية، فرفضت الإذعان له، وجرى تدبير مؤامرة في بلاط القسطنطينية للتخلص منه باغتياله، اشترك في نسج خيوطها الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠م)، ولكنه كشف النقاب عنها في اللحظات الأخيرة؛ وقد سخر آتिला من تلك المؤامرة قائلاً باختصار: «إن عبده ثيودوسيوس (الثاني) الذي دأب على دفع الجزية له، حدثته نفسه بالتأمر على قتل سيده»^(٣).

لم يكتف آتिला بما تحت يده من أمبراطورية شاسعة، وبما فرضه من سيادة على العديد من القبائل الجرمانية والمتبريرة، بل امتدت أطماعه إلى أراضي الأمبراطور الروماني، ومن ثم عول على تقويض الأمبراطورية ونهب ممتلكاتها. وبداية اجتذب الجزء الشرقي من الأمبراطورية أنظاره، فاجتاح شبه جزيرة البلقان، ووصلت غاراته المدمرة إلى أبواب القسطنطينية، وعندئذ تخرج الموقف

Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 67.

(١)

Jones, The Decline of Ancient World., p. 80.

(٢)

Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 67.

(٣)

عندما رفض الامبراطور مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧م) Marcian الإذعان لآتيلا، والرضوخ لإرادته، وازداد الموقف تعقيداً عندما أعلن امتناعه عن دفع الجزية. وشاء حظ القسطنطينية أن يحول آتيلا وجهته صوب غرب أوروبا، فانصرف من أمام أسوارها، تسبقه شهرته التي طبقت الآفاق، بما عرفت به من قسوة ووحشية لا تبقى ولا تذر، حتى أن معاصريه اعتقدوا أنه سلاح لا يقهر، وأطلق عليه آنذاك «سوط الله» The Scourge of God، أي «العقاب الذي سلطه الله على الخطاة»، وكان أن عبر نهر الراين، وتوغل في شمالي بلاد الغال^(١). ووسط تلك الظروف ظهر القائد الروماني القدير أنتيوس Aëtius لمواجهة آتيلا ومنعه من التقدم أبعد من ذلك. وحمله الخطر الهوني على جمع القوات الرومانية الرابضة في الغرب الأوربي، وأضاف إليها الجموع الجرمانية في بلاد الغال التي بادلت آتيلا العداء والكراهية. والجدير بالذكر هنا أن خطة آتيلا الحربية كانت تقوم على تجنب الاشتباك مع عدوه - قدر الإمكان - في معركة وجهاً لوجه، فما حققه من انتصارات اعتمدت بالدرجة الأولى على سرعة التنقل والحركة من ناحية، ونشر الفرع في قلوب أعدائه من ناحية أخرى. ولا يغيب عن البال أن الالتحام في المعارك يقتضى مهارة وقيادة يقظة وتكتيكاً بارعاً، وهى صفات يفتقر إليها آتيلا. ومهما يكن من أمر، فقد أسقط في يد آتيلا، ووجد نفسه مرغماً على خوض معركة - وجهاً لوجه - ضد أنتيوس وحلفائه من الجرمان بالقرب من سهول شالون Châlone على نهر السين الأعلى. وفي تلك المعركة التى حدثت فى عام ٤٥١م هزم آتيلا هزيمة ساحقة، اضطرت له للارتداد شمالاً، مخلفاً وراءه أكواما من الجرحى وأشلء من القتلى. وقد أطلق على تلك المعركة التى أسفرت عن فشل آتيلا فى الاستيلاء على بلاد الغال «معركة الشعوب» The Battle of the Nations نظراً لأن شعوباً جرمانية مختلفة اشتركت فيها. فقد ضم جيش آتيلا الألطانية، والجيبيداي، والقوط الشرقيين، والسكيرى Sciri، والهيرولى، والبرجنديين الشماليين، والفرنجة البريين؛ أما جيش أنتيوس فقد تألف من القوات

الرومانية، والبريتون Bretons، والآلان، والسكسون، والقوط الغربيين، والأرموريك Armoricans، والبرجنديين الجنوبيين، والفرنجة البحريين. ومن المشاهد أن القوط الغربيين لعبوا دوراً بارزاً في تلك المعركة الحاسمة، حتى أن ملكهم ثيودوريك لقي مصرعه بعد أن حارب ببسالة منقطعة النظير تحت راية الرومان. وصفوة القول أن معركة شالون أنهت الأسطورة التي زعمت أن الهون قوم لا يفلبون من جهة، وأن أتتلا سلاح لا يقهر من جهة أخرى^(١).

وفي ربيع العام التالي (٤٥٢م) تحرك أتتلا على رأس جيش ضخم، فقام بعبور جبال الإلب، ثم غزا شمال إيطاليا، فسقطت أكويليا Aquilia في يده بعد أن أحكم حولها حصاراً عنيفاً، اضطر أهلها إلى الفرار بجلدهم إلى المستنقعات الكائنة في الجزر الواقعة على رأس البحر الأدرياتي، حيث أسسوا قرى صارت فيما بعد مدينة البندقية الشهيرة. ومضى أتتلا في تقدمه، فسقطت في يده مدينتا ميلان وباثيا دون مقاومة، ثم تقدم إلى روما، ولكن انتشار المجاعة وتفشى الأوبئة بين قواته، جعلته يوقف هجومه عليها. ومن الملاحظ أنه في غمرة المتاعب التي قابلت أتتلا، وصلت إلى معسكره سفارة من روما على رأسها البابا ليو الأول (٤٤٠-٤٦١م)، لإقناع أتتلا أن اقتحام روما سوف لا يحقق له الغاية المنشودة، فغلاً دارت المفاوضات بين الجانبين، انتهت إلى انسحاب أتتلا عائداً إلى مقر حكمه في هنغاريا يجر أذيال الفشل والخيبة. وتروى الأساطير أن شبجي القديسين بطرس وبولس ظهرا الزعيم الهون، وهدداه بالموت السريع إذا خذل البابا. ولاشك أن ذلك الاعتقاد أضاف رصيماً ضخماً من النفوذ لحساب البابوية في الغرب الأوربي. وشامت الأقدار أن يموت أتتلا بعد شهور قليلة في عام ٤٥٣م، في ليلة زفافه على عروسه الأميرة الجرمانية الجميلة كريمهيلد Kriemhild كما تسمى في ملحمة نيبيلونج Nibelungenlied التي وصلتنا في مخطوطة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي، فبعد أن أفرط في الشراب حتى فقد

Pirenne, A Hist. of Europe., pp. 29 - 30.; Taylor, The Mediaeval Mind. Vol. I., (١) pp. 112 - 113.; Jones, op. cit., p. 80.

الوعى، وغلبه النوم، نذفت أنفه وهو يغط فى نومه دماء كتمت أنفاسه، بعد أن اندفعت إلى رئتيه ومعدته^(١). وعلى أية حال، فقد تمزقت أمبراطورية الهون بعد وفاة دعامتها القوية آتिला، ذلك أن أبناءه الذين اقتسموا ميراثه سرعان ما دب النزاع بينهم حول سيادة الشعوب الجرمانية التي كانت تدين بالولاء لأبيهم، مثل القوط الشرقيين، والجيبيداي والروچيين، والهيرولى، والسكيرى؛ ولكن تلك الشعوب أحست بعمى الضعف الذى وصل إليه الهون، فثارت، وانقضت على الأبناء فى موقعة جرت أحداثها على نهر نيداو فى نفس العام (٤٥٣م)، باءت بهزيمتهم هزيمة ساحقة، حتى لم يبق منهم غير شراذم متناثرة، وقد استقرت تلك الشعوب فى الولايات الدانوبية، سواء كقوى مستقلة أو كحلفاء للامبراطورية الغربية^(٢). وهكذا انهارت امبراطورية الهون، وكسرت شوكتها، ومحيت من صفحات التاريخ.

القوط الغربيون : Visigoths

يبدو من خلال أساطير القوط أنهم عبروا البحر البلطى من جنوب شبه جزيرة اسكندناوه فى القرن السادس قبل الميلاد، حتى وصلوا مصب نهر الفستولا Vistula؛ وحوالى سنة ٢٥٠ ق.م. ظهرت تاريخياً عندما شرعت بعض القبائل القوطية فى التحرك صوب الجنوب الشرقى، إلى أعلى الفستولا خلال مستنقعات البريت Pripet، حتى استقرت فى النهاية فى حوض الدنيبر الأدنى والساحل الشمالى للبحر الأسود^(٣). وهناك انقسم القوط إلى فرعين قبليين كبيرين هما : القوط الترفنج Tervingi والقوط الجروتنج Greutungi. وقد استقر فرع الترفنج بين الدانوب والدنيستر، وعرف فيما بعد باسم القوط الغربيين

(١) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 68.;

جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ج ٢، ص ٢٨٨ - ٢٩٠.

(٢) Baker (Ernest), "Italy & the west, 410 - 476.", in Camb. Med. Hist., Vol. I, (٢) p. 420.

(٣) Copeland, The Germanic Invaders., p. 2212.; Deanesly, A Hist. of Early Medic- val Europe., p. 26.

Visigoths؛ أما الفرع الآخر الجروتنج فقد أقام في جنوب روسيا على نهر الدنيبر، وعرف فيما بعد باسم القوط الشرقيين Ostrogoths. وتجدر الإشارة إلى أن خط التمييز الجغرافي بين القوط الغربيين والقوط الشرقيين ظل واحداً، حتى بعد أن تكونت ممالك القوط فيما بعد، فكان القوط الغربيون في تولوز، بينما كان القوط الشرقيون في إيطاليا شرقيهم^(١).

وقد ظهر خطر القوط واضحاً في منتصف القرن الثالث الميلادي، عندما اشتدت إغاراتهم البربرية على ولايات الجزء الشرقي من الإمبراطور، فاجتاحوا إقليم مؤيسيا السفلى، ثم فرضوا الحصار على مرقيانو بوليس Marcianopolis (بالقرب من ثرنا) عاصمة الإقليم، غير أنهم مالبتوا أن فكوا الحصار عن تلك المدينة بعد أن دفع السكان مبلغاً ضخماً من المال، ثم قفلوا عائدين إلى بلادهم. وإبان عهد الإمبراطور ديكيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) Decius، عبر القوط الدانوب الأدنى، واجتاحوا تراقيا ومقدونيا، وظلوا ينشرون الدمار والخراب، حتى وجد ديكيوس نفسه مضطراً لمواجهةهم خلال زحفهم على مدينة فيليبو بوليس Philip-popolis (عاصمة تراقيا)، ولكنه لقي الهزيمة رغم شجاعته ونشاطه، والحق أن تلك الهزيمة لم تنل من عزيمة الإمبراطور، فما لبث أن جمع قواته المبعثرة، وشرع في إنقاذ المدينة من الحصار الذي فرضه عليها القوط. وفعلاً تغير الموقف بعد أن طال أمد الحصار، فقد قاسى القوط عناء الانتظار تحت أسوار المدينة، وخاب أملهم في الاستيلاء عليها، وأسقط في يدهم، فراسلوا ديكيوس يعرضون عليه تسليم الأسرى وإعادة الغنائم، بشرط أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم سالمين.

Bradley (Henry), The Goths. Fifth edition., (London, 1887), pp. 5-6.; Bang, (١) "Expansion of the Teutons.", p. 203.

وثمة تفسير إضافي لبعض حول تقسيم القوط إلى شرقيين وغربيين، ففرع القوط الترفنج الذي عرف فيما بعد باسم Visigoths يعني القوط الحكماء Wise Goths وليس كما ترجمت عادة القوط الغربيون (Western Goths)؛ أما الفرع الآخر الجروتنج الذي عرف فيما بعد باسم Os-trogoths فمعناه القوط الساطعون (Austr) "bright Goths" وليس كما عرف القوط الشرقيين (Eastern Goths)، أنظر:

Lot, The End of the Arcient World., p. 191.

ولكن الامبراطور رفض ذلك العرض، إعتقاداً منه أن القضاء عليهم بات أمراً ميسوراً، وبذلك ارتكب خطأ لا يمكن تلافيه، إذ نسي أن القوط يدافعون هذه المرة عن طوق نجاتهم، أو بالأحرى يدافعون عن حياتهم دفاع المستميت، الأمر الذى أرغمهم على خوض معركة عنيفة فى عام ٢٥١م، كلفت الامبراطور وابنه حياتهما. وبعد أن كانوا يطلبون طوق النجاة، إذا بهم قد استولوا على الولايات الدانوبية بعد أن عجزت القوات الرومانية عن ردهم. وقد انعكست هذه الهزيمة على موقف جالوس (٢٥١ - ٢٥٢م) عندما اعتلى عرش الامبراطورية، ذلك أنه أحسن بعجزه عن مواجهة القوط، وعدم قدرته على طردهم بالقوة، خاصة بسبب الطاعون الذى اجتاح ولايات الدانوب، فاتفق معهم على مغادرة أراضي الامبراطورية نظير دفع جزية ضخمة سنوياً^(١).

وهنا نلاحظ أن القوط ظلوا سادرين فى غيهم، فواصلوا إغاراتهم على أملاك الامبراطورية، وقد ساعدتهم أحوال الامبراطورية على ذلك، فبين سنتى ٢٥٣ و٢٦٨م هدد الجرمان الجزء الغربى من الامبراطورية، فى الوقت الذى واجهت فيه المتاعب مع فارس. ومما يذكر أن تاريخ القوط خلال تلك الفترة كان مليئاً بالفظائع ونشر الرعب والفرع، بالإضافة إلى نهب المدن الغنية التى تعرضت لغزوات ضارية. وأخيراً فى عام ٢٦٩م نشأ تحالف قوى بين القوط وجماعات من الجرمان مثل الجيبيداي والهيرولى وغيرهم، استهدف مهاجمة أملاك الامبراطورية بحراً، وفعلاً أبحر أسطول مؤلف من خمسمائة سفينة من الساحل الغربى للبحر الأسود، وصل الساحل الغربى لآسيا الصغرى، ثم عبر البحر الإيغى متجهاً إلى بلاد اليونان، وكانت المدينة العريقة أثينا من بين المدن التى تعرضت لنهب القوط، ثم توجه الأسطول إلى البحر الأدرياتي، إذ يبدو أن القوط كانوا يفكرون فى غزو إيطاليا. ولكن النزاع الذى شب بين زعماء البرابرة أدى إلى انقسام الجيش القوطى إلى جماعتين، إحداها عادت إلى موطنها الأول شمال البحر الأسود،

(١) Bradley, The Goths., pp. 24-29.; Rostovtzeff (M.), The Social and Economic Hist., of the Roman Empire., Vol. I., (London, 1957), pp. 442-443.; Cary & Scullard, A Hist. of Rome., p. 508.

واتجهت الأخرى إلى إقليم مؤيسيا قاصدة غزوه، وفعلاً سقط فريسة في أيديها. وفي تلك الأثناء كان كلوديوس الثانى (٢٦٨ - ٢٧٠ م) Claudius II قد وصل إلى عرش الأمبراطورية، وعقد العزم على تطهير الأمبراطورية من البرابرة الغزاة، فخرج للملاقاتهم على رأس جيوشه. والتقى الفريقان عند نيسوس (نيس) Nais- SUS فى معركة دامية حدثت فى عام ٢٧٠ م، وأسفرت عن هزيمة القوط هزيمة ساحقة، راح ضحيتها خمسون ألف قوطى، فضلاً عن ألوف عديدة أخرى وقعت فى ذل الاسترقاق، أما باقى القوط فقد ارتدوا إلى شمال الدانوب، ثم توالى انتصارات كلوديوس الثانى على القوط، لدرجة أفقدتهم الثقة فى أنفسهم، وذاع صيت كلوديوس الثانى بأنه قاهر القوط، واستحق عن جدارة لقب «القوطى» Gothicus الذى عرف به فى التاريخ^(١). وبعد أن توفي كلوديوس الثانى بمرض الطاعون، خلفه أوريليان (٢٧٠ - ٢٧٥) على عرش الأمبراطورية، وفى بداية عهده عاد القوط لمهاجمة أراضي الأمبراطورية، واشتبكوا مع الأمبراطور فى معركة لم يتحدد مصيرها، ولكنها كلفت الجانبين الكثير من الخسائر، مما أدى إلى اتفاقهما على الصلح. وكان أن رأى الأمبراطور أن احتفاظه بولاية داكيا سوف يجلب المتاعب للأمبراطورية، فضلاً عن صعوبة الاحتفاظ بها آنذاك، ولذلك أمر بسحب الحاميات الرومانية من تلك الولاية، وإخلائها من السكان الرومان، ثم تسليمها للقوط للإقامة بها؛ وهكذا صارت أحدث ولاية ضمتها الأمبراطورية إلى نفوذها، أول ولاية تغرط فيها للجرمان!. ورغم أن أوريليان قد حل مشكلة داكيا على حساب الأمبراطورية، إلا أنه فى الواقع أبعد الخطر القوطى عن أملاكه مدة خمسين سنة. ومنذ ذلك الوقت صار جنوب الدانوب الحد الشمالى للأمبراطورية، كما كان الوضع فى أيام الأمبراطورية الأولى^(٢).

Bradley, the Goths., pp. 30., Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 35-36.; Ros- (١) tovtzeff, op. cit., Vol. I, pp. 445-446.; Cary & Scullard., op. cit., p. 513.; Bang, op. cit., p. 205.

Robinson, A Hist. of Rome., pp. 397-398.; Tailor, op. cit., pp. 111-112.

(٢)

جنح القوط إلى الهدوء خلال فترة الخمسين عاماً التي أعقبت قيام الصلح بينهم وبين الأمبراطورية، بدليل أن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئاً عن أحداثهم إبان تلك الفترة، وعلى أية حال، فقد خرجوا عن هدوئهم الطويل على عهد قنسطنطين العظيم، فحدث أول صدام بينه وبينهم في عام ٣٢٢م، استطاع خلاله أن يحقق النصر عليهم في ثلاث معارك متتالية، أجبرتهم على الخضوع له، ثم بعد ذلك بثماني سنوات (٣٣٠م) اشتبك معهم في حرب أسفرت عن هزيمتهم هزيمة فادحة، وهنا نلاحظ أن قنسطنطين عامل أولئك البرابرة بعدئذ معاملة طيبة، فعقد معهم معاهدة صاروا بمقتضاها حلفاء (Foederati allies) للرومان، وجرى الاتفاق أيضاً على أن يسلم الملك القوطي ابنه الأكبر رهينة في أيدي الأمبراطور، إعراباً عن إخلاصه وصدق ولائه^(١).

ثم حدث الحدث الأعظم في تاريخ القوط عندما شقت المسيحية طريقها إليهم في منتصف القرن الرابع، عن طريق المبشر القوطي الآريوسى المذهب أولفلاس (٣١١ - ٣٨١) Ulfilas، الذى لقنهم الدين الجديد على المذهب الآريوسى، مخالفاً المذهب الأثناسيوسى المنتشر فى الغرب الأوروبى، الأمر الذى كان له عواقب بعيدة المدى على مستقبل قبائل القوط الغربيين والشرقيين والوندال والبرجنديين واللومبارديين وغيرهم. وكان أولفلاس قد أتى إلى منطقة شمال الدانوب، بعد أن قرر مجمع أنطاكية فى حوالى عام ٣٤٠م برئاسة أيوزيب المناهض للمذهب الأثناسيوسى، تعيينه أسقفاً ومبشراً بين القوط. وقد انصرفت همه أولفلاس إلى القيام بمهمته خير قيام. ويعزى إليه الفضل فى ترجمة الإنجيل إلى لغة القوط الذين لم تكن لهم دراية بالكتابة آنذاك، ولهذا نراه قد استعار الحروف اليونانية للتعبير عن الأصوات الجرمانية، واضعاً بذلك أساس الكتابة عند الجرمان، وبلغت شهرته فى التبشير حداً جعلته يعرف باسم حوارى القوط أو رسولهم Apostle of the Goths^(٢).

Bradley, The Goths., pp. 38 - 41.

(١)

Lot, op. cit., p. 38; Pirenne, op. cit., p. 25.; Taylor, op. cit., p. 112.; Thompson, (٢)

Hist. of the Middle Ages., p. 54., Bang, op. cit., Vol. I., p. 312., Previté - Orton (C.W.), The Shorter camb. Med. Hist., Vol. I., (Camb., 1971), pp. 56-57.

وحوالى عام ٣٧٠م ظهر خطر الهون الذى زلزل الأرض بشدة تحت أقدام الشعوب المتبريرة، بما فيها القوط. وبداية خرجت جموع الهون من مواطنها الأصلية فى شكل إعصار مدمر، انقض على قبائل الآلان الجرمانية فى المنطقة الواقعة بين القوقاز والدون، فاجتاحها؛ وبعد ذلك بخمس سنوات (٣٧٥م) تعرض القوط الشرقيون فى جنوب روسيا لهجوم الهون، فلم يقدروا على درته، وما لبثت مقاومتهم أن انهارت، وهزموا شر هزيمة، انقسموا على أثرها إلى قسمين : قسم يمثل الغالبية انضوى تحت سيادة الهون، ولذلك عوملوا معاملة طيبة، أما القسم الآخر فقد اتجه إلى الدنيستر، ثم إلى الدانوب، حيث انضموا إلى إخوتهم القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم إلى هناك^(١). ولكن القوط الغربيين بعد الكارثة التى ألت بإخوتهم القوط الشرقيين خشوا أن يقعوا فريسة فى أيدي الهون، فاضطروا إلى التقهقر نحو الغرب، وفعلاً كانت جحافل الهوية لهم بالمرصاد، إذ لم تلبث أن ضغطت عليهم، فأسقط فى أيدي القوط الغربيين، لاسيما بعد أن تصوروا جسامة الغنائم التى ستنتالهم إذا أمسكت بهم قبائل الهون، وتلفتوا حولهم فلم يجدوا خلاصهم إلا فى أراضى الأمبراطورية، فالتمسوا الإذن من الامبراطور فالنز (٣٦٤ - ٣٧٨) Valens بالسماح لهم بعبور نهر الدانوب. وكان الامبراطور مشغولاً آنذاك بمشاريعه الحربية ضد الفرس، فوافق على عبورهم الدانوب فى ربيع عام ٣٧٦م، على شرط أن يصيروا حلفاء للأمبراطورية، يلتزمون بالدفاع عن حدودها مقابل إمدادهم بالمؤن. وأسنا فى حاجة إلى تصور الأعداد الهائلة من القوط الغربيين المهاجرين - أطفالاً ونساء ورجالاً وشيوخاً - الذين عبروا نهر الدانوب، فقد ازدحم مجراه بالسفن ازدحاماً خانقاً، مما أدى إلى غرق البعض منها. وهنا نلاحظ أن الرومان حاولوا إحصاء عدد اللاجئين، ولكن أعدادهم الغفيرة حالت دون إتمام هذه المهمة^(٢). ثم إن إيواهم ليس أمراً سهلاً كما نتخيل، بل هو أمر لابد أن يثير المتاعب والقلق، من حيث ندرة المؤن

Lot, op. cit., pp. 58 - 59.

(١)

Bradley, op. cit., p. 66.; Previté - Orton, op. cit., Vol. I., p. 57.

(٢)

والأقوات آنذاك، وأحداث الفوضى والاضلال بالأمن والنظام، علاوة على ما تعرض له أولئك اللاجئون من تعنت الموظفين الرومان وسوء معاملتهم، كل ذلك دفع القوط الغربيين إلى مخالفة ما عاهدوا الأمبراطورية عليه، وأعلنوا الثورة عليها^(١). وبدأ القوط ثورتهم في عام ٣٧٧م بأن عبروا جبال البلقان، ثم انقضوا على تراقيا من بلاد اليونان الحالية، فسقطت في أيديهم، بعد أن عجز قائد القوات الرومانية عن صددهم، واضطرته الهزيمة للفرار إلى مدينة مرقيانوبوليس. وفي تلك الأثناء كان الأمبراطور غائباً عن عاصمته في آسيا، فلما علم بالاضطرابات التي أحدثها القوط الغربيون في أراضى الدانوب، رجع إلى عاصمته فوصلها في ٣٠ مايو ٣٧٨م. وفي خلال ذلك الوقت أيضاً كان جراتيان Gratian زميل الأمبراطور في الغرب الأوربي - وهو في نفس الوقت ابن أخيه - قد هزم الجرمان على جبهة الراين، واستطاع إعادة الهدوء إليها. وما لبث جراتيان بعد أن فرغ من مهمته أن وجه جهوده إلى العمل على إزالة الكارثة التي لحقت بالرومان في منطقة الدانوب، وحتى يحقق ذلك أسرع بالهبوط إلى تلك المنطقة، فوصل سرميوم عاصمة إقليم إيليريا، وهناك أرسل إلى عمه الأمبراطور يطلب منه ألا يجازف بقواته قبل وصوله، للاشتراك معاً - بقواتهما - في عمل حربي من شأنه أن يحقق النصر على أعدائه. ولكن المتملقين المحيطين بالأمبراطور أوعزوا له ألا ينتظر وصول ابن أخيه حتى لا يشاركه فرحة النصر ويجمع الأضواء حوله، وأكدوا له ثقتهم الزائدة في قدرته وكفافته. وكان أن زحف الأمبراطور على رأس قواته البالغ عددها عشرة آلاف محارب في ٩ أغسطس سنة ٣٧٨، وعلى مقربة من أدرنة (أدرينوبل) Hadrianople في إقليم تراقيا، دار قتال عنيف بين الفريقين، انتهى بسحق القوات الرومانية وإبادتها، ولقى الأمبراطور مصرعه^(٢) نتيجة طيشه واندفاعه. وتجدر الإشارة إلى أن استخدام القوط الغربيين للخيالة الثقيلة في تلك

(١) Pirenne, op. cit., pp. 26 - 27.; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 61.

(٢) Jones, op. cit., pp. 67 - 68.; Bradley, op. cit., pp. 67 - 73.; Baynes (Norman H.), "The Dynasty of Valentinian and Theodosius," in Camb. Med. Hist., Vol. I., p 231.

المعركة ساهم في تحقيق الانتصار، وصارت الخيالة الثقيلة وفنونها العسكرية منذئذ هي العامل الحاسم في المعارك، وقضت أن تكون لمدة ألف سنة هي الأداة الفعالة في الحروب الأوربية^(١)، وبعبارة أخرى لم يعد للجنود المشاة السيطرة بعد ذلك على ميدان المعركة.

وإزاء تلك الكارثة التي أملت بالأمبراطورية، توقف المؤرخ أميانوس مارسلينوس (٣٢٥ - ٣٩١ م) عن ذكر أية تفاصيل عنها، إذ أن مارواه عنها جاء غامضاً؛ أما المؤرخ الانجليزي جيبون Gibbon فقد كان أحد الأوائل الذين رأوا في معركة أدريانوبل نقطة تحول في التاريخ^(٢). أما المؤرخ برادلي^(٣) Bradley فقد ذكر أن القوط لو كانوا قد توحدوا ونظموا صفوفهم وعرفوا كيف يستغلون ما أحرزوه من نصر، لكان من المحتمل أن تنساق الأمبراطورية الشرقية إلى نهاية سريعة، ولكن فن الغزو الذي ألفوه كان ينقصه الكثير. ويشير المؤرخ كانتور^(٤) Cantor إلى أن هذه المعركة أظهرت أن بمقدور أية قبيلة جرمانية أن تهزم جيشاً رومانياً، وكانت هذه الحقيقة المشنومة بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية.

وكان من حسن حظ الأمبراطورية أن يرتقى عرشها ثيودوسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥ م)، الذي بعث الثقة في قلوب جنده، ورفع من روحهم المعنوية بعد كارثة أدريانوبل. وبفضل مهارته وحكمته ودبلوماسيته، أمكن تحويل القوط الغربيين، بأن عقد معهم اتفاقية في ٣ أكتوبر عام ٣٨٢ م، بعد مفاوضات دامت أربع سنين، صاروا بمقتضاها معاهدين Foederati ومنحهم أرضاً لإقامتهم في إقليمى مؤيسيا وتراقيا، فضلاً عن منطقة بانونيا؛ ومن الممكن القول أن تلك

(١) Sinnigen & Boak, op. cit., p. 426.; Bang, op. cit., pp. 215-217.

موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٥.

Lot, op. cit., p. 61.

The Goths., p. 75.

(٤) تاريخ العصور الوسطى، قصة حياة حضارة ونهايتها، ص ٢٢٠.

الاتفاقية كانت في صالح الأمبراطورية، ففضلاً عما أكدته من سلام في أراضي الدانوب، تعهد القوط الغربيون بتقديم عون حربي للأمبراطورية كل عام^(١).

توفي ثيودوسيوس العظيم في ١٧ يناير سنة ٣٩٥م وهو في سن الخمسين، بعد أن استطاع - قدر جهده - الحفاظ على الأمبراطورية في فترة من أحلك الفترات التي مرت بها، ولذلك عرف في التاريخ بأنه آخر الأباطرة الرومان العظام. وبعد موته تغيرت الأوضاع في الأمبراطورية بشكل لم تألفه من قبل. ويتضح ذلك في ازدياد شأن القواد الجرمان، فبعد أن كانوا في قبضة ذلك الأمبراطور العظيم، صار بوسعهم التحكم في مصائر الأباطرة^(٢). كما أن الأمبراطورية قد قسمت بين ولديه، فكان القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية من نصيب أركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨) Arcadius، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره؛ والقسم الغربي وعاصمته رافنا بشمال إيطاليا من نصيب هونوريوس (٣٩٥ - ٤٢٣) Honorius، وهو شاب في الحادية عشرة من عمره. ومن الملاحظ أن ولدي ثيودوسيوس أحاطت بكل منهما حاشية فاسدة ضعيفة، افتقرت إلى الصفات التي تؤهلها لمواجهة متاعب الأمبراطورية، أضف إلى ذلك أن الأخوين لم يعتمدا في ممارسة نفوذهما على مهارتهما الشخصية، بل سلما زمام أمورهما لشخصيتين جاوزتا الحد المتاح لهما. فقد اعتمد هونوريوس في الغرب على قائد وندالي قدير هو ستليكو Stilicho، في حين اعتمد أركاديوس في الشرق على روفينوس Rufinus، وهو وزير قوطي عرف بالقسوة، استطاع أن يجعل مقاليد الأمور في يده وصاحب انقسام الأمبراطورية إلى شطرين تحول خطير في السياسة الرومانية - الجرمانية، ذلك أن أباطرة القسم الشرقي عملوا إلى حل المشكلة الجرمانية على حساب القسم الغربي، غافلين وحدة الأمبراطورية كأن لم يعد لها وجود، مما جعل عام ٣٩٥م يمثل بداية الانهيار الرسمي للأمبراطورية في

Lot, op. cit., pp. 61 - 62; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 61.

(١)

Cantor, op. cit., pp. 117-118.

(٢)

الغرب^(١). ومن الآثار التي تمخضت عن انقسام الأمبراطورية ظهور فوارق في التشريعات والقوانين، بحيث صار كل قسم مختلفاً عن الآخر اختلافاً واضحاً، ورغم ذلك لم يعترف المعاصرون بأى تقسيم رسمى فى الأمبراطورية، إذ ظلت فى نظرهم تمثل وحدة لا ينقسم عراها.

وفى تلك الأثناء اختار القوط الغربيون أَلاريك Alaric ملكاً عليهم، وهو شاب فى العشرين من عمره من بيت بالثى Balthi القوطى العريق، والذى معناه «الشجعان». وقد عمد أَلاريك إلى الانخراط فى سلك الجيش الرومانى، شأنه فى ذلك شأن الكثير من زعماء الجرمان، أملاً فى الوصول إلى مركز هام فى الأمبراطورية، ولكن فشله فى تحقيق غايته، جعله يخرج على شروط المعاهدين، ويعادى الأمبراطورية^(٢). ويرى البعض أن أَلاريك لم يكن فى نيته بادئ ذى بدء تدمير الأمبراطورية والقضاء على حضارتها، أو تفتيت النفوذ الأمبراطورى فى أراضى الدانوب. فكل ما كان يبتغيه هو الحصول على أقاليم خصيبة واسعة لشعبه للقامة فيها، وكان من المحتمل تجنب الأمبراطورية المتاعب التى أحاطت بها، والتى كان لها أثرها فى تحطيم نفوذها فى الجزء الغربى، لو أن الأمبراطور الشرقى بادر بتحقيق طلباته المتواضعة، ولكن الأمبراطور قصير النظر رفض الاستجابة لمطالبه فى عناد وإصرار، الأمر الذى أثار أَلاريك، ودفعه بالتالى إلى محاربة الأمبراطورية^(٣).

خرج أَلاريك من مؤيسيا على رأس قومه متجهاً إلى القسطنطينية مستهدفاً تحقيق أطماعه، فذهب مقدونيا وتساليا فى طريقه، ثم دخل بلاد اليونان، وأخذ يحرق المدن، ويسترق الأهالى، حتى وصل أثينا، فلم يتعرض لها بسوء بعد أن دفع الأهالى له مبلغاً ضخماً من المال، ولكن مدناً أخرى عريقة مثل كورنثة

(١) إبراهيم العدوى : المجتمع الأوربي فى العصور الوسطى، ص ٦٢ - ٦٣.

Bradley, the Goths., p. 85.;

(٢)

موسى، ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٥.

Cantor, op. cit., p. 118.; Simons, The Birth of Europe., pp. 36-37.

(٣)

وميجارا وأسبرطة لم تسلم من أعمال النهب والسلب. وعندما وجد أركاديوس صاحب القسم الشرقي من الأمبراطورية نفسه فى موقف صعب لا يحسد عليه، خرج روفينوس من القسطنطينية فى مارس سنة ٣٩٥م، وأجرى مفاوضات مع الزعيم القوطى، حصل الأخير بمقتضاها على مبلغ من المال، فضلاً عن تعيينه قائداً أعلى لجيوش إقليم إيليريا^(١). غير أن ذلك الإقليم لم يحقق الأطماع التى كانت تجيش فى صدر أأريك من ناحية، ولم يكن كل ما يأمله من القسطنطينية من ناحية أخرى. ولذلك رأى أن يوجه أنظاره نحو الغرب لغزو إيطاليا سنة ٤٠٠م. فعبر جبال الألب فى العام التالى (٤٠١م)، وواصل تقدمه بلا هوادة فى شمال إيطاليا، حتى عسكر بقواته أمام ميلانو، وعندئذ جمع هونوريوس صاحب القسم الغربى من الأمبراطورية كل قواته خشية وقوع إيطاليا فى أيدي أأريك، وزاد على ذلك أن أعاد تحصين أسوار روما توقعاً لأى هجوم يشن عليها، ثم ما لبث أن استدعى القائد الرومانى ستليكو من الغال لإدارة العمليات الحربية. واستطاع ذلك القائد مباغته معسكر أأريك بالقرب من بولانزو Pollanzo أثناء انشغاله - مع قومه - بالاحتفال بعيد الفصح (١٩ مارس سنة ٤٠٢م)، مما أدى إلى شل حركتهم وفقدانهم السيطرة على زمام المعركة، التى انتهت بهزيمة قاسية كبدهم خسائر فادحة. وفى العام التالى (٤٠٣) ألحق ستليكو بالقوط الغربيين هزيمة أخرى مماثلة فى موقعة فيرونا Virona فى شمال إيطاليا، جعلت أأريك لا يستطيع الإفلات من الهلاك إلا بفضل جواده السريع. وكان بإمكان ستليكو أن يقضى على أأريك آنذاك، ولكنه لم يتعجل الأمر، رغبة فى استخدامه ورقه رابحة فى يده ضد منافسيه فى بلاط أركاديوس، وجرت بينهما مفاوضات انسحب أأريك بموجبها من إيطاليا عائداً إلى إيليريا، بعد أن حصل على مبلغ ضخم من المال^(٢). والجدير بالذكر أن ستليكو كان الشخصية الوحيدة التى تستطيع إبعاد الخطر القوطى عن إيطاليا، ولكنه كان فى الحقيقة مكروهاً وسط حاشية البلاط

Lot, op. cit., p. 69.; Taylor, op. cit., Vol. I., p. 112.

(١)

Bradley, op. cit., pp. 85-88.; Pirenne, op. cit., p. 27.

(٢)

وموظفيه، لأسباب عدة أهمها سيطرته على الأمبراطور سيطرة تامة وهو الجرمانى الأصل، الأريوسى المذهب، ومن المحتمل أنه كان يحلم ببناء امبراطورية يحكمها ابنه. ولذلك دفعت الغيرة القاتلة رجال البلاط إلى التآمر عليه، فأوغروا صدر الأمبراطور هونوريوس ضده، وجعلوا الشكوك تساوره فى صحة إخلاصه، مما أدى إلى استياء الأمبراطور من قائده، وجرى اعتقاله وإعدامه بتهمة الخيانة سنة ٤٠٨م^(١).

ولاجدال أن إعدام ستليكو قد أزاح عقبة كئداء من طريق الأريك، فى الوقت الذى وجد هونوريوس نفسه وجهاً لوجه أمام الزعيم القوطى، ضعيفاً عاجزاً، تعوزه الشجاعة وروح القيادة. لذلك لم يدع الأريك الفرصة تفلت من يديه، فدبر لغزو روما، وكان أول ما قام به أن عبر جبال الإلب، ثم استولى على المدن التى اعترضت طريقه فى شبه الجزيرة الإيطالية، مثل أكويلىا وكونكورديا وكريمونا وغيرها، حتى استطاع أن يضرب خيام معسكره تحت أسوار روما فى بداية عام ٤٠٩م. وتلا ذلك أن فرض عليها حصاراً محكماً عنيفاً، أدى إلى نقص الطعام والاقوات، وموت الآلاف من سكانها. ومما زاد من خطورة الموقف أن الأمبراطور العاجز لم يبد أية مقاومة وقتذاك، بل فر إلى مدينة رافنا، تاركاً المدينة العريقة نهياً لمصيرها، فسقطت فى أيدي الزعيم البربرى فى ٢٤ أغسطس سنة ٤١٠م^(٢). وكان من الطبيعى أن يعتري الناس هول وفزع من جراء سقوط مدينتهم الخالدة، وجرى اعتقادهم أن ما حدث لروما هو نذير بنهاية العالم، والقضاء على حضارته. وليس من السهل تصور الانطباع الذى تركه سقوط روما فى نفوس المعاصرين، إذ رأوا فيه حدثاً لم تشهده الأمبراطورية الرومانية المتأخرة من قبل، حتى أن القديس جيروم (حوالى ٣٤٠ - ٤٢٠م) بكى فى صومعته فى بيت لحم البعيدة قائلاً : «لقد انطفأ مصباح العالم، وضاعت

Lot, The End of the Ancient World., p. 204.; Simons, op. cit., p. 37. (١)

Bradley, The Goths., pp. 91-92.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 85. (٢)

الإنسانية كلها بين حطام روما»^(١). وكتب أيضاً : «لقد ارتبك عقلى، وتششتت أفكارى، حتى أننى نسيت نفسى.. فالمدينة التى امتلكت العالم، وقعت نفسها فى الأسر»^(٢). وترتب على سقوط روما فى أيدي أولئك البرابرة أن صارت فريسة للنهب والسلب، فأحرقت دور الأغنياء، ودمرت الكنوز النادرة، وما أكثر الأواني الذهبية والذخائر والتحف التى حطمت ببساطة أثناء تقسيم الغنائم والأسلاب بين أولئك الغزاة؛ وترتب على تلك الكارثة أيضاً أن تشتت السكان، فلجأ الكثير منهم إلى الأماكن النائية المنعزلة طلباً للأمن^(٣). وعندما سار وفد من أهل المدينة إلى الأريك ليسأله عن شروط الصلح، وافق على الانسحاب إذا أعطى كل ما فى المدينة من ذهب وفضة. ولما سأله أعضاء الوفد : «وأى شىء بعد هذا يبقى لنا؟»، أجابهم فى ازدراء : «حياتكم»^(٤). وجدير بالذكر، أن الأريك رغم أنه كان مسيحياً أريوسياً، إلا أنه أحترم الكنائس الكاثوليكية، فلم يتعرض لها بسوء، ولم يمس آثارها وكنوزها. وعلى أية حال، تعتبر هذه المرة هى الأولى التى دخل فيها البرابرة مدينة روما، منذ أن خربت على أيدي هانيبال عام ٢١٦ قبل الميلاد^(٥).

ترك الأريك روما بعد أن نهبها برابرة القساة ثلاثة أيام، صارت خلالها خراباً موحشاً، خالية من ثرواتها وكنوزها. على أن سقوطها فى الواقع لم يعط الأريك أية ميزة حقيقية، وبعبارة أخرى لم تحقق أحلامه التى سعى إليها فى روما أو إيليريا من قبل، ففى هاتين المدينتين لم يجد المأوى والاستقرار المنشود لشعبه، ويبدو أنه أدرك ذلك تماماً، بدليل أنه قرر الجلاء عن روما، والتوجه إلى أفريقية، بهدف التحكم فى ذلك الإقليم الفنى بالقمح، والعمل على منع إيطاليا من الحصول عليه. وكان أن زحف على رأس قومه، ساعياً إلى هدفه بحماس لا يفتر، حتى بلغ

Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 64.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I, p. 85.; Katz, (١) The Decline of Rome., p. 92.

Baynes, Decay of the Western Power and its Causes., p. 2223. (٢)

(٣) موس : المرجع السابق، ص ٨٦ - ٨٧.

Bradley, op. cit., p. 93. (٤)

Pirenne, op. cit., p. 28.; Cantor, op. cit., pp. 76-77. (٥)

الطرف الجنوبي من إيطاليا، وعندما ركب البحر إلى صقلية، هبت عاصفة هوجاء حطمت أسطوله، وأعقب ذلك أن توفي فجأة قبل نهاية عام ٤١٠م في أبوليا بالقرب من كوتسنزا Cosenza. ولم يرغب القوط الغربيون في دفن زعيمهم في مقبرة، شأنه شأن بقية الناس، ولكنهم اعتزموا أن يعطوا جنازته ومراسيم دفنه أنشودة ملحمية، فقاموا بتحويل مجرى نهر بوزنتو Busento وهو نهر صغير في كالابريا، وأقاموا ضريحه في قاع النهر الذي خلا من المياه، ودفنوا معه كنوزه وغنائمه، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلي، وحتى لا يعرف مكانه، قام القوط بقتل العبيد الذين كلفوا بأعمال الحفر، حتى يظل قبره سراً غامضاً إلى الأبد^(١).

بعد وفاة أثاريك، اختار القوط الغربيون أثارولف Athaulf ملكاً عليهم، ويقال أنه فكر في الإطاحة بالأمبراطورية الرومانية، وإقامة امبراطورية قوطية على أنقاضها، ولكنه لم يلبث أن عدل عن تلك الرغبة، بعد أن تبين له أن القوط الغربيين لا يصلحون ورثة للرومان، لما عرف عنهم من ضيق بالقوانين وعدم الخضوع لها، كما أنه رأى الاستحالة على جرمانى أن ينتزع التاج الأمبراطوري ولقب الأمبراطور الرومانى؛ وكان أن عول في نهاية الأمر، على وضع قواته وشعبه في خدمة الأمبراطورية^(٢)، متخذاً لنفسه لقب «باعت مجد الأمبراطورية الرومانية» Restitutor Orbis Romani، وفي نفس الوقت استقر رأيه على اتخاذ إقليم الغال وطناً لقومه. وما لبث أن قادهم إلى شمال إيطاليا، ثم عبر بهم جبال الألب إلى جنوب بلاد الغال، حيث صار سيّداً لمعظم تلك المنطقة قبل نهاية عام ٤١٣م، بعد أن بسط سيطرته على مدن هامة مثل بلنسية، وبوردو، وناربون، وتولوز التي صارت عاصمة للقوط الغربيين فيما بعد^(٣).

Bradley, op. cit., pp. 97-98.; Hoyt & Chodorow, pp. 64-65.; Manitius (M.), "The (١) Teutonic Migrations. 378-412.", in Camb. Med. Hist., Vol. I., p. 274.;

جيبون، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية، ج٢، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

Bradley, The Goths., p. 100.; Simons, The Birth of Europe., p. 37.; Previté- (٢)

Orton, op. cit., Vol. I., p. 86.

Deanesly, A Hist. of Medieval Europe., p. 28.

(٣)

وفى العام التالى (٤١٤م) عقد أثولف قرانه على أخت الامبراطور الأميرة جالا بلاسيديا Galla Placidia فى ناربون. وكانت تلك الأميرة التي تشع مرحاً وذكاء وحيوية، قد وقعت أسيرة فى يده بعد سقوط روما، وعاملها معاملة طيبة، جعلتها تقع فى حبه، وتقبل الزواج منه. بيد أن قنسطنطيوس قائد الجيش الرومانى الذى خلف ستليكو أعلن معارضته، لأنه كان يود الزواج من بلاسيديا، وزاد من حقه ما لمسه من حرص أثولف على تأكيد نفوذه وسيطرته فى إقليم الغال. ومن جراء ذلك خرج قنسطنطيوس على رأس جيش ضخم متوجهاً لإقليم الغال لمنع أثولف من تحقيق مآربه، فى الوقت الذى أرسل فيه أسطولاً ضخماً استطاع منع وصول المؤن إلى الموانئ الغالية. ولذلك عندما ضاق الخناق على القوط، وظهر شبح المجاعة فى الأفق، اضطر أثولف إلى التحرك مرة أخرى، باحثاً لقومه عن موطن آخر، فعبر بهم جبال البرانس (البرينية) إلى أسبانيا^(١). وكان أول ملك قوطى يدخلها.

لم يعيش أثولف طويلاً بعد ذلك، إذ اغتيل على يد أحد خدمه فى مدينة برشلونة فى أغسطس سنة ٤١٥م، واختار القوط الغربيون سيجريك Sigeric خلفاً له. فاستهل حكمه بقتل أولاد أثولف، وإلحاق الأذى بالأملة الشابة جالا بلاسيديا، من ذلك أنه أجبرها على السير بجوار فرسه مسافة اثنتى عشرة ميلاً، ولذلك لم ينعم طويلاً بالحكم، فقد جرى قتله بعد أسبوع واحد من توليته العرش على يد زعيم اسمه واليا Wallia. واستطاع ذلك الزعيم أن يحصل لشعبه بالطرق الدبلوماسية، ما فشل سابقوه من ملوك القوط فى الحصول عليه بالحرب والعداء. ومما يدل على ذلك أنه عقد اتفاقية سلام مع الرومان فى عام ٤١٨م، وافقوا بمقتضاها على استقرار القوط الغربيين فى إقليم أكويتين (أكويتانيا)، وهو يشمل المنطقة التى تضمها فرنسا الحديثة جنوب نهر اللوار، وقد عرفت تلك المنطقة بالملكة التولوزية، بعد أن اتخذ القوط الغربيون من تولوز عاصمة

(١) Bradley, The Goths., pp. 101 - 103.; Boak (Arthur E.R.), A Hist. of Rome to 565 A. D., (New York, 1930), pp. 378-379.

لمملكتهم، التي تمتعت بالاستقلال الذاتى فى ظل الأمبراطورية^(١). كما وافقت الأمبراطورية أيضاً على مدهم بالقمح، وفى المقابل، وافق القوط الغربيون على أن يكونوا معاهدين (محالفين) للأمبراطورية، وأن ينهضوا بتطهير أسبانيا من جموع الوندال والآلان والسويفى لصالح الأمبراطورية؛ أما الأميرة جالا بلاسيديا، فقد وافق القوط الغربيون على أرجاعها إلى إيطاليا، وهناك أجبرت على الزواج من قنسطنطيوس، رغم بغضها له^(٢).

وبعد وفاة واليا فى عام ٤١٩م، انتخب القوط الغربيون ثيودريك الأول -Theoderic I ملكاً عليهم. وإبان عهده ظهر خطر الهون بزعامة آتिला، مكتسحاً فى طريقه صوب الغرب البلاد والمدن، ومخلفاً وراءه الدمار والخراب. وعندما وصل آتिला منطقة أورليان Orleans، كان يأمل أن يقف القوط الغربيون فى صفه ضد القوات الرومانية، ولكن ثيودريك أثر الانضمام إلى القوات الرومانية وحلفائها، مما أدى إلى رجحان كفة الرومان فى المعركة التى دارت رحاها بالقرب من شالون سنة ٤٥١م، وفيها لقي ثيودريك حتفه كما ذكرنا من قبل. ولم تنقضى بضعة سنوات حتى صار إيوريك Euric ملكاً على القوط الغربيين فى عام ٤٦٦م، وعلى عهده بلغت مملكة القوط الغربيين ذروتها فى القوة والنفوذ، فقد ازدادت أراضيها اتساعاً لم تشهده من قبل. وبمعنى آخر نجح القوط الغربيون فى توطيد سيادتهم فى الغال وأسبانيا، بحيث صارت فى حوزتهم المنطقة الممتدة بين المحيط الأطلسى وجبال الألب، ومن مضيق جبل طارق حتى أكويتين، فيما عدا إقليم جليقية - فى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا - الذى سيطرت عليه قبائل السويفى الجرمانية^(٣).

(١) Hoyt & Chodsrow, op. cit., pp. 65-66.; Deanesly, op. cit., pp. 28-29.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 87.

(٢) Deanesly, op. cit., p. 29.; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 454.; Schmidt (Ludwig), "The Visigoths in Gaul, 412-507", in Camb. Med. Hist. Vol. I., p. 278.

Bradley, The Goths., pp. 116 - 117.

(٣)

على أن مملكة القوط الغربيين ما لبثت أن تمزقت بعد وفاة ملكها إيوريك سنة ٤٨٥م، لأن خلفاء كانوا يفتقرون إلى المقدرة والكفاءة التي تميز بها. ولا يغيب عن البال أيضاً أن أريوسية القوط الغربيين كانت حجر الزاوية في انهيار مملكتهم وتمزقها، فالغالبية العظمى من رعاياهم في إقليم الغال كانت على المذهب الكاثوليكي المناهض للأريوسية. وإذا تصورنا مدى الكراهية التي تبادلها أنصار المذهبين، لأدركنا أنه كان من المستحيل على أى ملك قوطى أن يحوز رضا أتباع يعتبرونه هرطقياً في نظرهم^(١).

الوندال : Vandals

ينحدر الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية التي غادرت ساحل البحر البلطى في وقت سابق على تحرك القوط. وقد ظهوروا تاريخياً كإحدى القبائل الجرمانية القوية في أواخر القرن الأول الميلادى، وذكرهم بلينى (٢٣ - ٧٩م) في الجزء الجغرافى من مصنفه الموسوعى الضخم «التاريخ الطبيعى» Naturalis Historia باسم vindili، كما ذكرهم المؤرخون الإغريق باسم Bandili أو Bandeli. وقد اتخذوا من الجزء الأوسط والشرقى من بروسيا Prussia موطناً لهم عند ظهورهم تاريخياً، ولكن إقامتهم في ذلك الموطن لم تدم طويلاً، إذ قامت الحرب بينهم وبين قبائل اللانجوباردى (اللومبارديين) Langobardi، انتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة كما تروى الأساطير، ونزوحهم جنوباً إلى المنطقة الواقعة بين سيليزيا وبوهيميا^(٢). وفي أثناء الاضطرابات والفوضى التي أثارها حرب قبائل الماركومانى حوالى عام ١٦٦م، اتجهت قبائل الوندال الأسدينج (الأسدنجين) Asdingi التي اشتقت إسمها فيما يبدو من اسم البيت المالك،

Ibid., p. 117.

Hodgkin (Thomas), Italy and her Invaders., Vol. II., (London, 1892), pp. 212-

214.;

محمود الحيرى، اللومبارديون في التاريخ والحضارة، ص ١٥ - ١٧.

صوب الجنوب إلى هنغاريا، على حين ظلت قبائل السيلنج (السيلنجيين) Silingi بسيليزيا، التي يظهر أن اسمها ليس إلا صيغة صقلبية للاسم القديم (سيلنجيا)^(١).

وفي القرن الثالث الميلادي بدأت مرحلة جديدة لتحرك جماعات الوندال، هيئت لها الأحوال السيئة التي مرت بها الأمبراطورية آنذاك. فإبان ذلك القرن اختل البناء الأمبراطوري - كما ذكرنا في مرات عديدة - داخلياً وخارجياً، وتشير الأحوال الخارجية إلى ظهور موجات زاحفة من القبائل الجرمانية، أخذت تضغط على الحدود، التي أمست كحائط هش بنى من الرمال لا يستطيع الصمود أمام رياح القلاقل. على أن ذلك القرن لم يعدم حقيقة بعض الأباطرة الذين حرصوا على إبعاد الخطر الجرمانى عن الأمبراطورية. فعلى سبيل المثال، عندما ارتقى أوريليان عرش الأمبراطورية سنة ٢٧٠م أعطى الكثير من جهده لذلك الغرض، بدليل أنه خلال عودته إلى روما أتيا من جهة الدانوب الأوسط، اضطر إلى العودة إلى بانونيا، ليدفع عنها غارات قبائل الوندال والسارماتيين، واستطاع فعلاً إلحاق الهزيمة بالوندال في المعركة التي دارت رحاها سنة ٢٧١م^(٢). ولم يلبث الوندال أن أرسلوا سفارة للأمبراطور طلباً للصلح، فوافق بشرط أن يحتفظ بأبناء ملوك الوندال وكبار نبلائهم رهينة، وأن يمدوا الجيوش الرومانية بألفى فارس كمعاهدين، وفي نفس الوقت تكفل الأمبراطور بمددهم بالمؤن حتى وصولهم إلى الدانوب. وبعد ذلك بسنوات قليلة قام حلف من الشعوب الجرمانية، ضم الأليمانى والوندال والبرجنديين بعبور جبهة الراين، والتوغل في إقليم الغال، بيد أن الأمبراطور بروبس استطاع سحق العديد من الوندال في عام ٢٧٧م، وأخذ

Alföldi (A.), "The Invasions of Peoples from the Rhine to Black Sea." in Camb. (١) Ancient Hist., Vol. xli., p. 139.;

موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٩ - ٩٠.

Lot, Les Invasions Germaniques, pp. 33-34.; Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 394 - (٢) 395.

أعداداً وفيرة منهم أسرى، ضمهم إلى الفرق العسكرية التي بعث بها إلى بريطانيا^(١).

وفي عام ٤٠٠م اكتشف الوندال أن الأرض التي يعيشون عليها على نهر الثيس Theiss (في هنغاريا) قد ضاقت مواردها بهم، ولذلك اضطروا عدد كبير منهم - بقيادة ملكهم جوديجيل Godigisel - إلى مغادرتها، بحثاً عن أراضٍ جديدة تقى بمطالبهم، في الوقت الذي انحازوا فيه إلى قبائل الآلان. وتحت ضغط الهون آنذاك، اضطروا الوندال والآلان إلى الاندفاع غرباً، وبعد أن اجتازوا الدانوب الأعلى، تمكنوا من الاستيلاء على منطقتي رايتيا ونوريكيوم في العام التالي (٤٠١م). وهنا نلاحظ أن الإمبراطورية لم تتخذ موقفاً حاسماً حيالهم، بل أثر القائد الروماني ستليكو مهادنتهم، وإجراء مفاوضات معهم، انتهت إلى اتفاق، قبلوا بمقتضاه أن يمدوه بالمرتزقة^(٢). وبعد خمس سنوات (٤٠٦م) تعرضت إيطاليا لغزوة بربرية، قامت بها جماعات ضخمة من القوط الشرقيين وأحلافهم من الوندال وغيرهم، أنزلت بإيطاليا التخريب والتدمير. ولكن ستليكو استطاع هذه المرة أن يلحق بهم هزيمة ساحقة بالقرب من فلورنسة. ولم تكد تمر شهور قليلة على تلك الهزيمة، حتى قامت جماعات من الشعوب الجرمانية، مؤلفة من الوندال الأسدنج، والوندال السيلنج، والسويفي، والآلان، بعبور نهر الراين بالقرب من مينز Mainz في ٣١ ديسمبر سنة ٤٠٦م، وتوغلت في إقليم الغال، ناشرة الرعب والدمار في مدنه، حتى وصل خطرهم مشارف جبال البرانس التي حالت ممراتها الحصينة نون توغلهم في أسبانيا، وبذلك نجت أسبانيا وقتئذ من أعمال التخريب والدمار^(٣).

(١) Hodgkin, op. cit., Vol. II, pp. 216-217; Lot, op. cit., pp. 33-34.

(٢) Lot, op. cit., p. 69; Manitius, "The Teutonic Migrations", Vol. I, p. 264.

(٣) Lot, op. cit., pp. 70-71; Boak, op. cit., p. 379; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 455;

Manitius, op. cit., p. 266.;

على أن الهدوء لم يلبث أن ساد إقليم الغال، بعد أن عبرت قبائل الوندال وحلفاؤها جبال البرانس سنة ٤٠٩م، وهبطت أرض أسبانيا. وهناك انتشرت بسرعة تدعو إلى الدهشة، حتى وقعت شبه الجزيرة كلها في أيديها. وعندئذ وجدت الأمبراطورية نفسها عاجزة عن الوقوف أمامها، ولم تجد مفرأ من أن تعقد مع تلك القبائل المتبريرة معاهدة، صار زعمائها بمقتضاها حلفاء Foederati، وفي مقابل ذلك جرى منحها أراض في شبه الجزيرة للاستيطان، فاستقر الوندال الأسدينج والسويغي في الجزء الشمالي الغربي من أسبانيا (جليقية) Gallaecia، والالان في لوزيتانيا Lusitania، على حين استقر الوندال السيلنج في الجنوب الشرقي من أسبانيا (بايتيكا) Baetica التي صارت تعرف منذ ذلك الوقت بالاندلس Andalusia نسبة إلى الوندال^(١). ورغم أن الأمبراطور هونوريوس - حاكم القسم الغربي من الأمبراطورية - كان مضطراً آنذاك لقبول هذا الوضع في أسبانيا، إلا أنه في حقيقة الأمر حرص على عدم التخلي نهائياً عن أسبانيا، ووضع في حسبانته اغتنام أية فرصة تساعد على التخلص من تلك القبائل التي اتصفت بالوحشية والتدمير، والتي كانت لا تقيم وزناً للسن أو للمقام في استخدام أنواع الإهانة والتعذيب مع الشعوب التي كانت تبدي أية مقاومة ضدها. وكان أن أتت الفرصة عندما تحالفت الأمبراطورية مع واليا ملك القوط الغربيين في عام ٤١٦م، واتفقت معه على مهاجمة الوندال وحلفائهم في أسبانيا وتطهيرها من شرهم. والحقيقة أن موقف الأمبراطورية يستحق أن نتمهل أمامه بالفحص، ذلك أنه كان وسيلة لغاية استهدفت إضعاف القوتين، قوة القوط الغربيين وقوة الوندال، بعد أن بلغت الأمبراطورية درجة من الضعف، صار من الصعب عليها إيقاف الجرمان عند حدهم. وبمعنى آخر أثرت الأمبراطورية اتباع سياسة «فرق تسد» مع أعدائها الجرمان والبرابرة. وتظهر تلك السياسة واضحة عندما نجح واليا في حروبه التي خاضها ضد الوندال، ففيها انمحي فرع الوندال

Hodgkin, Italy and her Invaders, Vol. II, pp. 222-223; Boak, op. cit., p. 380; (١) Manitius, op. cit., p. 275; Schmidt (Ludwig), "The Visigoths in Gaul, 412-507", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 304.

السيلنج من الوجود تماماً، وضعف شأن الآلان الذين اضطرت بقاياهم إلى الاندماج في الوندال الأسدينج في جليقية، ويقال أن ملك الوندال الأسدينج أطلق على نفسه آنذاك لقب ملك الوندال والآلان^(١). غير أن الامبراطورية سرعان ما أصابها الفزع من جراء ازدياد نفوذ القوط الغربيين في أسبانيا، فعمدت إلى إبعادهم عن أسبانيا في نهاية عام ٤١٨م، بأن منحتهم إقليم أكويتين للاستقرار به. وجريا على سياسة الامبراطورية مع أعدائها الجرمان، تحالفت مع قبائل السويفى وقدمت لها العون، بهدف القضاء على الوندال والآلان في جليقية. وكان أن لحقت الهزيمة بهم في العام التالي (٤١٩م)، وأرغموا على الانسحاب إلى بايتيكا في جنوب أسبانيا. وتجدر الإشارة إلى أنه رغم الضربات المتكررة التي أكلت للوندال، إلا أنهم استطاعوا توحيد قواهم من جديد، وأنزلوا الهزيمة بجيش روماني، حاول استعادة بايتيكا - أو الأندلس - من أيديهم في عام ٤٢٢م^(٢).

ظل الوندال في الأندلس بعد طول تجوال وترحال، حتى وقع اختيارهم على جزيرك الأعرج Gaiseric the Lamé ملكاً عليهم سنة ٤٢٨م وهو من الوندال الأسدينج. ويعتبر جزيرك (٤٢٨ - ٤٧٧) أعظم رجال عصره من الجرمان، عرف بالذكاء والتكشف والزهد، لايهاب الردى في القتال، قاسياً على أعدائه، لا تأخذه بهم رحمة ولا شفقة، موهوباً في المناورات السياسية، الأمر الذي جعل البعض يطلق عليه لقب «بسمارك» القرن الخامس الميلادي^(٣). ومن الأمور التي تدل على ذكائه أن وضع قومه في أسبانيا شغل جانباً كبيراً من تفكيره، إذ رأى أنها لا تحقق حلماً مثالياً لهم، فضلاً عن أنها لا تصلح مأوى لهم في المستقبل. ومن ثم أخذ يتطلع إلى أفريقية التي وجد فيها أرضاً صالحة للاستيطان، ذات أهمية تفوق ما كانت عليه أسبانيا آنذاك. ولأنك أن جزيرك كان صائباً في تفكيره، لعدة إعتبارات، منها أن ولاية أفريقية تميزت بخصوصيتها ووفرة محاصيلها

Hodgkin, op. cit., Vol. II, p. 223; Barker, "Italy and the West." p. 404.

(١)

Lot, op. cit., p. 37; Boak, op. cit., p. 380.

(٢)

Hodgkin, op. cit., Vol. II, p. 228.

(٣)

الزراعية، لاسيما القمح الذى يجرى تصدير كميات ضخمة منه، وهى أيضاً من الناحية الاستراتيجية بمثابة قلعة حصينة، يحدها البحر المتوسط شمالاً، والصحراء جنوباً^(١)، ولا يخفى علينا أن الأحوال فى ولاية أفريقية وقتذاك كانت تشجع على غزوها، فمنذ مدة طويلة ترجع إلى أوائل القرن الرابع الميلادى، بلغت فيها الفوضى السياسية والاجتماعية والاختلافات المذهبية درجة لم تشهدها من قبل، ويؤكد ذلك انشغال الكونت بونيفاس Bonifacius حاكم أفريقية فى الحروب الدائرة بينه وبين الأمبراطورية الرومانية فى الجزء الغربى، فضلاً عما كانت تعانيه تلك الولاية من اضطرابات قام بها سكانها من البربر Moorish، فى وقت افتقر فيه بونيفاس إلى القوة الكفيلة بردهم، كل تلك الاعتبارات دارت فى ذهن جزريك، عندما وضع مشروعه للانتقال إلى شمالى أفريقية^(٢).

وأمام تلك الاعتبارات، وتحت تأثير الرغبة فى عبور البحر إلى أفريقية، قاد جزريك قومه فى عام ٤٢٩م، عبر مضيق عمودى هرقل (جبل طارق) وعدتهم حوالى ثمانين ألف، نساء وأطفالاً وشيوخاً وعبيداً، وقد تراوح عدد المحاربين بين ١٢.٠٠٠ و ١٥.٠٠٠ ألف. وسرعان ما وقعت ولاية أفريقية فريسة الغزو الوندالى، واجتاح أولئك البرابرة معانقها ومدنها التى أخذت تتهاوى الواحدة بعد الأخرى، فيما عدا مدينة قرطاجنة التى حالت أسوارها المنيعه القوية دون الاستيلاء عليها^(٣). ثم واصلت جموع الوندال زحفها شرقاً دون إبطاء، مكتسحة فى طريقها شعوب البربر التى حاولت مقاومتها. ورغم أن جزريك عقد اتفاقية سلام مع الأمبراطورية فى عام ٤٣٥، إلا أنه لم يلبث أن رمى بها عرض الحائط، عندما انقض فجة على مدينة قرطاجنة فى ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩م، فسقطت فى يده، وأنزل بها من أنواع المهانة والردائل ما أرضى جشعه وجشع قواته القاسية؛

Lot, Les Invasions Germaniques., p. 88.

(١)

Lot, The End of the Ancient World., p. 211; Schmidt, "The Sueve, Alans and Vandals in Spain, 409-429", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 305.

Lot & Dfister and Ganshaf, Les Destinées de l'Empire en Occident, (Paris, (٣) 1940), pp. 55 - 56.

وقد أحدث سقوط تلك المدينة العظيمة التي تلى روما فى المكانة دويماً هائلاً فى
الأمبراطورية. وخشية أن تقوم روما بأى عمل حربي ضد الوندال، دفع جزيريك
بأساطيله، فأغار على جزيرتى صقلية وسردينيا ونهبتهما، الأمر الذى أجبر
الأمبراطور الغربى فالنتينيان الثالث على طلب السلام فى عام ٤٤٢م وكان الثمن
الذى دفعه نظير السلام فادحاً، إذ اعترف بجزيريك ملكاً مستقلاً على أفريقية^(١).
وهكذا فقدت الأمبراطورية ولاية من أهم ولاياتها، ويعتبر ضياعها أحد العوامل
التي أسرعت بالأمبراطورية الغربية إلى التفكك والانحيار، فمن الواضح أن قيام
دولة وندالية قوية - مقرها فيما يعرف بتونس الحالية - حرمت الغرب الأوروبى من
أعظم المناطق الغنية بالقمح من جهة، وجعلت موانئ غرب البحر المتوسط
وتجارته تحت سيطرة الأساطيل الوندالية من جهة أخرى^(٢).

غير أن فترة السلام بين الوندال والأمبراطورية الغربية لم يكتب لها البقاء
طويلاً، فقد استغل جزيريك الفتن والفوضى والاضطرابات التي شبت فى
الأمبراطورية، إثر اغتيال فالنتينيان الثالث فى ١٦ مارس سنة ٤٥٥م، وأرسل
أساطيله لشن هجوم على إيطاليا، أسفر عن وقوع العاصمة فى أيدي الغزاة. وقد
حاول البابا ليو الأول (٤٤٠ - ٤٦١) أن ينقذ المدينة من الوندال، كما أنقذها من
أتيلاب قبل ذلك بثلاث سنوات، ولكن محاولته باءت بالفشل. وظلوا بها مدة أسبوعين
ارتكبوا فيها العديد من أعمال النهب والسلب والقتل والتدمير، فنهبوا القصر
الأمبراطورى، ومعبد الإله جوبيتر، والمساكن والكنائس، وانتزعوا الرهائن المطلية
بالذهب من أسقف المعابد، واستولوا على التحف الثمينة التي أحضرها القائد
الرومانى تيتوس معه من بيت المقدس، والذخائر، والصحاف، والأثاث الفخم^(٣).

(١) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 63; Lot, The End of the Ancient World., (١)
p. 210; Barker, "Italy and the West.", pp. 420-421.

(٢) Lyon & Herbert and Hamcrow, A Hist. of the Western World., Vol. I., pp. 100-
101; Cary & Wilson, A Shorter Hist. of Rome., pp. 336-337.

(٣) Thompson, op. cit., p. 61; Schmidt, op. cit., p. 305; Barker, op. cit., Vol. I, pp. (٣)
420-421.

وبعد أن استباحوا المدينة، وأرضوا نزواتهم ورغباتهم الجشعة، عادوا إلى أفريقية محملين بالفنائم والأسلاب، التى كان من بينها إيودوكسيا Eudoxia أرملة الأمبراطور فالنتينيان الثالث وطفلتها. وقد كان لذلك الحادث وقع سيىء فى قلوب المعاصرين، جعلهم يربطون بين اسم الوندال وبين قطع الطرق واللصوصية والتدمير الوحشى، الأمر الذى أوحى لأحد الباحثين الفرنسيين فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى بابتكار لفظ الوندالية Vandalism فى اللغات الأوربية الحديثة، وجعله مرادفاً للوحشية والهمجية^(١). أضف إلى هذا، أن الأساطيل الوندالية دأبت على ممارسة القرصنة البحرية فى غربى البحر المتوسط، فلم تسلم مدن وجزر ذلك البحر جميعاً من إغاراتها المخربة؛ وقد أدرك الرومان فى شرق الأمبراطورية وغربها خطورة انتشار القرصنة الوندالية، فأرسلوا حملات بحرية بغية القضاء عليها، وإعادة الأمن والهدوء إلى مياه البحر المتوسط، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل والخيبة^(٢).

على أن مملكة الوندال التى اعتمدت فى قيامها على جزيرك اعتماداً كلياً، وظلت باقية تستمد قوتها من قوته، لم تستطع أن تقف على قدميها بعد وفاته فى ٢٥ يناير سنة ٤٧٧م، ويؤكد ذلك ما قامت به قبائل البربر من ثورات على تلك المملكة، انتهت باستيلائهم على الإقليم الواقع جنوب الساحل. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فشل الوندال فى الاندماج - اجتماعياً واقتصادياً ودينياً - مع أهالى البلاد، خاصة طبقة النبلاء الثرية التى أذلوا أفرادها وأذاقوهم فنون التعذيب، رغبة فى اغتصاب ثرواتهم المخبأة، بعد أن صادروا أملاكهم، حتى اضطرت الحاجة بعضهم إلى التسول، وأنزلت البعض الآخر إلى مرتبة العبودية. وأخيراً، لما كان الوندال على المذهب الآريوسى، شأن جميع الشعوب الجرمانية،

Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., p. 101; Lot & Dfister and Ganshof, (١) p. 78.

Dill (S.), Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, (U.S.A., 1966), pp. (٢) 16-17; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 68

فقد اتبعوا سياسة دينية متطرفة، أثارت نقمة أهالى البلاد من أصحاب المذهب الكاثوليكي، لاسيما رجال الدين الكاثوليك^(١).

البرجنديون : Burgundians

أما البرجنديون الذين عاشوا فى القرن الأول الميلادى بين الأودر والفيستولا، فهم أحد الشعوب الجرمانية الشرقية، موطنهم الأصلى شبه جزيرة سكنديناوه، من جزيرة بورنهولم Bornholm التى حفظت اسمهم Burgundarholm^(٢). وقد كتب الخطيب سيديونيوس^(٣) عن البرجنديين فى أواخر القرن الخامس بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبعة أقدام، يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ، ويشتهرون بالشراهة فى الطعام، ويتحدثون بأصوات عالية. وهم أيضاً شعب مسالم، على دراية بنظم الشعر، بدليل أن قصائد ملحمة نيبولنج التى ظهرت فى القرن الثالث عشر، مستمدة من قصص ترجع فى أصولها إلى برجنديا فى القرن الخامس أو السادس الميلادى^(٤).

وحوالى سنة ١٥٠م نفذ البرجنديون إلى سيليزيا، ثم فى حوالى سنة ٢٨٦م، دخلوا وادى المين، ثم شقوا طريقهم إلى نهر الراين، فبلغوه فى نهاية القرن الرابع الميلادى^(٥). وفى عام ٤٠٦م المضطرب العاصف عبروا نهر الراين تحت ضغط جحافل الهون بزعامة آتिला، واستطاعوا الحصول على موافقة السلطات

(١) Schmidt, op. cit., pp. 311-312.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 32-33.

(٣) عاش أبوليناريوس سيديونيوس Appollinaris Sidonius فى إقليم الغال، وهو من أسرة رومانية عريقة، دأبت على اعتلاء مناصب إدارية عالية فى الحكومة الأمبراطورية. وقد نال سيديونيوس تدريباً فى تلك المناصب، وتدرج فيها حتى احتل منصباً قريباً للامبراطور فى روما، ثم استقال من منصبه، وعاد إلى إقليم الغال، حيث شغل منصب أسقف كليرمونت Clermont وهو منصب استقله فى تقديم العون لرجال الدين الذين تعاملوا مع البرجنديين والقوط الغربيين. أنظر :

Sellery & Krey, Medieval Foundations., p. 27.

(٤) Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 30; Cantor, op. cit., p. 119.

(٥) Deanesly, op. cit., p. 30;

موس، المرجع السابق، ص ٨٨.

الرومانية بالإقامة كمعاهدين Foederati فى عام ٤١٣م على الضفة اليسرى لذلك النهر، حول مدن ورمز Worms وسباير Speyer والمينز؛ وقد أتاح استقرارهم فى تلك الأماكن فرصة اعتناقهم الديانة المسيحية، بيد أن ما قاموا به من إغارات على جيرانهم، وما صاحبها من أعمال النهب والسلب، جعلت القائد الرومانى أنتيوس يحرض عليهم جنوده المرتزقة من الهون سنة ٤٣٦م، فاشتبكوا معهم فى معركة عنيفة أنزلت بهم كارثة مدمرة، قتل فيها ملكهم، أما البقايا التى نجت من الهلاك، فقد وات الإذبار إلى منطقة وادى الرون الأعلى؛ وكان أن سمح لهم أنتيوس فى عام ٤٤٣م بالإقامة كمعاهدين للأمبراطورية فى تلك المنطقة التى عرفت باسم برجنديا حتى يومنا هذا^(١). وتجدر الإشارة إلى أن البرجنديين منذ أن انتهى بهم المطاف فى وادى الرون، عاشوا فى سلام مع الرومان، واختلطوا بهم بالتزاوج، وقد أثارت الحضارة الرومانية إعجابهم، وبهرت عيونهم، فاقبلوا عليها، وأخذوا ينهلون من معينها، ويظهر ذلك بوضوح فى مجموعة القوانين البرجندية Lex Burgundionum والتى أصدرها الملك البرجندى جندوباد (٤٧٣ - ٥١٦) Gundobad، وأيضاً مجموعة القوانين الرومانية البرجندية Lex Romana Burgundionum التى أصدرها ذلك الملك، لمعالجة القضايا المتداخلة بين الرعايا الرومان والرعايا البرجنديين، لاسيما ما تتعلق بالخلافات التى كانت تقوم بينهما^(٢).

وفى الفترة المضطربة التى سبقت سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوروبى، تولى حكم البرجنديين ملوك من أسرة جديدة، بعد أن ذبح آخر ملوك الأسرة القديمة على أيدي قبائل الهون المرتزقة فى عام ٤٣٦م، وقد حرص أولئك الملوك بدورهم على التحالف مع روما. ويعطى جندوباد صورة واضحة، لما كانت عليه تلك الفترة من قلق واضطراب. فقبل أن ينفرد بعرش مملكة البرجنديين،

Lot, The End of the Ancient World., p. 207; Dill, op. cit., pp. 16-17.

(١)

Sinnigen & Boak, op. cit, op. cit., p. 488.

(٢)

حدث نزاع بينه وبين أخيه شلبريك الثانى Chelperic II حول الوصول إلى العرش، انتهى بنفيه إلى روما. ولكن الأحداث سرعان ما تطورت بعد ذلك على غير ما كان يأمل شلبريك، فما اتصف به من صفات الغطرسة، والميل إلى الارتياح والشك، جعلته يفقد حب أهالي برجنديا، الأمر الذى شجع جنودباد على العودة من منفاه. وتلا ذلك نشوب قتال بين الأخوين، انتهى بانتصار جنودباد، وفوزه بعرش مملكة البرجنديين^(١). وقد وصف المؤرخ جريجورى التورى^(٢) (٥٣٨ - ٥٩٤) Gregory of Tours فى كتابه «تاريخ الفرنجة» الطريقة البشعة التى انتقم بها جنودباد من أخيه، إذ قام بذبحه بالسيف، وأغرق زوجته بعد أن ربط حجراً حول عنقها حتى لا تطفو على سطح الماء، ثم تلا ذلك بنفى ابنتى أخيه، انتهى مصير كبراهما إلى الانخراط فى سلك الرهبنة، أما الصغرى كلوتيلد Clothilde، فهى التى قدر لها الزواج بعد ذلك من كلوفيس Clovis ملك الفرنجة.

ورغم أن البرجنديين نشلوا على المذهب الآريوسى، شأنهم شأن بقية الطوائف الجرمانية، إلا أنهم - فيما يبدو - احترموا رغبة الإناث فى اعتناق المذهب الآخر المخالف لأرائهم، وهو المذهب الكاثوليكي. وليس أدل على ذلك من أنهم لم يحركوا ساكناً حيال الأميرة كلوتيلد عندما اعتنقت الديانة الكاثوليكية، الأمر الذى كان له بعيد الأثر على مستقبل شعب الفرنجة، بعد أن تزوجت من زعيمه كلوفيس، الذى أعجبت به بذكائها وفتنته بجمالها. فإليها يرجع الفضل فى تشجيع زوجها وقومه على اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي. ومهما يكن من أمر، فقد قدر لدولة البرجنديين فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى (٥٣٢م) أن يسدل عليها ستار الانحسار وتذهب إلى حيث لا رجعة من صفحات التاريخ، بعد أن لقيت هزيمة ساحقة على أيدي الفرنجة.

Lot, op. cit., p. 246.

(١)

The Hist. of the Franks., p. 274; Dill, op. cit., p. 21.

(٢)

الأليمانى : Alemanni

الأليمانى من الشعوب الجرمانية الغربية التى واجهت الإمبراطورية خطرهما، وكلمة الأليمانى (Alemanni) (Alemans) مشتقة من التيوتونية القديمة ومعناها «كل الناس» و«كل الرجال» All Men، وهو اسم لا يعبر عن قبيلة معينة، ولكنه يدل على مجموعة من القبائل مختلفة فى أنسابها، والجدير بالذكر أن ذلك الشعب الذى ظل وثنياً حتى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى، لم يكن معروفاً للإمبراطورية، مثل بقية الشعوب الجرمانية الأخرى التى عرفتها على جبهتى الراين والدانوب، إذ يرجع ظهوره تاريخياً سعيّاً وراء الطعام، أو السلب والنهب، أو تحت ضغط من الخلف، على عهد الإمبراطور كاراكلا (٢١١ - ٢١٧م) Cara-calla، فى أعداد غفيرة فى شمال جبهة الراين الأدنى فى المناطق المجاورة للولايات الإمبراطورية، حتى أنه استطاع غزو إقليم رانتيا Rhaetia (وهو جزء من سويسرا الحالية)، على أن كاراكلا الذى عرف بمقدرته الحربية، لم يتمكن من دحر الأليمانى عبر الحدود فقط، بل توغل فى أراضيهم الواقعة بين الماين Maine وألمانيا العليا ورائتيا، ثم ما لبث أن وجه جهوده نحو تقوية التحصينات الدفاعية فى تلك المناطق^(١). ولم تكد تمر بضع سنوات على وفاة كاراكلا، حتى جدد الأليمانى - وبعض القبائل الجرمانية الأخرى - هجماتهم على الحدود الرومانية، ووصل ضغطهم إلى حد بالغ الخطورة، اضطر الإمبراطور الكسندر سيفيروس (٢٢٢ - ٢٣٥م) معه إلى قطع حملته ضد الفرس فى الشرق والعودة سريعاً إلى جبهة الراين لقيادة العمليات الحربية ضد الأليمانى وحلفائهم، بيد أنه لم يلبث أن دخل معهم فى مفاوضات، انتهت إلى إحلال السلام بين الجانبين. والواقع أن ذلك التصرف أفقد الإمبراطور احترام قواده، لما رأوا فيه من مذلة واستسلام، ومن ثم قامت ثورة ضده فى عام ٢٣٥ بقيادة ماكسيمينوس Maxi-

Bang, "Expansion of the Teutons", pp. 200-201; Cary & Scullard, A Hist. of (١) Rome., p. 497.; Laistner (M.L.W.), Thought and Letters in Western Europe. A.D. 500 To 900, (London, 1957), p. 20.

minus أسفرت عن مصرع الأمبراطور وإعلان ماكسيمينوس أمبراطوراً. مما يجدر ذكره أن ماكسيمينوس (٢٣٥ - ٢٣٨م) كان قائداً حقيقياً، شجاعاً ذكياً، اكتسب محبة جنده، الذين رأوا فيه مثلهم الأعلى، ومما يدل على ذلك أنه لم يرض بما وصل إليه سلفه مع الجرمان، وكان أن بعث الحياة والنشاط في الجيش الروماني، ورفع من روحه المعنوية، واستطاع على رأسه أن يتوغل في بلاد الأليمانى، ويلحق بهم الضربة تلو الأخرى، ويثقل حقولهم، ويخرب مساكنهم. ولا جدال في أن ما قام به ماكسيمينوس أدهش شعب الأليمانى المحارب، في الوقت الذى أعاد الأمن والاستقرار لجهة الراين لفترة تزيد عن عشرين عاماً^(١).

أخذ الأليمانى يحومون من جديد حول حدود الأمبراطورية، ويتحفزون للوثوب عليها، حتى سنحت لهم الفرصة في سنة ٢٥٩م، فتحركوا تجاه وادى النيكس، واخترقوا منطقة الغابة السوداء Black Forest واستولوا على منطقة أكوا أوريلينسس Aqua Aureliensis (بادن - بادن الحالية)، حتى وصلوا أعالي الدانوب، وهنا هاجمهم القائد الطموح بوستوموس Posthumus، وحال بينهم وبين دخول إقليم الغال^(٢). ولكنهم عاودوا الكرة على عهد الأمبراطور جالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨م)، فاندفعوا هذه المرة في أعداد هائلة، كطوفان مدمر، فاجتاحوا سلسلة الحصون الدفاعية، وأصابوا إقليم الغال بخسائر جسيمة، ثم عبروا جبال الإلب إلى سهول لبارديا في إيطاليا، واستمروا في تقدمهم حتى وصلوا راثنا، وهنا كان لابد من إيقاف زحفهم خشية أن يصلوا روما، فقام الأمبراطور بعمل حربى ضدهم بالقرب من ميلان حوالى سنة ٢٦٨م، لم يضع حداً لعبثهم في الواقع، ولكنه جعلهم ينسحبون عائدين إلى مواطنهم محملين بالغنائم، وقد رأى الرومان في ذلك الانسحاب انتصاراً^(٣).

Universal Hist. of the World., Vol. 4, chronicle XII, pp. 2113-2114; Bang, op. cit., p. 201; Cary & Scullard, op. cit., p. 499.

Thompson, op. cit., pp. 45-46.

(٢)

Universal Hist. of the World., Vol. 4, chronicle XII, pp. 2115-2117.; Robinson, (٣)

A Hist. of Rome., p. 398.; Lot, Les Invasions Germaniques, p. 33; Cary & Scullard, op. cit., p. 509; Bang, op. cit., p. 201.

وفى أوائل عهد الإمبراطور أوريليان (٢٧٠ - ٢٧٥م) تحرك الأليمانى مرة أخرى فى حشود ضخمة، فاندفعوا خلال جبال الألب الرايتية إلى سهل نهر البو فى شمال إيطاليا، وبعد أن أغاروا وارتكبوا ما ارتكبه من أعمال النهب والسلب، بدأوا رحلة العودة إلى مقر إقامتهم، غافلين عن الخطة التى تفتق عنها ذهن أوريليان وقتذاك، فقد اندفع كالسهم المارق إلى الدانوب قاطعاً عليهم خط الرجعة، واستطاع سحق طليعة جموعهم شمالى ذلك النهر، فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة جموعهم لاتزال على الضفة الجنوبية للنهر، فأسقط فى يدها، وشلت حركتها، بعد أن أحاطت بها قوات الإمبراطور وجعلتها عاجزة عن العودة. وعندما أحسن الأليمانى بأن خطر الإبادة يتهددهم، دفعهم التشبث بالحياة إلى التحرك جنوباً فى سرعة بالغة تدعو إلى الدهشة والإعجاب معاً. غير أن أوريليان تعقبهم، ودمرهم تدميراً عنيفاً على ضفاف نهر ميتاوروس Metaurus، وهو نفس المكان الذى استطاع فيه من قبل القائد الرومانى كلوديوس نيرو Claudius Nero إحراز انتصار حاسم فى الحروب الهانيبالية منذ خمسة قرون مضت، وتجدر الإشارة إلى أنه خلال تلك الفترة الطويلة لم تجرؤ أية قوة أجنبية على الاقتراب من قلب إيطاليا، مثلما اقترب الأليمانى فى تلك المرة. وقد كان هذا فى الحقيقة مبرراً كافياً لتحرك أوريليان، فضلاً عن شروعه فى بناء سور دفاعى جديد يحيط بمدينة روما^(١).

ورغم تلك الضربة القاصمة التى لحقت بالأليمانى على أيدي أوريليان، ومزقتهم شر ممزق، وأطاحت بقلولهم بعيداً إلى ما وراء الحدود، إلا أن خطرهم - فى الواقع - لم ينته تماماً. ويبين من سياق الأحداث المعاصرة أنهم جنحوا إلى الهدوء فترة أعادوا خلالها قوتهم، وظهروا فى شكل تحالف أقاموه مع الفرنجة. وفى عهد الإمبراطور قنسطنطيوس الثانى (٣٥٠ - ٣٦١م)، اندفع الفرنجة والأليمانى فى أفواج لا تحصى تجاه جبهة الراين فى عام ٣٥٦م، فى وقت هدد فيه الفرس حدود الإمبراطورية من جهة الشرق. ولصعوبة الموقف أدرك

Universal Hist., Vol. 4., Chronicle VII., p. 2119; Thompson, op. cit., p. 46.

(١)

قنسطنطينوس حاجته إلى زميل مخلص كفاء يساعده في إدارة كفة شئون
الأمبراطورية، وكانت زوجته الأمبراطورة إيودكسيا Eudoxia قد أشارت عليه
بتعيين ابن عمه جوليان - الذي صار إمبراطوراً فيما بعد - حاكماً برتبة قيصر،
فاستمع إلى رأيها، وعهد إليه حكم إقليم الغال، ومهما يكن من أمر، فقد اخترق
الآليمانى حدود الأمبراطورية عند جبهة الراين، وتقدموا مدى أربعين ميلاً فى
إقليم الغال، ورغم القوات الصغيرة التى كانت تحت إمرة جوليان، إلا أنه
استطاع أن ينتصر عليهم بالقرب من ستراسبورج Strassburg فى عام ٣٥٧م،
وتعقبهم عبر الراين، وتمكن من إعادة العديد من الأسرى الذين وقعوا فى أيديهم.
وبعد أن رد اعتدائهم، بقى فى إقليم الغال فترة أصلح خلالها الأماكن التى خربها
الآليمانى، وأعاد تنظيم وسائل الدفاع عن جبهة الراين، الأمر الذى أكسبه شهرة
واسعة آنذاك، أثارت الغيرة فى قلب الأمبراطور نفسه^(١).

وفى تلك الأثناء أمكن للأمبراطورية إحكام قبضتها القوية على حدود جبهة
الراين ضد شعوب الآليمانى والفرنجة، بفضل أعمال التحصينات التى أقامها
الأمبراطور فالنتينيان الأول (٣٦٤ - ٣٧٥م)، لاسيما فى المنطقة الممتدة من رائتيا
حتى بحر الشمال، واستطاع ذلك الأمبراطور الذى كرس حياته للدفاع عن حدود
الأمبراطورية عند جبهتى الراين والدانوب، القيام بحملات ناجحة ضد تلك
الشعوب وراء الراين؛ صحيح أنها لم تؤد إلى نتائج حاسمة، ولكنها منحت إقليم
الغال فترة من الهدوء والاستقرار^(٢). ثم عاد الآليمانى إلى الظهور مرة أخرى
على جبهة الراين، وقد شجعتهم الأحوال التى أحاطت بالأمبراطورية فى عام
٣٧٨م، ففى ذلك العام انصرفت همه الأمبراطور فالنزي إلى مقاومة خطر القوط
الغربيين المتفاقم فى البلقان، الأمر الذى أعطى فرصة للآليمانى، انقضوا من
خلالها على جبهة الراين، ولكن جراتيان Gratian - ابن أخى الأمبراطور وزميله

Universal Hist., Vol. 4., Chronicle VII, pp. 2194-2195.; Piganiol, L'Empire (١)
Chrétien., p. 7; Dill, Roman Society in Gaul., p. 7; Roman Society in the last
century of the Western Empire., p. 288.; Previté - Orton, op. cit., Vol. I, P. 51.

Sinnigen & Boak, op. cit., p. 425.

(٢)

فى الغرب الأوربى - كان لهم بالمرصاد، فأوقع بهم هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة هوريبورج الحالية Horburg فى ربيع سنة ٣٧٨، مكنته من استرداد جبهة الراين، وإيقاف نشاطهم العدوانى لفترة بلغ مداها خمسة وعشرين عاماً^(١).

وهنا نلاحظ أنه ابتداء من القرن الخامس الميلادى، تكثفت غزوات الجرمان فى منطقة شمالى الغال الممتدة من اللوار حتى الراين، وقد لعبت قبائل الوندال والآلان والسويفى دوراً بارزاً فى تلك الغزوات، التى بلغت ذروتها تحت ضغط جحافل الهون بزعامة أتيل فى عامى ٤٠٧ و ٤٠٨م. وتغير الموقف فى النصف الثانى من ذلك القرن، إذ تعرض إقليم الغال، من جهتي الشمال والشرق، لغزوات مستمرة واسعة النطاق أشد خطورة وعنفاً قامت بها شعوب الفرنجة والأليمانى. والحقيقة أن عين القائد الرومانى القدير أنتيوس لم تغفل عن أطماع تلك الشعوب، بدليل أن موته سنة ٤٥٤م أزاح عقبة كداء من طريقها، وساعدها على التوسع والانتشار فى إقليم الغال، فاستقرت فى المناطق الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين^(٢)، وعلى طول وادى الماين والنيكر، ومنطقة الغابة السوداء.

على أنه لم يقدر للتحالف القائم بين الفرنجة والأليمانى أن يستمر طويلاً، فقد انقلب إلى تنافس وعداء بين الفريقين، استطاع الفرنجة أن يخرجوا منه ظافرين. ذلك أن الفرنجة فى أواخر القرن الخامس أخذوا يتوسعون فى إقليم الغال على حساب النفوذ الرومانى، وكان لهذا التوسع أثره فى قيام دولة الفرنجة، التى لعب كلوفيس Clovis (٤٨٦ - ٥١١م) دوراً هاماً فى ظهورها كما سنرى بعد قليل. وعلى أية حال، فقد بدأ الصدام عندما استهدفت شعوب الأليمانى الحصول على مستقرات فى سهول إقليم الغال الغنية اقتداء بالفرنجة، فقامت بغزو ضخم سنة ٤٩٦م^(٣)، ثم ركزت أعنف هجوم لها على منطقة كولون

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 194.; Piganiol, op. cit., p. 206.; Previté-

Orton, op. cit., Vol. I, p. 53; Bang, op. cit., p. 210; Manitius, op. cit., pp. 252-253.

Lot, Les Invasions Germaniques, p. 123.

Dill, Roman Society in Gaul., p. 86.

(٢)

(٣)

Cologne. وعلى بعد أميال قليلة من تلك المدينة التقى الجمعان - الأليمانى والفرنجة - فى معركة ضارية فى توليبياك Tolbiacum. والجدير بالذكر أنه أثناء القتال الدائر بين الفريقين تعهد كلوفيس باعتماد الديانة المسيحية فى حالة انتصاره على أعدائه، وكان جيشه قد تعرض لموقف عصيب أول الأمر، كاد أن يسحق بسببه، الأمر الذى يعيد إلى الأذهان الموقف الذى تناولته أسطورة قنسطنطين العظيم فى معركة جسر ملقيان^(١) فى أكتوبر سنة ٣١٢م. وفعلاً أوفى كلوفيس بعهده، إذ سقط ملك الأليمانى صريعاً فى المعركة، وحلت هزيمة ساحقة بقومه، جعلت الغالبية العظمى منهم رعايا لكلوفيس، أما بقاياهم فقد اضطرت إلى الانسحاب إلى رانتيا، وتلا ذلك أن دخلت تحت طاعة ثيودريك العظيم (٤٩٣ - ٥٢٦م) ملك القوط الشرقيين^(٢). ولا يخفى علينا أن نجاح الفرنجة فى القضاء على شوكة الأليمانى أسفر عن نتائج بالغة الأهمية، أفسحت المجال لتوسعهم، وتحديد مصير دولتهم ومستقبل الغرب الأوروبى.

الفرنجة : Franks

ظهر الفرنجة خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، بنزولهم فى الحوض الأدنى لنهر الراين فى مجموعتين هما : الفرنجة البحريون أو الساليون Salian Franks أى الذين ينزلون قرب البحر، والفرنجة البريون أو الريبوريون Ripuarian Franks أى الذين يقيمون على شاطئ النهر. وقد درج الجغرافيون الرومان فى ذلك القرن على إطلاق اسم فرانكيا Francia على الإقليم الواقع حول الضفة اليمنى لنهر الراين، الممتد من نيمجين Nimegen حتى كوبلنز Co-blentz، والذى كان يشغله منذ أيام المؤرخ تاكيتوس (توفى حوالى عام ١٢٠م) قبائل السيكامبرى Sicambri والشامافى Chamavi، والبروكتيرى Bructeri والشاتى والشاوكى Chauci. وبداية كان ظهور الفرنجة الساليين - وهم أشهر

Taylor, Medieval Mind., p. 120.

(١)

Dill, op. cit., pp. 86-87; Gregory of Tours, op. cit., pp. 275-276.

(٢)

الفرنجة - فى المنطقة الواقعة شرقى نهر سالا (المعروف الآن باسم الايزيل the Issel فى الاراضى المنخفضة)، وهو نفس المكان الذى كان مقراً للسيكامبرى؛ ومن المحتمل أنهم اشتقوا اسمهم من ذلك النهر، بيد أننا نلاحظ أن اسم الفرنجة قد غلب على جميع أسماء القبائل الأخرى أكثر من الساليين، ورغم أن اسم الفرنجة Free - men أو Franks كان مثار جدل وخلاف، فقد جرى الاتفاق على أنه لفظ شائع لتحالف غير مستقر للقبائل المقيمة على نهر الويزر والراين الأدنى، وهس Hesse، وبرونزويك Brunswick، وبين تلك القبائل التى ضمها ذلك التحالف صار الفرنجة الساليون أعظمها شهرة^(١). ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى بأنهم الشعب الجرى السريع الذى لا تلين له قناة، وكانوا يرون فى الشجاعة أسمى الفضائل كلها، ويردبون يوماً أنهم رجال أحرار تجرى النبالة فى عروقهم، ولم يعتبروا أنفسهم برابرة؛ ومن المعروف أن الفرنجة الساليين كانوا طوال القامة، شقر الوجوه، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤسهم، ثم يتركونه يتدلى منها فى شكل أشبه ما يكون بذيل الحصان، وكانوا يطلقون شواربيهم، ويحلقون لحاهم^(٢).

ويحدثنا التاريخ لأول مرة عن ذلك التحالف تحت اسم «الفرنجة» فى القرن الثالث الميلادى، عندما اجتاحت القبائل التى يضمها ذلك التحالف إقليم الغال سنة ٢٥٢م، وواصلت زحفها جنوباً، فعبرت جبال البرانس حتى الجزء الشمالى الشرقى من أسبانيا، تاركة بصماتها فيما خلفته من حطام وخرائب. وفى تلك الفترة المظلمة من تاريخ الإمبراطورية نجح القواد الرومان فى إيقاع الهزيمة بقبائل الفرنجة، وردّها إلى موطن استقرارها على الويزر والراين^(٣). على أن سكوت الفرنجة لم يستمر طويلاً، فقد انتهزوا فرصة ظهور الفوضى والفتنة التى قامت فى منطقة الراين فى عام ٢٥٩م، بسبب اغتيال ابن الإمبراطور فاليريان

Dill, op. cit., p. 6; Hodgkin, op. cit., Vol. VII, pp. 3 - 4. (١)

Simons, The Birth of Europe., p. 35; (٢)

ديورانت، قصة الحضارة، مج ٤، ج ١، ص ١٧٩.

Dill, op. cit., p. 6. (٣)

على يد القائد الطموح بوستوموس في كولون، وبادروا بشق طريقهم مرة أخرى إلى إقليم الغال، وظلوا يتجولون في أنحائه، ناشرين القوضى والخراب، ليس هناك من قوة تستطيع كسر حدة اندفاعهم، وإيقاف اعتدائهم، فالإمبراطورية كانت غارقة آنذاك في لجة مشاكلها الداخلية والخارجية. وفي تلك الأثناء اعتلى بروبس Probus - وهو محارب شجاع - عرش الإمبراطورية، ورغم أن فترة حكمه (٢٧٦ - ٢٨٢م) كانت قصيرة، إلا أنها كانت بمثابة شعاع من الضوء ظهر في تلك الأيام المظلمة من تاريخ الإمبراطورية، بدليل أنه قاد عدة حملات ناجحة في منطقة الراين، أدت إلى تطهير بلاد الغال من الفرنجة^(١)، وأخذ الآلاف العديدة منهم أسرى، وأنزلهم إلى مرتبة العبودية، وقد كتب إلى مجلس السناتو في عام ٢٧٧م مزهوا بانتصاراته قائلاً: «والآن يعمل البرابرة من أجلكم ويزرعون أرضكم». ويذكر مؤرخ سيرته أنه قام بنقل الآلاف من الأسرى إلى المناطق المهجورة التي كانت تحتاج إلى تعمير، كما أنه أدخل العديد منهم في الفرق العسكرية، وأرسل بهم إلى بريطانيا وراقيا وآسيا الصغرى. ورغم ما قام به بروبس فإن خطرهم في الواقع لم يجتث من جذوره^(٢). وكان أن تحسن الموقف على جبهة الراين تحسناً ملموساً، عندما وصل دقلديانوس إلى عرش الإمبراطورية سنة ٢٨٤، فبفضل جهوده الشخصية ومقدرته الفائقة، أمكن إعادة الاستقرار والهدوء إلى تلك الجبهة، بعد أن كبح جماح الجرمان^(٣).

على أن المتأمل في تحركات الفرنجة خلال القرن الرابع يلمس مدى الفارق بينها وبين نظيرتها في القرن السابق، فقد اتصفت بطابع الاستيطان أو الاستقرار الدائم، بدلاً من مجرد غزو هدفه الحصول على الغنائم المادية. ومما ساعد على ذلك أن القوات الرومانية كانت في حقيقة أمرها أضعف من أن تستطيع إيقافهم عند حدهم، سواء بطريق القوة أو بطريق الدبلوماسية. ويتضح

Bang, op. cit., pp. 201-202.

Thompson, op. cit., pp. 46-47.

Universal Hist., Vol. 4., Chronicle XII, pp. 2121-2123.

(١)

(٢)

(٣)

ذلك من المحاولات التي قامت بها القوات الرومانية فى عامى ٣٤١ و ٣٤٢م بغرض الوقوف فى وجه الفرنجة، ولكنها باءت بالفشل، وترتب على ذلك أن عقد معهم الإمبراطور قنسطانز (٣٣٧ - ٣٥٠م) Constans اتفاقية سلام لم تدم طويلاً، ففى غضون عشرة سنوات اقتحمت قبائل الأليمانى والفرنجة جبهة الراين، ثم شقت طريقها إلى إقليم الغال، حيث أخذت مدن ذلك الإقليم الرائعة - مثل كولون وتريف وغيرها من المدن الهامة - تتساقط فى أيديها واحدة بعد أخرى، حتى اضطر العديد من أهلها إلى الفرار. ولم يستطع أحد غير جوليان أن ينقذ موقف الإمبراطورية المنهار فى جبهة الراين، فقد استطاع على رأس قواته فى عام ٣٥٧م - كما رأينا من قبل - أن ينزل الهزيمة بالغزاة، وينجح فى استعادة الضفة الغالية لنهر الراين الممتدة من ستراسبورج إلى كولون، لكنه لم يقم بعمل حاسم فى العام التالى (٣٥٨م)، عندما اكتشفت السلطات الرومانية أن الفرنجة الساليين قد استقروا فى أوقات سابقة فى إقليم الغال فى المنطقة التى يطلق عليها توكساندريا Toxandria (شمال بلجيكا الحالية) داخل الحدود الرومانية، وكل ما فعله هو أن سمح لهم بالإقامة كمعاهدين^(١). ومن الواضح أن مسلك الإمبراطور على هذا النحو، حقق للفرنجة الحصول على أول وطن استقروا فيه داخل أراضى الإمبراطورية؛ وفى ذلك الوطن أخذوا يمارسون الزراعة فى جو مفعم بالطمأنينة، الأمر الذى جعلهم ينهضون بدور حضارى هام فى الغرب الأوروبى فيما بعد.

والجدير بالذكر أن العلاقات بين الإمبراطورية وشعوب الفرنجة لم تكن عدائية دائماً، فالكثير منهم كان على صلة طيبة بروما. كما أن البلاط الإمبراطورى قد ازدهم بالشخصيات الفرنجية المغامرة التى علا شأنها منذ أوائل القرن الرابع الميلادى، وتأثرت بالحضارة الرومانية، حتى لم يعد لديها الإحساس بأصلها الفرنجى أو الشعور بالولاء لمواطنيها من الفرنجة، ووصل

Dill, op. cit., p. 7; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 456.; Piganiol, op. cit., p. 78, (١) p. 223.

الأمر بها إلى الوقوف ضد أبناء أرومتهم الذين ظلوا برابرة إذا اقتضت مصالح
الأمبراطورية ذلك^(١). وقد تبوأ العديد من الفرنجة مناصب عالية في
الأمبراطورية، فمنهم من وصل إلى قواد فرسان وحكام أقاليم، كما وصل البعض
منهم إلى مرتبة القنصلية، والبعض الآخر إلى مرتبة الأوغسطس زميلاً
للأميراطور. وعلى سبيل المثال لا الحصر، وصل ريكومير Richomer إلى
منصب القائد الأعلى للجيش الرومانية في عهدى جراتيان (٣٧٥ - ٣٨٣م)
وثيودوسيوس الأول (٣٧٨ - ٣٩٥)، كما وصل أربوجاستس Arbogastes إلى
نفس المنصب، وكان صاحب الفضل في وصول إيوجنيوس Eugenius إلى عرش
الأمبراطورية. ولا جدال أن تلك الأسماء وغيرها معاً، تكشف لنا النقاب عن
طموح الفرنجة في الربع الأخير من القرن الرابع، ذلك الطموح الذي امتد نطاقه
إلى قلب الأمبراطورية^(٢)، مثلما امتد نفوذهم التوسعي إلى المنطقة الواقعة بين
الراين الأدنى والميز والشلد من جهة، وعلى امتداد الموزل الأدنى من جهة أخرى.

وقد ازدادت الروابط بين الأمبراطورية والفرنجة قوة ومتانة منذ القرن
الخامس الميلادي، ذلك أنه في الأيام الأخيرة من سنة ٤٠٦م اجتاحت الجموع
الجرمانية والتبريرية جبهة الراين في حشود ضخمة لم يسبق لها مثيل، ثم
اندفعت إلى إقليم الغال، الأمر الذي جعل الفرنجة يحاربون إلى جانب القوات
الرومانية. على أن الفرنجة لم يقفوا جميعاً وقفة رجل واحد في صف
الأمبراطورية، بل هناك من سلك نحوها مسلكاً عدائياً، أملت أحداث الفوضى
والاضطرابات التي انتشرت آنذاك. وتؤكد ذلك الشذرات التي حفظها لنا المؤرخ
جريجوري مؤلف كتاب «تاريخ الفرنجة» Historia Francorum، فقد روى أن
البعض من الفرنجة كان يحارب في صف الأمبراطورية ضد الوندال والأليمانى،
على حين كان يقوم البعض الآخر بنهب المدن الرومانية، مثل مدينة تريف التي
نهبوها وأحرقوها أربع مرات بين سنتي ٤٠٩ و ٤١٥م^(٣).

Lot, The End of the Ancient World., p. 249.

Dill, Roman Society in Gaul., pp. 7-8.

Ibid., p. 8.

(١)

(٢)

(٣)

ويعتبر شلوجيو Chlogio أول ملوك الفرنجة الساليين في منطقة توكساندريا ببلاد الغال. وقد نجح ذلك الملك في التوسع ناحية الجنوب الغربي، فاستولى على كامبراى Cambrai بعد أن أنزل الهزيمة بالقوات الرومانية، ثم واصل نشاطه التوسعي حتى وصل نهر السوم Somme. ولكن أنتيوس أعظم القواد الرومان في عصره، لم يلبث أن أوقف أطماعه التوسعية، فقد انتهز فرصة انشغال الفرنجة بزواج أحد زعمائهم شمالى ذلك النهر حوالى سنة ٤٤٧م، وانقض عليهم فى سرعة ألحقت بهم خسائر فادحة. ولم يمض وقت طويل حتى توفي شلوجيو فى العام التالى (٤٤٨م) بعد حكم دام عشرين سنة، وأتى من بعده ميروفيتش Merovechus وهو الذى أحاطت به مسحة من الغموض والمعجزات، وسميت باسمه الأسرة الميروفنجية التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١م. وقد شهدت البلاد الغالية إبان عهده الذى تميز بالضعف حدثاً من أهم الأحداث التاريخية، إذ أتت قبائل الهون المتبربرة، تسبقها شهرة من البطش والقسوة، أجبرت العديد من سكان المدن الغالية على الفرار. والمعروف - كما أسلفنا القول - أن بعض القبائل الجرمانية تحالفت مع القوات الرومانية لدفع خطر الهون المشترك، فانضم الفرنجة الساليون أتباع ميروفيتش إلى جانب القائد الرومانى أنتيوس صاحب الدور الهام فى تلك المعركة. ويرى المؤرخ جوردان Jordanes الذى عاش فى القرن السادس الميلادى أن الفرنجة الساليين حاربوا بشجاعة فائقة جديدة بأصلهم، أما فرع الفرنجة الريبورين فقد حاربوا تحت راية آتيلا زعيم الهون^(١).

وليس من شك فى أن الفترة التى أعقبت مقتل الأمبراطور ثالنتيان الثالث سنة ٤٥٥م تعتبر من أسوأ الفترات الحالكة التى مرت الأمبراطورية بها. وخير صورة توضح ذلك نلمسها فى المصير الذى آلت إليه جبهة الراين وقتذاك : فالفرنجة الريبورين قد استولوا على ضفتى نهر الراين فى المناطق الممتدة من

ليب Lippe إلى لاهن Lahn؛ واستغل البرجنديون فرصة اشتراكهم في معركة شالون مع الرومان، وأخذوا يتوسعون سلمياً، حتى استقر بهم الأمر سنة ٤٨٦م في المنطقة الواقعة حول نهري الرون والساوون؛ أما القوط الغربيون فقد صارت تحت أيديهم كل المنطقة الواقعة غربي الغال حتى نهر اللوار؛ أما الفرنجة الساليون، فعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي لحقت بهم في معركة شالون، وأضعفت من قوتهم، فقد وصلوا بزعامة شلديريك Childeric عليهم في عام ٤٥٨م إلى تورناي Tournai (بالقرب من حدود فرنسا وبلجيكا الحالية)؛ وإلى الجنوب من منطقة الفرنجة الساليين نجد أن النفوذ الروماني لا زال قائماً في منطقة سواسون Soissons يمثلها سياجروس^(١). ومن المشاهد أن المنطقة الأخيرة ظلت في أيدي السياجريين باسم روما، وإن كانوا في الواقع قد استقلوا بها في زحمة الأحداث التي ألمت بالغرب الأوربي آنذاك^(٢). ويمكن القول أن سواسون تعتبر بمثابة جزيرة «رومانية» صغيرة، وسط محيط واسع من الممتلكات الجرمانية في إقليم الغال.

وعندما توفي شلديريك سنة ٤٨١م خلفه على عرش دولة الفرنجة الساليين ابنه كلوفيس (٤٨١ - ٥١١م) الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لتلك الدولة، وطبقاً لما أورده المؤرخ جريجوري التوري، تولى كلوفيس العرش في السادسة عشرة من عمره، وعرف بمقدرته الحربية، وشخصيته القاسية التي لا تقم للمبادئ الأخلاقية وزنا، الأمر الذي أهله لزعامه جميع قبائل الفرنجة الساليين من ناحية، ووضع اللبنة الأولى في صرح مملكة الفرنجة الميروفنجية - نسبة إلى جده الأسطوري ميروفييتش - من ناحية أخرى. وقد حرص كلوفيس على توسيع رقعة مملكته، فشرع في عام ٤٨٦م في الزحف بجيوشه بغية القضاء على سياجروس آخر بقايا النفوذ الروماني في سواسون، وفي القتال الذي دار بين الجانبين، لحقت

Ibid., pp. 9 - 10.

Ibid., pp. 12 - 13.

(١)

(٢)

الهزيمة بسياجروس، واضطر عندئذ إلى ترك فلول جيشه فاراً إلى ألاريك الثانى (٤٨٥ - ٥٠٧) ملك القوط الغربيين فى تولوز طالباً الحماية، ولما بلغ كلوفيس ذلك هدد بشن الحرب على ألاريك إذا لم يبادر بتسليم اللاجىء، ويبدو أن ألاريك لم يكن فى موقف يسمح له بالوقوف ضد كلوفيس، فأذعن لطلبه، وجرى قتل سياجروس على أيدي كلوفيس، وضم سواسون إلى ممتلكاته^(١). كذلك استطاع كلوفيس أن يزيح من طريقه سيجبرت Sigibert ملك الفرنجة الريبواريين، رغم أن هذا الملك قدم له العون خلال حروبه ضد ألاريك القوطى، وأخضع شعب الأليمانى - فى الألزاس - لنفوذه فى عام ٤٩٦م؛ كما انتصر على ألاريك عند قوبيه القريبة من بواتييه الشهيرة سنة ٥٠٧م، منهيماً بذلك حكم القوط الغربيين فى الغال؛ وبذلك يكون كلوفيس قد حقق الكثير من الانتصارات والأمجاد لقومه، ويكفى أن ما استولى عليه من أراض قبل وفاته، بلغ ما يعادل ثلاثة أرباع إقليم الغال^(٢).

على أن أهم خطوة قام بها كلوفيس هى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثولىكى أو الأثناسيوسى، مخالفاً بذلك جميع الطوائف الجرمانية الأريوسية. وكان كلوفيس قد أقدم - مثلما أسلفنا القول - على الزواج من كلوتيلد وهى أميرة برجندية دانت بالمذهب الكاثولىكى؛ ومهما قيل من أن أسباب اعتناقه لذلك المذهب كان بإيحاء منها، أو أنه استمع لنصيحة رئيس أساقفة ريمس الذى أشار عليه بالتحالف مع الكنيسة الغربية حتى يضمن ولاء شعوب إقليم الغال^(٣)، أو أنه تعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره على الأليمانى سنة ٤٩٦م، فالحقيقة

Gregory of Tours, op. cit., pp. 273 - 277.; Simons, The Birth of Europe., (١) pp. 58 - 59.

Hodgkin, op. cit., Vol. III, p. 9; Taylor, op. cit., p. 119', Lyon & Herbert and Ha- (٢) merow; op. cit., p. 103.; Schmidt, "Teutonic Kingdoms in Gaul", in Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 286.

فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ٣٦ - ٣٧.

Painter, op. cit., p. 29.

(٣)

التي لا مرء فيها أن ذلك كله يعنى أنه صار بطلاً من أبطال الكنيسة الكاثوليكية. وإذا كانت تلك الكنيسة قد وقفت إلى جانبه في صراعه مع الشعوب الجرمانية الأخرى، فإن الغالبية العظمى ممن يدينون بالمذهب الكاثوليكي قد وقفت إلى جانبه أيضاً، الأمر الذي وطد نفوذه، وأوجد رباطاً وثيقاً بينه وبين رعاياه في إقليم الغال من جهة، ومكنه من الانتصار على منافسيه من جهة أخرى^(١).

Taylor, op. cit., p. 20.

(١)

الفصل الخامس

سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي
(٤٧٦م)

كان من الممكن أن تحافظ الأمبراطورية الرومانية على وحدتها وتماسك بنائها، خلال الفترات التي تعرضت فيها لغزوات الشعوب الجرمانية والمتبربرة. ولكن سوء أحوالها الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن الأباطرة الضعاف الذين تولوا أمرها، وتركوا السلطة الحقيقية في أيدي قواد كانوا في معظم الأحيان ينتمون في أصولهم إلى عناصر جرمانية وبربرية، لها أطماع خاصة تعمل على تحقيقها داخل الأمبراطورية، كل ذلك جعل الأمبراطورية عاجزة عن حماية حدودها عندما اقتحمتها تلك الشعوب. ولا يغيب عن البال أن الخطر الخارجى الذى أحاط بالأمبراطورية لم يأت من جانب الشعوب الجرمانية فحسب، فهناك أيضاً خطر الفرس وغيرهم فى الشرق. فكثيراً ما تطلب الأمر أن تواجه الأمبراطورية الخطرين فى وقت واحد، الأمر الذى كان يؤدى إلى ارتباك تحركات القوات الرومانية، ويجعل من الصعب عليها تغطية الدفاع عن الحدود كلها - وهى مترامية الأطراف - فى وقت واحد. ومن ناحية أخرى، اقتضت العمليات الحربية فى كثير من الأحيان، نقل القوات الرومانية من جبهتى الراين والدانوب لدفع خطر الفرس فى الشرق، ونتيجة لذلك وجدت ثغرات فى حدود الأمبراطورية، استطاع الجرمان والمتبربرون النفاذ منها إلى داخل أراضيها.

ويمثل عام ٣٩٥م بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الأمبراطورية الرومانية استمرت سنوات طويلة، كانت فى روحها وطابعها نذيراً بتداعى الدولة وانهارها، خاصة فى الجزء الغربى منها. وفى ذلك العام انقسمت الأمبراطورية إلى قسمين منفصلين بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول أو العظيم، الأمر الذى جعل الأحداث فى الشرق والغرب تسير فى طريقين مختلفين. هذا من ناحية، ومن

ناحية أخرى، فإن أية معالجة لأحداث سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي في عام ٤٧٦م، لابد أن تبدأ - عن طريق مباشر أو غير مباشر - بعام ٣٩٥م. ومهما يكن من أمر، فقد انقسمت الأمبراطورية إلى قسمين : القسم الشرقي ويشمل تراقيا، وداكيا، وآسيا الصغرى، وسوريا، ومصر، وقد حكم هذا القسم أركاديوس (ت ٤٠٨م) وهو الابن الأكبر، في الثامنة عشرة من عمره؛ والقسم الغربي ويشتمل على إيطاليا، وبانونيا، ونوريكوم، ودماشيا، وقد حكم هذا القسم الابن الأصغر هونوريوس (ت ٤٢٣)، وهو في سن الحادية عشرة. وتجدر الإشارة إلى أن الأمبراطورية سبق أن قسمت على عهد دقلديانوس إلى أربعة أقسام، بهدف الحفاظ على وحدتها، وتيسير حكم أقاليمها المترامية الأطراف، مع احتفاظ الأمبراطور بالسلطات العليا في يده. ولكن تقسيم الأمبراطورية بعد وفاة ثيودوسيوس ترجع أهميته إلى أن الأمبراطورية ظلت على هذا التقسيم - شرقي وغربي على الرغم من استمرار فكرة وحدة الأمبراطورية. إذ ليس في الحقيقة ثمة امبراطوريتان، بل امبراطورية واحدة، انقسمت إلى جزئين، تولى حكمها امبراطوران^(١). ويرى البعض أن الأمبراطورية الشرقية أو البيزنطية تكونت بحدودها الإقليمية منذ أن قام ثيودوسيوس بتقسيم الامبراطورية بين ولديه أركاديوس وهونوريوس، لاستحالة إلغاء ذلك التقسيم أو القضاء عليه؛ ولاجدال أن الجرمان لعبوا دوراً هاماً في تأكيد هذا التقسيم، بوقوع الجزء الغربي من الأمبراطورية الرومانية فريسة في أيديهم، وليس معنى ذلك أن الجزء الشرقي من تلك الأمبراطورية قد ظل بعيداً عن غزوات الجرمان، فالذي حدث أنه تعرض لغزواتهم، وقاسى الكثير من التدمير والخراب على أيديهم، ولكن الجرمان لم يستقروا في ولايات ذلك الجزء بسبب السياسة التي سار عليها أباطرة ذلك الجزء بتشجيعهم على الاتجاه غرباً^(٢).

(١) Katz, The Decline of Rome., pp. 111 - 112.; Vasiliev, The Byzantine Empire., p. 92.;

الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٨.

(٢) Brehier, The Life and Death of Byzantium., p. 9; Painter, A Hist. of the Middle Ages., p. 33.

والحقيقة التي لا مراء فيها، أن ثيودوسيوس الأول عندما قسم الأمبراطورية بين ولديه، لم يضع في حسابه أن تقع الأمبراطورية فريسة الشقاق والصراع بينهما، ذلك أنه أراد لهما دولة موحدة تنعم بالاستقرار والهدوء، يتعاونان على القيام بأعبائها، غير أنه لسوء حظه أن أبنائه وأحفاده لم يرثوا كفايته ومقدرته، في الوقت الذي صار فيه مصير الأمبراطورية بشقيها معلقاً بين أيدي قادة ووزراء، وبعبارة أخرى صار الجزء الغربي تحت سيطرة القادة العسكريين، أما الجزء الشرقي فكان مصيره في أيدي الموظفين المدنيين^(١). ويعتبر القائد الوندالي العظيم ستليكو Stilicho قائد القوات الرومانية في غرب أوروبا من أهم الشخصيات التي ساهمت في أحداث تلك الفترة، ذلك أنه سرعان ما بسط نفوذه على هونوريوس، حتى أصبح الأمبراطور الصغير دمية في يده يحركها كيفما شاء؛ حقيقة أن ذلك القائد قد استبد بالسلطة، ولكنه بفضل مقدرته الحربية استطاع الحفاظ على سلامة الأمبراطورية الغربية؛ ثم كان أن حدث نزاع بينه وبين روفينوس Rufinus في القسطنطينية، أدى إلى وقوعه ضحية مؤامرة، نسج خيوطها خصومه موظفو البلاط الذين كانوا يحققون عليه، ورغم أنه لم تثبت إدانته، إلا أن هونوريوس استمع لهمسات الوشاة، وأصدر أمراً بإعدامه في رافنا Ravenna - مقر إقامة الأمبراطور - سنة ٤٠٨م^(٢)، كما سبق أن ذكرنا.

أخذت المصاعب تطل برأسها في الجزء الغربي من الأمبراطورية بعد مقتل ستليكو، إذ واجه هونوريوس مشكلة إعادة نفوذه في إقليم الغال، بعد أن ظهر منافس له أصله جندي عادي مغمور الشأن يدعى قنسطنطين، أعلن نفسه أمبراطوراً في بريطانيا سنة ٤٠٦م، ثم شق طريقه على رأس قواته إلى إقليم الغال، مستهدفاً انتزاعه من الجرمان وضمه إلى ممتلكاته، ولكنه عندما وصل إلى هناك اكتفى بعقد معاهدات هزيلة الشأن مع زعماء الجرمان، ثم زحف جنوباً إلى

Downey, The Late Roman Empire., p. 71.

(١)

Universal., Vol. 4, Chronicle XIII., pp. 2200 - 2202.; Boak, A Hist. of Rome., (٢) p. 378.

أسبانيا حتى وصل أرغون، وعندما استفحل أمره، وألحق بالأمبراطورية خسائر فادحة، اضطر هونوريوس إلى الاعتراف به زميلاً بلقب أوغسطس. وفي تلك الأثناء وقع اختيار الأمبراطور على قنسطنطيوس، وهو محارب قدير من أصل روماني نبيل، ليشغل منصب ستليكو كقائد للقوات الرومانية، وعهد إليه بمهمة القضاء على قنسطنطين في إقليم الغال، فأسرع إلى هنا سنة ٤١١م، واستطاع القضاء عليه عند مدينة آرل Arles^(١). ولم يلبث قنسطنطيوس، بحكم انتمائه إلى صفوة المجتمع الروماني النبيل، أن صار زعيماً للجبهة المناهضة للنقوذ الجرمانى في البلاط الرومانى، وبلغ من علو المكانة شأناً لم ينافس فيه أحد، حتى يمكن القول أنه غدا أقرب المقربين إلى قلب الأمبراطور وساعده الأيمن. ولكنه هو الآخر كانت له أحلام خاصة تدور في رأسه، بدأ في تحقيقها بأن أرغم الأمبراطور على أن يزوجه أخته الأميرة جالا بلاسيديا Galla Placidia، وكان القوط الغربيون قد أعادوها للامبراطور بعد أن وقعت أسيرة في أيديهم، وتزوجها ملكهم أثولف طائعة بعد أن وقعت في حبه. أما قنسطنطيوس فكانت لاتميل إليه، ومع ذلك تزوجته على كره منها في عام ٤١٧م؛ وبفضل هذا الزواج صار قنسطنطيوس شريكاً للامبراطور في الحكم برتبة الأوغسطس سنة ٤٢١م؛ غير أن الأقدار شاعت أن تكتب نهاية أحلامه، إذ لم يلبث أن توفى في نفس العام تاركاً وراءه ولداً من بلاسيديا^(٢)، قدر له بعد بضع سنوات أن يعتلى عرش الأمبراطورية. وأعقب ذلك حدوث نزاع بين بلاسيديا وأخيها الأمبراطور، اضطرت بسببه إلى اللجوء - سنة ٤٢٣م - إلى أمبراطور الجزء الشرقى ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م)، ومعها أطفالها الصغار لحمايتهم^(٣).

Sinnigen & Boak, A Hist. of Rome., pp. 457-458.; Hadas, A Hist. of Rome., pp. (١) 227-231.

Bradley, The Goths., p. 105; Previté-Orton, Shorter Camb. Med-Hist., Vol. I, pp. (٢) 87-88; Boak, op. cit., pp. 381-382; Hadas, op. cit., pp. 233-234.

Universal., Vol. 4, Chronicle III, pp. 2201-2204; Previte-Orton, op. cit., Vol. I, (٣) p. 88.

ثم حدث أن مات الإمبراطور هونوريوس في عام ٤٢٣م دون أن يعقب أولاداً، فقامت مشكلة حول من يخلفه على عرش الأمبراطورية الغربية. وقد حلت تلك المشكلة بتولية حنا John أحد كبار موظفي البلاط أمبراطوراً، وهو من الشخصيات الضعيفة، لم يستطع الوصول إلى منصبه إلا بمساعدة قسطنطينوس Castinus القائد العام للجيش الرومانية في الغرب^(١). ولعل ضعفه كان من الأسباب التي جعلت الإمبراطور الشرقي ثيودوسيوس الثاني يصر على عدم الاعتراف به امبراطوراً، ويتهمة باغتصاب العرش. وفي تلك الأثناء كانت جالا بلاسيديا وابنها الطفل فالنتينيان الذي بلغ الخامسة من عمره يعيشان في القسطنطينية، فاستقر رأي ثيودوسيوس الثاني على ارتقاء ذلك الطفل عرش الأمبراطورية الغربية باسم فالنتينيان الثالث بوصاية أمه بلاسيديا التي منحت لقب أوغسطس Augusta، أما حنا المقتصب، فقد تولت قوات الأمبراطورية الشرقية مهمة أقصائه عن الحكم، الذي لم يدم فيه سوى سنتين (٤٢٣ - ٤٢٥م)^(٢).

وإبان النزاع الذي نشب حول ارتقاء فالنتينيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥م) عرش الأمبراطورية الغربية، ظهر قائدان على مسرح الأحداث، أحدهما الكونت بونيفاس Boniface حاكم أفريقية، وهو من أصل روماني، له شهرة واسعة في الأعمال الحربية، وصيت ذائع في التقى والورع. والآخر وهو أئتيوس الذي عاش فترة وسط قبائل الهون الذين استقروا في أعالي الدانوب، واستطاع أن يحتفظ بعلاقات طيبة معهم. وقد بدأ الصدام بين القائدين عندما وقف أئتيوس في صف حنا المقتصب، فأحضر معه جيشاً من الهون للعمل كمرتزقة تحت إمرته، ولكنه وصل إلى إيطاليا بعد أن أقصى حنا عن العرش. وقد لفتت شخصية أئتيوس الأنظار، وتركزت الأضواء حولها، عندما استطاع في عام ٢٤٩م التخلص من منافسه فيليكس Felix، وكان الأخير قد خلف قسطنطينوس في منصب القائد العام

Previté-Orton, op. cit., Vol. I, p. 88.

(١)

Lot, The End of the Ancient World., pp. 206-207; Previté-Orton, p. 89.

(٢)

للجيوش الرومانية فى إقليم الغال، وبذلك شغل هو ذلك المنصب، أو بالأحرى صار صاحب النفوذ فى الغرب الأوروبى^(١). وقد أثار ما فعله أنتيوس مخاوف بلاسيديا، وخشيت من ازدياد نفوذه، ولذلك اعتزمت كسر شوكته والقضاء عليها، ووضعت آمالها فى الكونت بونيفاس الذى كان مشغولاً فى حروبه مع الوندال، وعندئذ جرى استدعاؤه، فحضر مسرعاً إلى إيطاليا فى عام ٤٣٢م، وعينه فى منصب القائد العام للجيوش الرومانية الذى خلا بمقتل فيلكس، ومن الطبيعى أن ما قامت به بلاسيديا أثار حفيظة أنتيوس، فلم يقف ساكناً، وتصدى لمنافسه بونيفاس بالقرب من أريمينيوم (ريميني) Ariminum فى إيطاليا، بيد أنه لقي الهزيمة وأرغم على الفرار إلى أصدقائه الهون. غير أن بونيفاس لم ينعم طويلاً بلذة النصر الذى أحرزه على خصمه، إذ مات عقب ذلك، وبذلك خلا الجو لأنتيوس من وجود منافس له، فعاد على رأس قواته إلى إيطاليا فى العام التالى (٤٣٣)، وفى هذه المرة أجبر بلاسيديا على تعيينه قائداً عاماً للقوات الرومانية. ومنذ ذلك الوقت حتى وفاته سنة ٤٥٤م، صار أنتيوس صاحب النفوذ المطلق فى الإمبراطورية الغربية، يدير شئونها، ويستقبل السفراء الأجانب، ويعقد المعاهدات معهم بدلاً من الأمبراطور^(٢).

ورغم أن أنتيوس قد حجب الأمبراطور فالنتينيان الثالث وأمه بلاسيديا عن السلطة والنفوذ، بحيث لم يعد لهما منهما إلا ظلاً ضئيلاً، فالحقيقة التى لا نستطيع انكارها أنه حمى الإمبراطورية ضد أعدائها من الشعوب الجرمانية والمتبربرة. ذلك أنه وجه كل جهوده للحفاظ على نفوذ الإمبراطورية فى إقليم الغال، بدليل أنه نجح فى كبح جماح الفرنجة فى الشمال، والبرجنديين فى الشرق، والقوط فى الجنوب الغربى. وينسب إليه الفضل فى الوقوف ضد الخطر الهونى، وكانت جحافل الهون المتبربرة قد استولت على المنطقة التى تشغلها حالياً هنغاريا ورومانيا وجنوب روسيا. وكما مر بنا من قبل، كان الهون يتألفون

Hoyt & Chodorow, op. Cit., p. 60; Boak, op. cit., p. 383.

(١)

Sinnigen & Boak, op. cit., p. 458.; Boak, op. cit., pp. 383.

(٢)

من شعوب جرمانية متفرقة، نجح أتتلا في توحيدها تحت زعامته القوية سنة ٤٤٤م، وبدأ يزحف بهم غرباً. ومما يجدر ذكره أن أتتلا ظل محافظاً على صداقته مع أنتيوس حتى ذلك الوقت، بيد أن أطماعه في أراضي الإمبراطورية، لاسيما بلاد الغال، قلبت الصداقة إلى عداوة. ويظهر ذلك بوضوح عندما طلب أتتلايد هونوريا Honoria أخت الإمبراطور فالنتينيان الثالث، واشترط أن تكون بائنتها نصف الإمبراطورية الغربية. وكان أمراً طبيعياً أن يرفض الإمبراطور التنازل عن شبر من ممتلكاته لذلك الزعيم المتبربر، فألقى بمطالبه عرض الحائط. وقد رد أتتلا على الإمبراطور بعبور نهر الراين، ثم قام بفرض الحصار العنيف على أورليانز. وأمام ذلك الخطر المشترك - خطر الهون الداهم - وقف الرومان وحلفائهم من الجرمان في إقليم الغال وقفة رجل واحد، كانت بداية النهاية للهون، ونقصد بذلك معركة شالون الفاصلة (٤٥١م) بين الهون بزعامه أتتلا وارتداده عبر الراين^(١) يجر أذيال الفشل ويلحق مرارة الهزيمة. غير أن فشل الحملة التي قام بها أتتلا في إقليم الغال لم يترتب عليها إضعاف معنوياته أو قواته العسكرية، بدليل أنه في العام التالي (٤٥٢م) زحف بقواته على إيطاليا، ولكن تفشى المجاعات والأوبئة بين قواته، فضلاً عن وصول قوات من الإمبراطورية عززت الموقف، كل ذلك جعل أتتلا، مع ما اتصف به من صلف وكبرياء ووحشية، يصغى للسفارة التي رأسها البابا ليو الأول، ويقبل الانسحاب من أمام أسوار روما. وشاء الموت أن يضع نهاية أتتلا سنة ٤٥٣م، الأمر الذي ألحق التففت والانهيار بالإمبراطورية الواسعة. ويروي المؤرخ جيبيون^(٢) أنه في الليلة التي مات فيها أتتلا، شاهد الإمبراطور الشرقي مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧) Marcian في حلمه قوس أتتلا محطماً، وقد تدل هذه الرواية على أن طيف ذلك الزعيم البربري الريب قلما كان يفارق ذهن الإمبراطور الروماني.

Boak, op. cit., pp. 383 - 384; Hadas, op. cit., p. 244.

(١)

(٢) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ج ٢ ص ٢٩١.

غير أن أنتيوس لم يعيش طويلاً بعد أن زال خطر الهون. وكان الأقدار قد أخرت موته طالما ظلت الأخطار تمسك بعنق الأمبراطورية؛ وبعبارة أخرى، يمكن القول أن سلطته المطلقة ظلت باقية بقاء الأخطار، فإذا ما زالت ضعف نفوذه، وانحسرت الأضواء من حوله. والحق أن نجم أنتيوس بدأ في الأفول بعد موت جالا بلاسيديا في ٢٧ نوفمبر سنة ٤٥٠م، وكانت قد صفحت عنه وأقرته في منصب القيادة، فتعاون معها مدة طويلة. وبموتها خرج الأمبراطور فالنتينيان الثالث من إसार الوصاية، وخلع عنه رداء الضعف والتبعية. ولكن تربيته التي أنشأتها أمه كانت غير صالحة، فيها الكثير من التدليل والنعومة، أثرت على سلوكه عندما شب عن الطوق، فامتلاً قلبه بالشر، ودأب على مرافقة السحرة والمنجمين، ومطاردة النسوة المتزوجات، ومطارحتهن الغرام، رغم أن زوجته كانت رائعة الجمال^(١). ولما كان يكره أنتيوس بدافع من الحقد الشخصي الممقوت، فقد ازداد حقهده عندما طلب أنتيوس يد يودكيا Eudocia ابنة الأمبراطور لابنه جودنتيوس Gaudentius، ولم يكن بوسع الأمبراطور آنذاك غير إبداء موافقته مرغماً، ولكنه في قرارة نفسه اعتبر ذلك الطلب مهانة لشخصه، وتأكيداً لما كان يساوره من شكوك حول أنتيوس، ولذلك بيت النية على التخلص منه، فاستدرجه إلى القصر الأمبراطوري في ٢١ سبتمبر سنة ٤٥٤م بحجة مناقشته في موضوع الزواج، ولم يكد القائد يدخل القصر، حتى بادره الأمبراطور على الفور بطعنه من سيفه، وكان أول سيف يستله في حياته، ثلثها طعنات من رجاله حتى أجهزوا عليه، وقبل أن يعرف أصدقاء أنتيوس المقربون حقيقة ما حدث، استدرجهم الأمبراطور واحداً بعد الآخر وقتلهم بنفس الطريقة^(٢). وهكذا انتهت حياة أنتيوس «آخر الرومان العظام»، كما انتهت من قبل حياة القائد الوندالي ستليكو على يد هونوريوس.

Hadas, op. cit., p. 238.

(١)

Boak, op. cit., p. 284; Universal, Vol. 4, Chronicle VIII, p. 2267.; Simons, The (٢) Birth of Europe., p. 40;

إبراهيم طرخان، نهاية الأمبراطورية الرومانية في الغرب، ص ٧٢.

والحقيقة أن مقتل أنتيوس كان خطأ فادحاً ارتكبه فالنتينيان الثالث، فما أداه من خدمات جليلة للأمبراطورية قوبلت - للأسف - بالجحود والكران. وقد علق مؤرخ معاصر على اختفاء أنتيوس من مسرح الأحداث الأوربية قائلاً: «بموت أنتيوس ضاع الأمل في إنقاذ الأمبراطورية وخلصها»^(١). ولكن أنصار أنتيوس لم ينسوا ما حدث لزعيمهم، فانتقموا لمقتله بطعن الأمبراطور طعنات قاتلة، أثناء مشاهدته بعض الألعاب العسكرية في العام التالي (١٦ مارس سنة ٤٥٥م)^(٢). وبمقتل فالنتينيان انتهى حكم آخر امبراطور من أسرة ثيودوسيوس الأول^(٣) في شرقي الأمبراطورية الرومانية وغربيها، ودخلت الأمبراطورية الغربية فترة من الفوضى والاضطراب، لعب فيها القادة العسكريون دوراً بارزاً، إذ صارت أقدار الأمبراطورية تحت رحمتهم، بيدهم تولية الأباطرة وعزلهم، بدليل أنه في خلال الواحد والعشرين عاماً التي أعقبت اغتيال فالنتينيان الثالث، اعتلى عرش الأمبراطورية الغربية تسع رجال، كان معظمهم ألوبة في أيدي أولئك القواد^(٤). أضف إلى هذا أن الشخصيات الرومانية الطموحة أخذت تحارب بعضها بعضاً أملاً في الوصول إلى العرش، وفي سبيل تحقيق ذلك الأمل لم تتورع عن الاستعانة بالجيش المرتزقة في إيطاليا، أو بالقبائل الجرمانية المقيمة في الأجزاء الأخرى من الغرب^(٥).

بعد مقتل فالنتينيان الثالث استطاع بيترونيوس ماكسيموس Petronius Maximus، وهو أحد أعضاء السناقو الطاعنين في السن، الوصول إلى عرش

Pirenne, op. cit., p. 30. (١)

Lot, The End of the Ancient World., p. 208. (٢)

(٣) بمقتل الأمبراطور فالنتينيان الثالث، انتهى حكم أسرة ثيودوسيوس الأول أو العظيم، وهي الأسرة التي حكمت الجزء الشرقي من الأمبراطورية بين سنتي ٣٧٨ و٤٥٣، أي من سنة ارتقاء ثيودوسيوس العرش حتى وفاة بولكيريا Pulcheria ابنة أركاديوس، كما حكمت نفس الأسرة الجزء الغربي بين سنتي ٣٩٤ و٤٥٥، أي من سنة اشتراك هونوريوس مع أبيه في الحكم حتى مقتل فالنتينيان الثالث.

Downey, The Late Roman Empire., p. 82; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 68. (٤)

Sellery & Krey, Medieval Foundations of Western Civilization., p. 26. (٥)

الأمبراطورية الغربية. ولم يلبث ماكسيموس أن أجبر ايوبوكسيا Eudoxia أرملة فالنتيان الثالث على الزواج منه. غير أنه لم يهنأ بالعرش الأمبراطوري سوى أربعة أشهر، إذ حضر جزريك الأعرج الوندالي بأساطيله وجموعه الضخمة قادماً من قرطاجنة إلى إيطاليا. ولما رسا علي مصب نهر التيبر فرماكسيموس من اللقاء، ولكن الجموع الغاضبة التي تركها تواجه مصيرها لحقت به، وفكتت به، ومثلت بجثته أشنع تمثيل، ثم أُلقت بها نهر التيبر. وتلا ذلك أن دخل جزريك مدينة روما دون مقاومة في ٢ يونيو سنة ٤٥٥م، واستمرت جماعته تقوم بعمليات النهب والسلب والتدمير قرابة أسبوعين، قاست المدينة خلالها أشد مما قاست على أيدي ألاريك القوطى سنة ٤١٠م. وقبل أن يترك ألاريك روما حطاماً، قام بنقل ما فى القصر الأمبراطوري من كنوز، وكل ما كان باقياً فى بيوت الأغنياء من الحلى والتحف الثمينة^(١).

وفى تلك الأثناء ظهرت شخصية القائد أثيتوس Avitus، وهو من أسرة عريقة نبيلة فى ولاية أوفيرن Auvergne بإقليم الغال. اشتهر بالمقدرة السياسية والبراعة الحربية، وظهرت براعته فى الحروب التى خاضها من أجل الأمبراطورية الغربية، لاسيما معركة شالون الشهيرة، فقد لعب دوراً هاماً فى الحصول على مساعدة حلفائه القوط الغربيين، ثم هو من ضباط القائد العظيم أثيتوس الذين رافقوه طيلة ثلاثين عاماً؛ ونظراً لكفائته ونجاحه فى المهام التى كلف بها، فقد ارتقى إلى وظيفة الحاكم البريتورى فى الغال، وهى وظيفة ذات اختصاصات قضائية، ثم أنعم عليه الأمبراطور ماكسيموس بتعيينه فى منصب القيادة العامة للقوات الرومانية فى بلاد الغال، وبذلك صار صاحب الكلمة النافذة فى شئون الأمبراطورية^(٢).

(١) Hadas, op. cit., p. 242; Bradley, The Goths, pp. 114 - 115; Lot & Dfister and Ganshof, Histoire du Moyen Age., p. 69.

(٢) Hadas, op. cit., p. 243; Lot & Dfister, op. cit., p. 78; Dill, Roman Society in the Last Century, p. 325.

فكر أفييتوس في أن يملأ العرش الأمبراطوري الشاغر دون إراقة دماء، ويبدو أنه قبل أن يقدم على ذلك طلب إعانة حلفائه القوط الغربيين، فأظهروا له استعدادهم لمساعدته، ويؤكد ذلك أنهم عقدوا مجلساً في مدينة آرل Arles (عاصمة الغال) حضره زعماء الغال والزومان وقادة الجيش الروماني، نادى بإعلان أفييتوس أمبراطوراً على الرومان في ٩ يوليو سنة ٤٥٥م، ووافق أفييتوس، وبذلك صار ذلك الأمبراطور صنيعة القوط الغربيين؛ ولم يلبث أن توجه أفييتوس إلى إيطاليا، فوصل روما في ٢١ سبتمبر من نفس العام؛ وحتى لا يبدو في صورة مغتصب للعرش، كان لابد له من الحصول على موافقة الأمبراطور الشرقي مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧)، فوافق الأخير على مضض بعد أن وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف أمام أقوى شخصية في الغرب الأوربي، يساندها القوط الغربيون آنذاك^(١). على أنه بعد انقضاء قرابة عام على أفييتوس في منصب الأمبراطور، حدثت مجاعة في روما بسبب انقطاع إمدادات القمح من أفريقية، أدت إلى حرج موقف أفييتوس، في الوقت الذي دبرت فيه مؤامرة ضده، قام بها ريكيمر Ric-emer أحد قادة الفرق البربرية والمسئول عن حماية إيطاليا، مع صديقه ماجوريان Majorian أحد النبلاء الرومان العسكريين، وسرعان ما ظهرت تلك المؤامرة في صورة عصيان، جعل أفييتوس يقرر أن يتوجه إلى إيطاليا للقضاء عليه، ولكن الموقف لم يكن في صالحه، إذ انفض الناس من حوله، في وقت كان صديقه ثيودوريك الثاني ملك القوط الغربيين متغيباً في أسبانيا على رأس جموعه، لتطهيرها من شعوب السويثي الجرمانية. وكان أن أكره ريكيمر الأمبراطور على التنازل عن العرش^(٢).

وعلى أي حال، فمنذ عام ٤٥٦م، وهو العام الذي عزل فيه أفييتوس، حتى عام ٤٧٢م، سيطر ريكيمر طوال تلك الفترة على مصير الأمبراطورية الغربية^(٣).

Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., pp. 78 - 79.

(١)

Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 79.

(٢)

Lot & Les Invasions Germaniques., p. 115; Taylor, op. cit., p. 83.

(٣)

وصار صاحب النفوذ الفعلى فيها يقيم العروش ويثلهما، يصنع الأباطرة ويخلعهم. وبمعنى آخر، أضحت الأمبراطورية فى قبضة القواد العسكريين؛ الذين يأتى ريكيمر فى مقدمة سلسلتهم. ومن ناحية المولد، فهو - أى ريكيمر - من أب ينحدر من بيت أمارة سويفى، وأمه ابنة واليا^(١) Wallia، الذى أسس مملكة القوط الغربيين فى تولوز سنة ٤١٨م. وفضلاً عن ذلك، له أخت قد تزوجت من جوندياك Gundiac ملك برجنديا، صار ابنها جندوباد بعد أن نفاه أخوه شلبريك الثانى، يده اليمنى، ثم خلفته فى روما. وجندوباد هذا هو الذى قدر له بعد ذلك الرجوع من منفاه إلى مملكة برجنديا، والإطاحة بأخيه. وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى ذلك، فإن الغرض من التكرار هذه المرة تبيان أن ريكيمر لم يكن مجرد مغامر بربرى، ولكنه من ناحية المنشأة ونبل المحتد، يضارع فى أصله أعظم النبلاء الرومان عراقية. ويكفى ريكيمر فخراً أنه ينتمى إلى النبالة الجرمانية التى كرست حياتها لخدمة الأمبراطورية، وهى فى ذلك تختلف عن الارستقراطية الرومانية - سواء فى الغال أو إيطاليا - التى لم يكن لها خبرة واسعة بغنون الحرب آنذاك، بعد أن سحرتها الثقافة الأدبية، فعاشت فى عالم الوهم، وغرقت فى لجة الضعف، تحاول إحياء ماض اندثر منذ زمن بعيد، بعكس الزعماء البرابرة، الذين كانوا يعيشون فى عالم الحقيقة القاسية، مؤمنين بأن المستقبل لهم، وهو عالم يناقض تماماً عالم الارستقراطية الرومانية. ومن المعروف أن ريكيمر كان محارباً عظيماً، له سجل حافل بالأمجاد الحربية، وأيسر ما يقال فى هذا الشأن أنه كان ينتمى إلى مدرسة أثتيوس، تلك المدرسة التى أنجبت العسكريين العظام، ممن كان لهم الفضل فى إحياء الأمجاد العسكرية من ناحية، ومحاولة إرجاع النفوذ الرومانى إلى ما كان عليه من ناحية أخرى^(٢). وقد تدرج ريكيمر فى المناصب، فحصل أولاً على لقب كونت، ثم القائد العام للقوات الرومانية، وأخيراً حصل على لقب البطريق Patriciate - عام ٤٥٧م - الذى

(١) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 79., Barker, "Italy and the West", p. 422.

(٢) Dill, Roman Society in Gaul., p. 18.

(٢)

يعطى صاحبه أسمى منزلة بعد الامبراطور؛ وفي الفترة التي ارتفع فيها شأن ريكيمر تقلد المنصب الامبراطوري خمسة من الأباطرة، اثنان منهم رفعهم إلى العرش، وأربعة منهم ثل عروشهم أو حكم عليهم بالموت^(١).

بعد أن عزل ريكيمر، صار المنصب الامبراطوري في الامبراطورية الغربية شاغراً، وكان بوسع ريكيمر أن يتقلده، ولكن أصله البربري حال دون تحقيق تلك الرغبة. وعلى أي حال، فقد مكن ريكيمر صانع الأباطرة في الغرب الأوربي صديقه القدير ماجوريان Majoran من ارتقاء عرش الامبراطورية الغربية، لاسيما بعد أن حاز ماجوريان إعجاب الرومان بانتصاره الساحق على قبائل الأليمانى. ومنذ اليوم الأول الذي تقلد فيه ماجوريان المنصب الامبراطوري لم يدخر وسعاً في إعادة الأمن والنظام إلى الولايات، كما أنه أحس بما تعانيه تلك الولايات من تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، فعول على تخفيف الأعباء عن كاهلها، ومن ثم أصدر عدة قوانين تساعد على ذلك^(٢). على أنه لم يوفق في مشروعه الحربى الضخم ضد الوندال، الذين حطموا أسطوله أمام قرطاجنة سنة ٤٦٠م، بفضل دهاء زعيمهم جزريك. ومما يؤسف له أن أعمال ذلك الامبراطور وجهوده من أجل رفعة الامبراطورية وسعادتها لم ترض أطماع ريكيمر صاحب السلطة الفعلية، كما أنها لم تستطع أن تنقذه من ثورة عارمة قام بها أتباع ريكيمر ضده قرب مدينة تورطونا Tortona عند سفح جبال الإلب، انتهت إلى إرغامه على التنازل عن العرش في ٧ أغسطس سنة ٤٦١م، وبعد خمسة أيام من تنازله أشيع موته بسبب مرض الدوسنتاريا؛ وقد اختلفت الآراء حول موته، والراجح أنه قتل غدرًا بإيعاز من ريكيمر الذى أخذته الغيرة من نشاطه^(٣). ويلمس المتتبع لأحداث الامبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي أن ماجوريان

Ibid., pp. 18 - 19.

(١)

Dill, Roman Society in the last Century, p. 340; Downey, op. cit., p. 83.

(٢)

Bréhier, The Life and Death of Byzantium., p. 12; Hadas, op. cit., p. 243; Bark-er, op. cit., pp. 423 - 424.;

(٣)

كان آخر أباطرة تلك الأمبراطورية حقيقة، ذلك أنه كان يحكم إيطاليا، وجزءاً عظيماً في إقليم الغال، وبعض أجزاء من أسبانيا، أما الأباطرة الذين تقلدوا عرشها خلال الخمسة عشر عاماً الباقية من عمرها، فقد كانوا في الواقع أشباحاً هزيلة ليس لها من الأمر شيء، بدليل أنها لم تمارس إلا نفوذاً صورياً في إيطاليا فقط^(١).

ولم يلبث ريكيمر صانع الأباطرة أن قلّد صنيعته ليببوس سيفيروس (٤٦١ - ٤٦٥م) Libius Severus المنصب الأمبراطوري. والواقع أننا لا نعرف عن ذلك الأمبراطور شيئاً إلا أنه كان أشد أباطرة تلك الفترة غموضاً وأقلها شأنًا، وليس أدل على ذلك من أن القسطنطينية لم تنشأ الاعتراف به امبراطوراً، كما أن الرومان في الغال لم يعترفوا به فحسب، بل اتجهوا بانظارهم نحو الأمبراطورية الشرقية؛ ومهما يكن من أمر، فقد توفى سيفيروس في عام ٤٦٥م، وظل ريكيمر يمارس نفوذه وسلطته في الأمبراطورية الغربية^(٢).

ولم تكن الأحوال التي أحاطت بالجزء الشرقي من الأمبراطورية تختلف كثيراً آنذاك عن أحوال الجزء الغربي منها. فبعد وفاة الأمبراطور مرقيان Mar- cian تولى عرش الأمبراطورية الشرقية ليو الأول (٤٥٧ - ٤٧٤) Leo I، وهو ضابط من أصل دaki، يرجع الفضل في تعيينه إلى أسبار Aspar الالاني الأصل، صاحب السلطة الفعلية في الأمبراطورية الشرقية، وينافس نفوذه نفوذ ريكيمر في الغرب. ومن الملاحظ أن قوة أسبار كانت تستند إلى القوط الشرقيين، الذين ازدادت أعدادهم في الشرق بعد زوال امبراطورية الهون، بالإضافة إلى أن الأمبراطورية اتفقت معهم على إمدادها بالرجال وقت الحاجة نظير مبلغ سنوي ضخم^(٣). وكان لأسبار آماله وأطماعه الخاصة في الأمبراطورية الشرقية، فقد

Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 83.

Dill, Roman Society in Gaul, p. 19; Roman Society in the Last Century, p. 340; (٢)

Downey, op. cit., p. 83.

Bradley, The Goths., p. 133.

(٣)

كان يأمل فى وصول ابنه باتريكيوس Patricius إلى العرش، ولذلك اتفق مع ليو الأول على ترقيته إلى منصب قيصر طبقاً للنظام الذى أوجده دقلديانوس، حتى يتمكن الابن من الوصول إلى العرش فيما بعد^(١). غير أن ليو لم يكن فى الواقع غافلاً عما يعتل فى ذهن أسبار، فقد عزم منذ اليوم الأول الذى ارتقى فيه العرش على الحد من نفوذ أسبار والقوط الشرقيين معاً، وشرع فى تحقيق رغبته مستعيناً بالآيسوريين المحاربين Isaurians وهم أصلاً أهل جبال مرتفعات آيسوريا بجنوب آسيا الصغرى، فى المنطقة الواقعة بين قيليقية وفريجيا، عرفوا بالمغامرة والميل إلى الحرب، وكانوا أشد مراساً من البرابرة أنفسهم؛ ومن زعمائهم الذين عملوا تحت طاعة ليو الأول بالقسطنطينية تراسيكوديسا Trara-sicodissa، الذى اتخذ لنفسه اسماً يونانياً هو زينون Zeno، إحياء للذكرى أحد مواطنيه الذى وصل إلى منصب هام فى الإمبراطورية من قبل، ولم يلبث أن عينه الإمبراطور قائداً عاماً للجيش فى الشرق -magister militum per Orientem- وزوجه من كبرى بناته أريادن Ariadne سنة ٤٦٦م.

وفى تلك الأثناء ظهر خطر البحرية الوندالية التى دأبت على تهديد تجارة ومواصلات الإمبراطورية فى مياه البحر المتوسط، وكان لظهور ذلك الخطر أثره فى تغيير سياسة ريكيمر تجاه الإمبراطورية الشرقية، بغية الحصول على مساعدتها ضد ذلك الخطر، وترتب على ذلك أن صار الشطر الشرقى من الإمبراطورية يهتم بما يجرى من أحداث فى الغرب، وبعبارة أخرى غدا الإمبراطور الشرقى يمارس نفوذاً اسمياً على الغرب، إذ ظل النفوذ الحقيقى فى أيدي ريكيمر. ولما كان العرش الإمبراطورى الغربى مازال شاغراً بعد وفاة سيفيروس سنة ٤٦٥م، فقد وقع اختيار ليو الأول فى عام ٤٦٧م على أنثيمىوس Anthemius لشغله، كما تقرر فى الوقت نفسه تجهيز حملة ضخمة ضد مملكة الوندال فى أفريقيا، وحتى يتأكد التعاون بين الإمبراطوريتين -الشرقية والغربية- جرى زواج ريكيمر من ابنة أنثيمىوس. على أن ما لقته الحملة من فشل ذريع،

Lot, The End of the Ancient World., p. 218.

علاوة على ما سببته من خسائر جسيمة فى الأرواح والأموال، أفلست خزانة
الامبراطورية الشرقية، أدى ذلك كله إلى إحباط سياسة الوفاق القائمة بين
شطرى الوادى من ناحية، وازدياد الكراهية للجرمان من ناحية أخرى. وفى وسط
تلك الظروف اتهم أسبار وابنه بالخيانة فى كارثة الأسطول الرومانى أمام
قرطاجنة، وانتهى الأمر إلى إعدامهما، والتخلص من جميع أفراد أسرتهما فى
عام ٤٧١م^(١).

وبينما كانت الأحداث تجرى فى الامبراطورية الشرقية على هذا النحو،
أخذت العلاقات بين ريكيمر وأنثيمىوس تسوء. ذلك أن أنثيمىوس ضاق ذرعاً
بالقيود التى فرضها ريكيمر، وعزم على التحرر من سطوته، فى الوقت الذى
أثارت حفيظة ريكيمر صلات التعاون والتقارب بين الامبراطور الشرقى وصنيعته
أنثيمىوس. ولم تلبث روح العداء أن ظهرت سافرة بين الشخصيتين، فجمع ريكيمر
أتباعه حوله، واتخذ من ميلان مركزاً لعملياته الحربية فى عام ٤٧١م، وهناك بعد
أن اطمأن إلى قوته وموقفه، أعلن رفضه الاعتراف بالامبراطور الشرقى وصنيعته
الامبراطور الغربى أنثيمىوس، وبادر بتعيين الارستقراطى أوليبريوس Olybrius
ليجلس على عرش الامبراطورية فى الغرب^(٢). وكان أوليبريوس يعيش فى
القسطنطينية، بيد أن الامبراطور الشرقى شك فى تصرفاته وإخلاصه، فعقد
العزم على التخلص منه، ومن ثم أرسله إلى روما فى ربيع سنة ٤٧٢م بحجة
تسوية الموقف بين أنثيمىوس وريكيمر، فى الوقت الذى كتب فيه رسالة مختومة إلى
أنثيمىوس يطلب منه قتله ولكن تلك الرسالة وقعت فى أيدي ريكيمر، فأخبر
أوليبريوس بأمرها، الأمر الذى جعل الاثنين يتفقان على العمل يداً واحدة ضد
الامبراطور الشرقى، وانطلاقاً من هذا المبدأ رفع أوليبريوس إلى عرش

Brooks (E.W.), The Emperor Zenon and the Isaurians., (London, 1893), pp. 212 (١)
- 216.; Bréhier, op. cit., p. 10.; Hodgkin, Italy and her Invaders., Vol. III., p. 36.;
Barker, op. cit., pp. 425 - 426.

Downey, op. cit., p. 83.;

(٢)

إبراهيم طرخان، نهاية الامبراطورية الرومانية، ص ٨٤.

الأمبراطورية الغربية^(١). وعلى أى حال، استطاع ريكيمر أن يدخل روما ظافراً، ويقضى على أنثمىوس؛ غير أن ريكيمر لم يلبث أن مات فى نهاية أغسطس سنة ٤٧٢م بسبب نزيف أصابه، وتبعه بشهرين فقط صنيعته أولييريوس الذى لم تزد مدة حكمه عن ثلاثة شهور.

بعد أن مات ريكيمر صانع الأباطرة خلفه ابن أخته الأمير البرجندى جندوباد، الذى رفع جليكريوس Glycerius إلى عرش الأمبراطورية الغربية فى رافنا، ولكن القسطنطينية لم تعترف به امبراطوراً، لأنه لم يكن متعاطفاً مع سياستها، واختارت بدلاً منه يوليوس نيبوس (٤٧٣ - ٤٧٥م) Julius Nepos حاكم دلماشيا ليرتقى عرش الغرب. وفعلاً أبحر إلى إيطاليا فى ربيع عام ٤٧٤م، واستطاع إزاحة جليكريوس دون صعوبة، غير أن أورستيز البانونى Orestes قائد الجيش الجديد لم يلبث أن قام بثورة ضد نيبوس أطاحت به، وأرغمه على الهرب فى ٢٨ أغسطس سنة ٤٧٥م، والعودة إلى ولايته دلماشيا^(٢). ولسنا هنا فى مجال الإفاضة فى أحداث تلك الفترة المظلمة من تاريخ الأمبراطورية الغربية، فكل ما يهمنا من أمرها شخصية أورستيز. الواقع أنه كان رومانياً، لم تجر فى عروقه الدماء الجرمانية، دخل فى خدمة الزعيم الهونى أتिला عندما كان صغيراً، حتى صار سكرتيه، وفى عام ٤٨٨ أرسله أتिला على رأس سفارة إلى الأمبراطور الشرقى ثيودوسيوس الثانى، ثم عاد إلى إيطاليا، واستطاع بفضل شجاعته ومهارته التدرج فى مناصب الجيش، حتى وصل إلى منصب القائد العام للجيش الرومانى، وبذلك صار صاحب السلطة الفعلية فى الأمبراطورية الغربية. وكان بإمكان أورستيز أن يصل إلى عرش الغرب، بعد أن فر نيبوس إلى دلماشيا، ولكنه أثر أن يبتعد عن ذلك المنصب، كى يتجنب ما يجره عليه من متاعب. وفضل أن يهدى التاج الأمبراطورى لابنه رومولوس أوغسطولوس Romulus Augustulus فى ٢٩ أكتوبر سنة ٤٧٥م، وهو صبى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره آنذاك،

Hadas, op. cit., p. 243.; Barker, op. cit., pp. 428 - 429.

(١)

Lot, Les Invasions Germaniques., p. 116; Bradley, The Goths, p. 126.

(٢)

لا يمتلك من المواهب سوى جمال الطلعة^(١)، وإن ظل أورستيز فى حقيقة الأمر هو الحاكم الفعلى، والمهيمن على مقاليد الامبراطورية من وراء ستار.

والواقع أن الامبراطورية الغربية لم تعد لديها القدرة آنذاك على الاحتفاظ بكيانها وسط العواصف الشديدة التى هبت عليها من كل جانب. ففى عام ٤٧٦م أخذت جموع الجرمان والبرابرة تتدفق على إيطاليا من الشمال الشرقى بحثاً عن الحظ والمغامرة، وامتألت صفوف الجيش بالمعاهدين منهم، مثل قبائل الهيرولى، والقوط، والروچيين Rugii، والآلان، والأسكيريين، والتورسيلنج Turcilingi وغيرهم^(٢). غير أن أولئك المعاهدين سرعان ما استنفحل خطرهم فى إيطاليا، وصاروا مصدراً للفوضى والقتال، ودفعهم الجشع إلى التمرد وطلب المزيد، فتمطلعوا إلى البحث عن مواطن يلتمسون منها سبل العيش والإقامة، أسوة بما فعلته القبائل الجرمانية الأخرى التى أقامت كيانها السياسى فى صورة ممالك متمتعة بالاستقلال^(٣). وبدأت المتاعب تاتى من قبل أولئك الجرمان عندما طالب زعمائهم فى الجيش برفع رواتبهم وزيادة مخصصاتهم، ولما كانت خزانة الدولة خاوية، رأوا أن يطلبوا والحالة هذه تلك أراضى إيطاليا من أورستيز. وهنا وقف أورستيز موقفاً يدعو إلى الإعجاب، ذلك أنه لم ينس أصله الرومانى فى ذلك الوقت العصيب، ورأى أن واجبه يقتضى الحفاظ على حياة السكان الأمنين من الرومان، والعمل على إبعاد شبح الجوع والفناء عن إيطاليا، ولهذا قابل مطالب زعماء الفرق الجرمانية بالرفض^(٤). وفى أثناء ذلك استغل أوداكر الأسكىرى Odoaker الموقف، ودعا زملاءه زعماء الفرق الجرمانية للانضواء تحت لوائه، كي يحقق لهم ما يصبون إليه من آمال. وكان أن التفوا حوله، وبادروا بإعلانه ملكاً عليهم فى ٢٣ أغسطس سنة ٤٧٦م. ولم يهدأ له بال إلا بقتل أورستيز فى إحدى

Lot, op. cit., p. 116.; Bradley, op. cit., pp. 126 - 127.; Barker, op. cit., pp. (١) 429 - 430.

Taylor, op. cit., pp. 113 - 114.; Barker, op. cit., p. 430. (٢)

Pirenne, op. cit., p. 30; Hadas, op. cit., p. 117.; Barker, op. cit., p. 430. (٣)

Bradley, The Goths., pp. 127 - 128. (٤)

الفتن التي شبت في روما في ٢٨ أغسطس من نفس العام. أما الأمبراطور الصغير رومولوس أوغسطس، فقد عفا عنه أودواكر، ثم قام بعزله، وسمح له بالإقامة في قصر في كمبانيا، وقرر له معاشاً سنوياً طيلة حياته^(١). ومن المصادفات العجيبة أن مؤسس روما العظيمة كان اسمه رومولوس، الذي اتفق في الاسم فقط مع آخر امبراطور جلس على عرش الأمبراطورية الغربية.

والجدير بالذكر أن أودواكر لم يستبح لنفسه اغتصاب لقب الأمبراطور بعد أن عزل آخر أباطرتها، لأن ذلك الأمر كان فوق طاقة زعيم متبربر، ليس له الحق في حمل ذلك اللقب^(٢)، لاسيما بعد أن فقد اللقب جاذبيته وبريقه منذ حوالي سبعين عاماً^(٣). ولذلك اكتفى ببعث شارات الأمبراطورية إلى زينون (٤٧٤ - ٤٩١) الأمبراطور الشرقي المعاصر، رمزاً لولائه، وحثاً له على الاعتراف به حاكماً نيابة عنه في إيطاليا، واكتفى بأن أطلق على نفسه ملك الجرمان في إيطاليا^(٤).

وهكذا جنحت شمس الأمبراطورية الرومانية في الغرب إلى المغيب، وولى مجدها، وضاعت عظمتها، وقدر لروما ذات الماضي العريق أن تشهد انحسار الأضواء عن تلك الأمبراطورية، وأسدل الستار عليها، بعد سبعة قرون من تاريخها الجمهوري، وخمسة قرون من تاريخها الأمبراطوري، وبعد أن عاصرت على مدار السنين أباطرة، منهم من كان شجاعاً قوياً حافظ على مجدها وعظمتها، ومنهم من كان ظلاً باهتاً، لم يكن اسمه إلا نقشاً على الرمال أذرتة الرياح.

وعلى أي حال، إذا حاولنا أن نلقى نظرة على خريطة أوروبا السياسية عام ٤٧٦م من البحر الأدرياتي شرقاً إلى خليج بسكاي غرباً، ومن مصب نهر الراين

Bradley, The Goths., pp. 128 - 129.; Lot, op. cit., pp. 117 - 118; Taylor, op. cit., (١) p. 114.

Cantor, Medieval Hist., p. 120. (٢)

Deanesley, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 8. (٣)

Hadas, op. cit., pp. 244 - 245. (٤)

شمالاً إلى طرابلس جنوباً، لشاهدنا خليطاً من الممالك التي تأسست في المناطق الآتية :

١ - دولة القوط الغربيين الذين سيطروا على أسبانيا وجنوب الغال، وبذلك امتدت مملكتهم من اللوار حتى جبل طارق، وعاصمتهم تولوز.

٢ - مملكة الوندال في أفريقية وجزر البحر المتوسط الغربية، وعاصمتها قرطاجنة.

٣ - مملكة الفرنجة في شمال الغال، حول وديان الموز والموزل والراين الأعلى.

٤ - مملكة البرجنديين في وديان الرون والساون حتى أقاصى أعماليهما، وعاصمتها ليون.

٥ - مملكة أوداكر في إيطاليا.

٦ - مملكة السويقي في البرتغال وشمال أسبانيا^(١).

٧ - مملكة الروجيين في الأقاليم الواقعة الآن في بافاريا والنمسا، وقد ظلت قائمة حتى قضى أوداكر عليها (٤٨٧ - ٤٨٨ م)^(٢).

أما المناطق التي ظلت في أيدي النفوذ الروماني من الناحية الاسمية، فكانت :

١ - مملكة سيلاجروس التي استقل بها القائد الروماني في شمال الغال وعاصمتها سواسون، وقد ظل نفوذه قائماً حتى استطاع كلوفيس ملك الفرنجة سنة ٤٨٦ م القضاء عليها.

٢ - بريتانى : باستيلاء السكسون على الجنوب الشرقي من الجزيرة البريطانية، هاجر الكلتيون أهل الأقاليم الجنوبية من تلك الجزيرة، فراراً من السكسون

Pirenne, op. cit., p. 31; Deanesly, op. cit., p. 2.

(١)

(٢) على الغمراوي، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٤٢ - ٤٣.

إلى جهات أرموريكا بأقصى الشمال الغربى من فرنسا الحالية، التى أطلق عليها منذئذ بريتانى تحريفاً من اسم بريطانيا القديم^(١).

٣ - ولاية بريطانيا : لم تتخل عنها روما رسمياً، ولكنها تركت البريطانيين وشأنهم للدفاع عن أنفسهم، بما استطاعوا من وسائل المقاومة ضد الإنجليز والسكسون، خاصة بعد أن سحبت الفرق الرومانية من الجزيرة البريطانية للذود عن كيان الأمبراطورية نفسها^(٢).

٤ - ولاية دلماشيا المطلة على البحر الأدرياتي.

(١) فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، القسم الأول، ص ٣١.

(٢) رواس، التاريخ الإنجليزي، ص ١٧ - ١٩؛ نظير سعداوى : تاريخ إنجلترا، ص ٣١ - ٣٢.

بعض الآراء حول سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى

من الثابت أن حدود الأمبراطورية الرومانية قد تعرضت لغزوات الجرمان منذ عهد ماريوس (ت ٨٦ ق.م)، واشتدت تلك الغزوات فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين، متخذة طابعاً عنيفاً، فما من ولاية إلا واجهت الخراب، حتى إيطاليا نفسها؛ ولكن تلك الغزوات رغم عنفها وضخامة أعداد الغزاة التى قاموا بها، كانت الجيوش الرومانية قادرة على مواجهتها فى حينها، ونقل المعارك إلى أراضى الجرمان فيما وراء الحدود أحياناً. أضف إلى هذا أن ما خلفته تلك الغزوات من تدمير وخراب فى مناطق عديدة من الأمبراطورية، لم يؤثر على مسيرتها، إذ سرعان ما كانت تقف على قدميها، مواصلة حياتها المألوفة^(١). غير أن تلك الغزوات ابتداء من القرن الخامس الميلادى أخذت شكلاً جديداً اختلف فى طابعه عن غزوات القرنين الثالث والرابع، فقد قامت بها جموع ضخمة من الجرمان والبرابرة مثل الفرنجة والأليمانى والسكسون والقوط وغيرهم. وقد أدت تلك الغزوات إلى تدمير ولايات ومدن طالما نعمت بالاستقرار والحضارة فى ظل السلام الرومانى، الأمر الذى يجعل المرء يتساءل : هل أتت النهاية الأليمة حقاً؟ نهاية الأمجاد الحافلة ومختلف الجوانب الحضارية التى أعطتها الأمبراطورية للعالم.

ورغم أن الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى قد سقطت أواخر القرن الخامس الميلادى، ولم يعد لوجودها السياسى القديم بقاء، إلا أن فكرة تلك الأمبراطورية ظلت راسخة فى الأذهان طوال العصور الوسطى. وليس أدل على ذلك من أن الأباطرة الشرقيين اعتبروا أنفسهم امتداداً للباطرة الرومان السابقين، وما حدث فى رأيهم سنة ٤٧٦م أنه لم يعد ثمة سوى امبراطور واحد للأمبراطورية يحكم فى الجزء الشرقى منها. هذا ولم تعدم الأمبراطورية الغربية

بعد زوالها بعض الأباطرة العظام، الذين وضعوا نصب أعينهم ضرورة إحيائها، فحاولوا، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. ومن أولئك الأباطرة جستنيان فى القرن السادس الميلادى، الذى بذل قصارى جهده بغية إعادة الأبراطورية إلى سابق العهد بها، قوية موحدة، ولكن الظروف كانت أقوى منه. كذلك عندما منح شارلمان اللقب الأبراطورى فى ليلة عيد الميلاد سنة ٨٠٠م فى كنيسة القديس بطرس فى روما، لم تستطع أمبراطوريته أن تلعب نفس الدور الذى لعبته الأبراطورية الرومانية القديمة، فهى فضلاً عن سيطرتها على الكنيسة الغربية، لم يتعهد نفوذها إقليم الغال، وأصابها التفكك عقب وفاته سنة ٨١٤م. ومرة أخرى ظهرت فكرة إحياء الأبراطورية مرة أخرى فى ألمانيا، على يد أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣) حفيد شارلمان، غير أن تلك الأبراطورية التى عرفت باسم الأبراطورية الرومانية المقدسة، لم تستطع بسط سيادتها إلا على ألمانيا وإيطاليا فحسب. وهكذا ظلت فكرة الأبراطورية ماثلة فى أذهان الأوربيين طوال فترة العصور الوسطى، رغم فشل المحاولات التى قامت من أجل إحيائها.

ويعترضنا فى هذا المقام سؤال : ما الأسباب التى أدت إلى تدهور وزوال الأبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربي؟ من الواضح أن الفترة الواقعة بين وفاة الأمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م وأواخر القرن الخامس الميلادى، شاهدت الأبراطورية خلالها انحطاطاً فى جميع أوجه النشاط السياسى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى. ورغم أن مظاهر الضعف والذبول قد تغلغت فى الجزء الغربى من الأبراطورية بصورة أشد من الجزء الشرقى، إلا أن الانحطاط - فى الواقع - لم يقتصر على تلك الأبراطورية، بل شمل فى طياته حضارة العالم القديم كلها، الأمر الذى أدى إلى انتقالنا إلى عصر جديد نرى سمات جديدة، عرف بالعصر الوسيط^(١).

وموضوع انتقال العالم من العصور القديمة إلى العصور الوسطى ظل - كما هو معروف - مثار جدل وبحث طويل بين المؤرخين. ويرى مؤرخو القرن

Lyon & Herbert and Hamerow, A Hist. of the Western World., Vol. I., p. 96. (١)

التاسع عشر أن نهاية العالم القديم ترجع إلى الكوارث الفادحة التي توالى علي
الامبراطورية الغربية خلال القرنين الرابع والخامس، وفي اعتقادهم أيضاً أن
تأسيس الممالك الجرمانية في الغرب الأوربي، نقل العالم الأوربي إلى فترة طويلة
مظلمة تعرف بالعصور الوسطى، والحقيقة أن أولئك المؤرخين قد استمدوا وجهة
نظرهم هذه من باحثي عصر النهضة، التي افتتن بها مؤرخو القرن الثامن عشر
بدورهم، خاصة فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) وجيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤). أما
مؤرخو القرن العشرين، ففي رأيهم أن الغزوات الجرمانية التي اجتاحت الغرب
الأوربي ليست وحدها المسؤولة عن نهاية العالم القديم، فالجرمان لم يكن
باستطاعتهم غزو الامبراطورية الغربية، ما لم يكن هناك فساد داخلي ساهم في
إضعافها، قبل أن تحل غزوات الجرمان^(١). وعلى أية حال، سنعرض لبعض الآراء
التي تناوأت تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي.

يرى المؤرخ الانجليزي إدوارد جيبون Edward Gibbon في كتابه
«اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية» أن تدهور روما واضمحلالها كان
نتيجة طبيعية وحتمية، فالرفاهية التي عاش الرومان في ظلها أثمرت مبدأ
الاضمحلال، ولقد تضاعفت عوامل الدمار بامتداد الغزو وتوسع الامبراطورية،
حتى إذا أزاح الزمن ما كان هناك من دعائم واهية مصطنعة قامت عليها
الامبراطورية، انهار الكيان الضخم تحت وطأة ثقله هو نفسه، ويرى جيبون أيضاً
أن الديانة المسيحية كانت من أهم سقوط الامبراطورية الرومانية، لأنها - على
حد قوله - قد قضت على العبادات القديمة التي كانت الدعامة الخلقية للرومان،
كما أنها ناصبت الثقافة القديمة العداء، فحاربت العلم والفلسفة والأدب والفن،
وأنت بالتصوف الشرقي الواهن بدلاً من الفلسفة الرواقية التي كانت متغلغلة
بواقعيتها في الحياة الرومانية، وحولت أفكار الرومان عن واجباتهم، وأغرقتهم
بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة، وشجعت أتباعها على

Ibid.,

(١)

(٢) ج ٢، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

الامتناع عن أداء الخدمة العسكرية، وبهذا كله كان انتصار المسيحية إيذاناً بالقضاء على روما. والواقع أن ذلك رأى قد وصمه الكثير من المؤرخين بالضعف نذكر منهم بينز الذى انبرى قائلاً: «يرجع ذلك الاتهام الموجه للديانة المسيحية إلى أيام القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م)، لاسيما بعد أن سقطت روما فى أيدي الأريك ملك القوط الغربيين سنة ٤١٠م، فقد دب خلاف واسع النطاق بين المفكرين الوثنيين والمسيحيين آنذاك حول تدهور روما، وبمعنى آخر تبادل الفريقان الاتهام، اتهم الوثنيون المسيحية بأنها السبب فى زوال مجد الأمبراطورية الرومانية، واتهم المسيحيون الوثنية بأنها أشاعت الانحلال والفساد والشور فى المجتمع الرومانى، ونتيجة لذلك صب الله جام غضبه على مخالفى الكنيسة ومضطهديها. ومن الواضح أن ذلك الاتهام قد ثبت عقمه وفساده، ومرد ذلك أن الكنيسة المسيحية أعطت الأباطرة الوازع الدينى، ومدت يدها إلى المحرومين خلال المجاعات والغزوات البربرية التى هددت الشعب الرومانى بالموت، وكان أثر المسيحية فى أخلاق الرومان أثراً طيباً، ففى الوقت الذى كانت فيه شمس الأمبراطورية الرومانية تميل إلى الغروب، كانت الكنيسة تبنى تنظيمًا، قدر له أن يواصل رسالته بعد زوال تلك الأمبراطورية، حتى تبوأ ذلك التنظيم مكانة السيادة فى روما، وصار القوة الوحيدة فى أوربا»^(١). ولا يسقل رد المؤرخ كولتون^(٢) إقناعاً عن ردينز، فقد ذكر قائلاً: «كانت المسيحية كسباً حقيقياً للأمبراطورية الرومانية، فالمجتمع الرومانى كان قد وصل إلى مرحلة تفشى فيها الانحلال والمساوىء، فى الوقت الذى تدهورت فيه الأصالة فى الآداب والعلوم والفنون، وعهد بأمر الدفاع عن الأمبراطورية إلى الجرمان والمتبربرين، وكانت الطبقة الوسطى، عصب الحياة فى المجتمع الرومانى، تسام الاضطهاد والقسوة عن طريق نظام ضرائبى مرهق، وفى وسط مظاهر ذلك الانحلال ظهر الدين الجديد الذى قاد الناس إلى قيم جديدة، وأخلاق سامية تخالف ما كان مألوفاً من قبل».

Baynes, Decay of the Western Power and its causes., p. 2233.

(١)

(٢) عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ص ٤٦ - ٤٧.

وهناك المؤرخ ج. ليبيج J. Liebig وأتباعه الذين أرجعوا تدهور الأمبراطورية إلى أسباب اقتصادية، ففي رأيهم أن الأرض الزراعية أصابها الضعف والانهاك يوماً أثار يوم، واستنفذت قدرتها على الإنتاج، ولم يعد الفلاح يستطيع الاعتماد عليها في كسب معاشه، وقد رفض رستوفتزف ذلك الرأي، وذكر أنه قد يصدق على بعض أجزاء اليونان وإيطاليا، فالسبب الأساسي في جذب التربة في بعض جهات إيطاليا يرجع إلى قطع الغابات وإهمال صرف المياه، والقول بانهاك التربة في إيطاليا في القرنين الثاني والثالث تعميم غير مقبول^(١). ويضيف بينز ذاكرة أن هذا الرأي لا ينطبق على جميع ولايات الأمبراطورية، فكل قرى مصر قد أصابها الخراب والوبار رغم خصوبة أراضيها الزراعية ووفرة وسائل الري بها، على حين أن الزراعة في إقليم الغال قد ازدهرت خلال القرنين الرابع والخامس، بفضل العناية الدائبة التي أبداها أصحاب الملكيات الزراعية من الطبقة الأرستقراطية^(٢).

أما المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي^(٣) Arnold Toynbee فقد اعتقد في كتابه «مختصر دراسة التاريخ» أن الأمبراطورية الرومانية قد سبقها عصر اضطرابات يعود امتداده إلى الورا، إلى حرب هانيبال (٢١٨ - ٢٠٢ ق.م) على الأقل، وهو عصر أخفقت فيه الحضارة الإغريقية وتوقف المجتمع الهليني خلاله عن الابتداء، وبدأ تدهوره الفعلي أمراً واضحاً، وإن كان قد أمكن وقفه حقيقة من الزمن بفضل قيام الأمبراطورية الرومانية. ولكن تلك الامبراطورية - كما يستطرد توينبي - سقطت لأنها عجزت عن منافسة الكنيسة، لأن الكنيسة تولت الزعامة، وكسبت ولاء الناس لها، بينما فشلت الأمبراطورية في الفوز بهذا أو ذاك.

(١) Rostovizeff, Social and Economic Hist. of the Roman Empire., Vol. I., pp. 374 - 377.

والترجمة العربية : رستوفتزف، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ج ١، ص ٤٤٤ - ٤٤٥.

Baynes, op. cit., pp. 2232 - 2233.

(٢)

(٣) مختصر دراسة التاريخ، ج ١، ص ١٨ - ٢٥.

ويرى المؤرخ الروسى ميخائيل رستوفتزف^(١) M. Rostovtzeff فى كتابه «تاريخ الأمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى» أن لإنحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها وجهين : أولهما سياسى واجتماعى واقتصادى، وثانيهما ثقافى. فمن الناحية السياسية اصطبغت تلك الأمبراطورية من الداخل - بالتدريج - بصبغة همجية، وخاصة فى الغرب، وقد وصل الجرمان فى القرنين الثالث والرابع إلى مناصب عالية فى الحكومة والجيش، إما عن طريق التغلغل السلمى، أو عن طريق الغزو. ومن وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية يرى رستوفتزف أن العالم القديم قد عاد تدريجياً إلى أشكال بدائية من الحياة الاقتصادية، فالمدن التى كانت مزدهرة وساهمت فى نمو تلك الحياة، انحطت تدريجياً، واختفى أكثرها من على وجه الأرض اختفاء يكاد يكون تاماً. وقد سار النظام الاجتماعى فى الأمبراطورية فى نفس الطريق المؤدى إلى الانحلال. أما الظاهرة الأساسية من وجهة النظر الثقافية، فهى انحلال حضارة المدن فى العالم اليونانى الرومانى. فالمدن اليونانية شهدت انتصارات عظيمة فى ميادين العلم والأدب والفن، بدأ الانحلال يدب فيها منذ القرن الثانى قبل الميلاد. ثم أعقبت ذلك الانحلال نهضة مؤقتة تحققت فى مدن الأمبراطورية الرومانية، ولكن تلك النهضة توقفت وقوفاً يكاد يكون تاماً فى القرن الثانى بعد الميلاد، وبعد فترة من الركود، دب مرة أخرى انحلال سريع مطرد، ولم تعد تلك المدن تصبغ بصبغة رومانية، فالطبقات الدنيا من السكان أخذت تطفئ على سكان المدن أو الطبقات العليا، وهناك وجه آخر لتلك الظاهرة، هو الاختلاف الفكرى بين عقلية الطبقات السفلى والطبقات العليا، والذي حدث أن الطبقات السفلى أعرضت عن الثقافة الأصيلة ووقفت منها موقفاً عدائياً، واستطاعت فى النهاية أن تقضى على مكانتها. ويخرج رستوفتزف من هذا كله إلى أن الطابع البارز فى انهيار الحضارة الرومانية، هو احتواء الطبقات السفلى للطبقات العليا فى جميع المجالات السياسية والاجتماعية

Rostovtzeff, op. cit., Vol. I., pp. 532 - 533.;

(١)

والترجمة العربية : رستوفتزف، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٣٨ - ٦٤١.

والاقتصادية والثقافية والدينية في القرن الثالث الميلادي، وأن تسدد ضربة قاتلة للحضارة الرومانية في المدن، وفي النهاية طغى طوفان من العناصر البربرية الآتية من الخارج، عن طريق التغلغل السلمي أو الغزو، فانغرق تلك الحضارة، ولم تستطع تلك الحضارة وهي تغالب سكرات الموت أن تستقطب ولو جانباً صغيراً من هذه العناصر.

أما المؤرخ نورمان بينز^(١) Norman H. Baynes، فقد درس مختلف النظريات التي جاءت بها شتى المدارس التاريخية، حول انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي، في مقالته «اضمحلال النفوذ الغربي وأسبابه»، وبعد أن قام بالرد عليها، اختتم مقالته في هذا الموضوع موضحاً رأيه الخاص بقوله : «لقد اعتمد الأباطرة على الجنود الجرمان في الدفاع عن الامبراطورية، وهو إجراء محكوم عليه بالفشل، ذلك أن الامبراطورية من أجل الحفاظ على مصالحها حرصت على خدمات حلفائها من الجرمان، الأمر الذي استلزم دفع مبالغ طائلة لهم، في وقت كانت تعاني فيه خزانة الدولة الإفلاس الشديد، حتى أنها لم تستطع توفير الموارد الكافية للحفاظ على الأسطول والجيش. إذاً هناك حقيقة أساسية تكمن في أن حكومة الغرب الأوربي لم تستطع أن تفعل أكثر مما فعلت في أيامها الأخيرة، لأنه لم يكن لديها ما تواجه به متاعبها. ولذلك خرجت بريطانيا من أيدي الامبراطورية، ووقعت أغنى أراضى فرنسا في أيدي القوط، وسقطت أفريقية فريسة في أيدي الوندال، الأمر الذي ترتب عليه أن فقدت روما سيادتها على البحر المتوسط. لقد تغلغل الجرمان في أراضى الامبراطورية، وحاربوا إلى جانبها، في الوقت الذي كانت فيه أشد الحاجة لمواجهتهم. وهنا نلاحظ أن الارستقراطية الرومانية، رغم أنها كانت على درجة عظيمة من الثراء، لم تساهم في المحافظة على كيان الامبراطورية، بإنقاذها من وهدة الإفلاس التي تردت فيها».

ويرى المؤرخ الفرنسي فرديناند لوت^(١) Ferdinand Lot فى كتابه «نهاية العالم القديم وبداية العصور الوسطى»، أن الجرمان لم يحطموا الامبراطورية الرومانية فى الغرب، ولكنها ماتت بسبب ما كانت تعانيه من أمراض فى داخلها، وقد حاولت الامبراطورية خلال القرنين الأخيرين من حياتها أن تقاوم متاعبها الاقتصادية والاجتماعية والعنصرية التى كانت السبب فى انحلالها، ولكن محاولتها باءت بالفشل، بسبب ما تبنته من سياسة تقليدية جامدة (محافظة) غير مرنة، ولم يكن باستطاعة الامبراطورية أن تهرب من قدرها المحتوم، فالوقت الذى ينبغى فيه أن تزول قد جاء، والمشاهد أن مقاومة الامبراطورية من أجل البقاء أخذت تنهار سريعاً منذ نهاية القرن الرابع، حتى إذا أقبل القرن الخامس لم تعد لها القدرة على إنقاذ نفسها من الانهيار، وانقلت آخر رفق من القوة من بين يديها الواهنتين.

ويرى المؤرخ كاتز^(٢) Katz فى كتابه «أفول روما ونشأة أوروبا العصور الوسطى» أن انهيار روما لم يأت فجأة أو نتيجة كارثة عنيفة حادة، وإنما أتى تدريجياً خلال أزمنة امتدت قروناً عديدة، وأشار كاتز إلى أن الباحثين تناولوا مشكلة اضمحلال النفوذ الرومانى فى الغرب الأوروبى، ووضعوا لها حلولاً تجنح إلى المبالغة، فأحياناً يقع اختيارهم على أحد عوامل ذلك الاضمحلال، ويجرى تركيز الضوء عليه باعتباره السبب الوحيد، مع التقليل من شأن العوامل المشتركة الأخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر غزوات البرابرة أو إجهاد التربة الزراعية. وفى رأيه أن سبب الاضمحلال لا يرجع إلى عامل واحد، بل إلى عدة عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية متفاعلة ومتداخلة، وفى اعتقاده أيضاً أنه من المستحيل - من الناحية العملية - أن نعطى أولوية لأى عامل من عوامل الانهيار، طالما أن كل عامل يتفاعل مع الآخر، أو يكون سبباً له.

The End of the Ancient World., p. 236.

The Decline of Rome., pp. 72 - 74.

(١)

(٢)

ويذكر المؤرخ الفرنسي أندريه بيجانيول^(١) André Peganiol فى كتابه «الأمبراطورية المسيحية» أن روما قد أقدمت على اتخاذ خطوة جريئة فى القرن الرابع الميلادى، عندما عهدت بمهمة الدفاع عن حدودها إلى قبائل بربرية سبق أن احتضنتها وتحالفت معها. فسمحت للفرنجة بالإقامة فى توكساندريا (شمال بلجيكا الحالية) نظير الدفاع عن الراين، وعهدت بحراسة جبهة الدانوب لجماعات الوندال والقوط الشرقيين الذين أقاموا فى بانونيا، والقوط الغربيين الذين استقروا فى مؤيسيا. وعلاوة على ذلك، أدخلت روما العديد من الجرمان فى الجيش الرومانى، وجعلت أحسن الفرق العسكرية مؤلفة منهم، فى الوقت الذى شغل فيه ضباط برابرة أعلى المناصب فى الجيش، فوصل البعض منهم إلى رتبة قائد القوات الرومانية. وقد دفع ذلك كله المؤلف الكلاسيكى سنيسيوس (حوالى ٢٧٠ - ٤١٣) Synesius إلى توجيه اللوم إلى الأمبراطور أركاديوس قائلاً: «لقد أصبحنا تحت حماية جيوش مؤلفة من رجال، يرجعون فى أصولهم إلى نفس سلالة عبيدنا». ثم أشار عليه أن حل تلك القضية سوف لا يتحقق إلا بالأخذ بنظام الخدمة العسكرية الاجبارية (التجنيد الجبرى). ولما رفضت روما صيغ جيشها بصيغة رومانية تامة، أدى ذلك فى النهاية إلى هلاكها. وقد استبعد بيجانيول فكرة انهيار الأمبراطورية فى القرن الرابع، ورغم أن غزوات البرابرة قد نهبت روما وشوهت صورها فى القرن الثالث، إلا أنها كانت تنهض من جديد، واستطاعت فى نفس الوقت أن تحدث عملية تحول داخلى على حساب الأزمة الخطيرة، وأخذت تتكون رؤية جديدة للسلطة الأمبراطورية، اعتنقتها بيزنطة فيما بعد. وليس صحيحاً أن كل الآلام التى قاستها الأمبراطورية، مثل الضرائب المهرقة، وامتزاز الثروات، وتحلل الطبقات الاجتماعية، كانت بسبب عملية التحول، وإنما كانت نتيجة الحروب المتواصلة التى أشعلتها جماعات البرابرة عند حدود الأمبراطورية. وقد استنكر بيجانيول الادعاء القائل أن «كل شىء كان ميتاً» عند

L'Empire Chrétien., 325 - 393., pp. 421 - 422.

(١)

وصول البرابرة إلى الأمبراطورية، واستبعد أيضاً أنها تلقت ضربة قاصمة من الجرمان أتت عليها. فالواقع أنها كانت جسداً مرهقاً، مثخناً بالجراح، غلبها «نعاس طويل» لم يقض عليها قضاء تاماً، وإنما تم اغتيالها غدرًا على أيدي أعدائها الجرمان.

ويطلعنا المؤرخ ليسنر^(١) Laistner في كتابه «فكر وأداب الغرب الأوربي من ٥٠٠ إلى ٩٠٠» على رأيه موضحاً أن غزوات الجرمان لم تكن الطوفان العنيف المفاجيء الذي اجتاحت الأمبراطور الغربية وأودى بها، ذلك أن اضمحلال تلك الأمبراطورية وسقوطها كانا عملية تدريجية بطيئة استمرت قرنين من الزمان. وكان من الممكن أن تتخذ تلك العملية مسيرة أبطأ، لولا غزوات قبائل الهون المتبربرة التي أفزعت المجتمع الروماني والجرمان على حد سواء. ومن الواضح أنه حدثت تغيرات شملت الرومان والجرمان معاً خلال هذين القرنين، بدليل أن كل الغزاة على وجه التقريب صاروا على دراية بالحضارة الرومانية بصورة متفاوتة، وينبغي ألا ننساق وراء الكتاب اللاتين المعاصرين وهم بصدد الحديث عن اضمحلال وسقوط الأمبراطورية في الغرب، فقد أشاروا إلى أن البرابرة ألحقوا الدمار الشامل بالمدن، على حين أثبتت الكشوف الأثرية أنهم كانوا مبالغين إلى حد بعيد. صحيح أن كثيراً من الأماكن قد قاست بسبب غزوات البرابرة، ولكنها سرعان ما كانت تستعيد مظاهر ازدهارها القديمة، أما الأماكن التي قدر لها أن تتحول إلى حطام في أعقاب غزوة جرمانية، فإنها في الواقع لم تهجر تماماً. ويصل ليسنر في ختام حديثه إلى أنه مثلما اختلطت دماء الأمبراطورية الرومانية بالدماء الجرمانية قبل سقوطها بأمد طويل، فكذلك صارت الشعوب الجرمانية خلال زحفها على الامبراطورية الرومانية.

ويصور هودجكين^(٢) Thomas Hodgkin في كتابه «إيطاليا وغزاتها» سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب قائلاً: «لقد سقطت الأمبراطورية

Thought and Letters in Western Europe. A. D. 500 To 900., 24. (١)

Italy and her Invaders., Vol. II., pp. 532 - 533. (٢)

الرومانية فى الغرب الأوربى، لأنها استنفذت الغرض التى قامت من أجله، وحن الوقت الذى يجب فيه أن تزول بعد أن شاخت وهرمت. كان قيام تلك الأمبراطورية وامتداد نفوذها إلى كل بلاد العالم المتحضرة نعمة جليلة للبشرية، وعلى قدر تلك النعمة كان حكمها الطويل نقمة لعينة، رغم سلسلة الأباطرة المصلحين الذين اعتلوا عرشها مثل تراجان (٩٨ - ١١٧) وماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠). لقد منحت تلك الأمبراطورية جميع الشعوب المطلة على البحر المتوسط السلام والنظام وسيادة القانون، كما أنها مهدت لانتشار المسيحية. ولكن بعد أن طال عمرها، وابتعدت عن الطريق المستقيم، سلبت تلك الشعوب حريتها، وقضت على فضائل الرجل الحر بعد أن طال وقومه تحت نير السلطة الغاشمة المستبدة. وعندئذ حانت الفرصة للشعوب الجرمانية لتجدد شباب العالم الأوربى، وتأتى بالصخب النشيط لبلاد ذلك العالم الذى ران عليه السكون والانقباض الوحش، وامتلاً بالعبيد والطفاة المستبدين. وفى إيجاز، لقد قام بناء الأمبراطورية وسقط فى النهاية، وهذه إرادة الله، ولا راد لقضائه وحكمه».

وتناول المؤرخ سيدنى بينتر^(١) Sidney Painter فى كتابه «تاريخ العصور الوسطى» تدهور وسقوط الأمبراطورية الرومانية فى سطور قليلة قائلاً: «إن ازدهار الأمبراطورية المادى والحضارى كان قد بدأ السير فى طريق الأفول، قبل أن يقتحم الجرمان والمتبربرون حدود الأمبراطورية فى أعداد هائلة، وكل ما فعله أولئك الجرمان أنهم عجلوا بأمر كان قد بدأ فعلاً».

ويذكر المؤرخ كلوف^(٢) Clough وآخرون فى كتابهم «تاريخ العالم الغربى» أن الغزوات البربرية كان لها تأثير فعال على خيال المؤرخين المعاصرين لأحداثها، لدرجة جعلتهم يقررون أن البرابرة كانوا سبب القضاء على الأمبراطورية الرومانية. ولكن الباحثين المحدثين رفضوا أى تفسير بذاته. ذلك أن أزمت الأمبراطورية الرومانية المتأخرة ترجع إلى عوامل متداخلة، داخلية وخارجية.

A Hist. of the Middle Ages., pp. 26 - 28.

(١)

A Hist. of the Western World., p. 120.

(٢)

وتكمن العوامل الداخلية فى فشل الأمبراطورية فى إيجاد نظام ثابت لوراثة العرش، وسياسة الأمبراطورية تجاه البرابرة، ونقص القوى البشرية، وهروب الموظفين المدنيين من ثقل الأعباء الملقاة على أكتافهم، وتحلل الطبقات الاجتماعية، وثقل الضرائب الملقاة على الأقاليم والولايات لمساعدة الجيوش الرومانية، كل تلك العوامل ساهمت فى حدوث الأزمات التى ألمت بالأمبراطورية، فى الوقت الذى ضاعفت فيه غزوات البرابرة من خطورة تلك العوامل.

وأخيراً، لم يكن سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوروبى سنة ٤٧٦م سببه غزوات الجرمان الذين سددوا إليها ضربات تلو أخرى فحسب، بل جاء أيضاً نتيجة عوامل التحلل والتفكك التى أخذت تنهش فيها من الداخل منذ القرن الثالث الميلادى. وهنا نلاحظ أن تلك العوامل كانت بطيئة، غير مباشرة، لم تظهر فجأة على السطح، ولم تقلع المحاولات المخلصة التى قام بها بعض الأباطرة الغيورين على مجد الأمبراطورية ووحدتها فى إيقافها. ومهما يكن الاتفاق أو الاختلاف حول أسباب سقوط تلك الأمبراطورية، فإن ذلك يعنى فى كلمات قليلة أنه من المستحيل القضاء على أية حضارة عظيمة من الخارج، ما لم تكن تلك الحضارة قد قضت على نفسها من الداخل.

المراجع

١- المراجع العربية والمترجمة :

ابراهيم العدوي : (دكتور)

١- المجتمع الأوربي فى العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦١)

٢- المدخل إلى أوربا العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٨)

ابراهيم طرخان : (دكتور)

١- دولة القوط الغربيين.

(القاهرة ١٩٥٨)

٢- نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦)، فصل من مجلة كلية

الآداب-جامعة القاهرة، المجلد ٢٠، العدد الثانى، ديسمبر ١٩٥٨.

٣- تاكيتوس والشعوب الجرمانية .

(القاهرة ١٩٥٩)

اسحق عبيد تاووسروس : (دكتور) .

١- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية.

(القاهرة ١٩٧٢)

٢- من أليك إلى جستنيان .

(القاهرة ١٩٧٧)

أسد رستم :

الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب،

الجزء الأول (بيروت ١٩٥٥)

أومان (شارل) :

الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر.

(القاهرة ١٩٥٣)

بارو(ده):

الرومان. ترجمة عبد الرازق يسرى، مراجعة د. سهير القلماوى.
(القاهرة ١٩٦٢)

ترنتن (كرين) :

أفكار ورجال، قصة الفكر الغربى، ترجمة محمود محمود.
(القاهرة ١٩٦٥)

بل (هـ آيدرس):

مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى . دراسة فى انتشار
الحضارة الهلينية واطمحلالها. نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد
اللطيف أحمد على.

(القاهرة ١٩٦٨)

بينز (نورمان) :

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد.
(القاهرة ١٩٥٧)

تارن (وليم وود ثورب) :

الحضارة الهلينية. ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة زكى على.
(القاهرة ١٩٦٦)

تشارلز وودث (م.ب) :

الإمبراطورية الرومانية. ترجمة رمزى عبده جرجس،مراجعة د. محمد
صقرخفاجة.
(القاهرة ١٩٦١)

توينبى (آرنولد):

مختصر دراسة التاريخ . ترجمة فؤاد محمد شبل،مراجعة محمد شفيق
غربال. الجزء الأول، الطبعة الثانية.
(القاهرة ١٩٦٦)

جيبون (أوارد):

اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها. الجزء الأول نقله إلى العربية محمد على أبودره، راجعه أحمد نجيب هاشم، والجزء الثاني نقله إلى العربية لويس اسكندر، راجعه أحمد نجيب هاشم.
(القاهرة ١٩٦٩)

حسن بيرنيا :

تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني. ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، د. السباعي محمد السباعي، مراجعة د. يحيى الخشاب.
(القاهرة ١٩٧٩)

ددي (دونالد ر.):

حضارة روما. ترجمة جميل يواقيم الذهبي، فاروق فريد، راجعه د. صقر خفاجة.
(القاهرة ١٩٦٤)

دوسن (كريستوفر):

تكوين أوروبا. ترجمة ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
(القاهرة ١٩٦٧)

ديورانت (ول):

قصة الحضارة. الجزء الثاني من المجلد الثالث، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، الطبعة الثانية (١٩٦٣)، الجزء الثالث من المجلد الثالث، عصر الإيمان، الطبعة الثالثة، ترجمة محمد بدران. (القاهرة ١٩٧٣).

راوس (J. I.):

التاريخ الإنجليزى، نقله إلى العربية د. محمد مصطفى زيادة.
(القاهرة ١٩٤٦).

رستوفتسوف (م) :

تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى. ترجمة ومراجعة
زكى على، محمد سليم سالم.

الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٧)

رنسيमान (ستيفن) :

الحضارة البيزنطية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على.
(القاهرة ١٩٦١)

سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)

أوروبا العصور الوسطى. جزآن .

(القاهرة ١٩٧٥)

السيد الباز العرينى: ٣٢٣-١٠٨١م

(القاهرة ١٩٦٠)

عبد اللطيف احمد على: (دكتور).

١-مصادر التاريخ الرومانى .

(القاهرة ١٩٦٤).

٢-مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البريدية .

(القاهرة ١٩٦٥)

على الغمراوى: (دكتور).

١-موضوعات فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٧٢)

٢- ملحمة البطولة الجرمانية.

(القاهرة ١٩٧٢)

٣- دراسات فى تاريخ العصور الوسطى.

جزآن (القاهرة ١٩٧٥)

٤- مدخل إلى التاريخ الأوربي الوسيط.

(القاهرة ١٩٧٧)

عمر كمال توفيق : (دكتور).

تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

(القاهرة ١٩٦٧)

فشر (ل. هـ) :

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى. الجزء الأول، ترجمة د. محمد مصطفى
زيادة، السيد الباز العرينى.

(القاهرة ١٩٦٩، ١٩٧٥)

كاكتور (نورمان ف.) :

تاريخ العصور الوسطى، قصة حياة حضارة ونهايتها، ترجمة د. قاسم
عبده قاسم، مراجعة د. على القمراوى، الجزء الأول.

(القاهرة ١٩٧٧)

كولتون (ج. ج) :

عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم
يوسف.

(الأسكندرية ١٩٦٧)

محمود محمد الحورى : (دكتور).

اللومبارديون فى التاريخ والحضارة .

(القاهرة ١٩٨٦).

موس (هـ، سانتى ل. ب) :

ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة السيد
الباز العرينى.

(القاهرة ١٩٦٧)

نظير حسان سعداوى (دكتور)

تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى.

(القاهرة ١٩٦٨)

١٩٨

هارتمان (ل.م) ،باراكلاف (ج) :

الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى. ترجمة وتعليق د. جوزيف
نسليم يوسف.

(الاسكندرية ١٩٦٦)

هرنشو (ف.ج.س) :

علم التاريخ. ترجمة عبد الحميد العبادى.

(القاهرة ١٩٣٧)

يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة اليونانية.

(القاهرة ١٩٧٠)

(٢)المراجع الأجنبية:

Alfoldi(A.):

The Invasion of Peoples from the Rhine to the Black Sea.
", in Camb. Ancient Hist., Vol.x11. (Cambridge, 1975).

Bang (Martin):

"Expansion of the Teutons. (To A.D.378)", in Camb. med.
Hist., Vol.1. (Cambridge, 1975).

Barker (Ernest):

"Italy and the West , 410-476 ", in Camb. Med. Hist Vol.1.
(Cambridge, 1975).

Baynes (Norman H.).

1- " The Dynasty of Valentinian and Theodosius ", in
Camb.med.Hist Vol. 1. (Cambridge, 1975).

2- Decay of the Western Power and its causes,in Universal
Historyof the World., Edited by J.A.Hammerton., vol. 4.
(London,no date of printing)

Beatty (John Louis) & Johnson (Oliver A.):

Hertiage of Western Civilization.Fourth edition.vol. 1 .(U.
S. A., 1977).

Beck (F. G. M.):

" Teutonic Conquest of Britain.", in Camb. Med. Hist
Vol.1. (Cambridge, 1975).

Boak (ArthurE. R.):

A History of Rome to 565 A. D. (New York, 1930).

Borrow (R.H.) :

The Romans. (Great. Britain, 1975).

Bradley (Henry):

The Goths. Fifth editon (London, 1887).

Bre`hier (Louis) :

The Life`and Death of Byzantium.Translated by Margaret
Vaugham. (Singapore, 1977).

Brooks (E. W.) :

The Emperor Zenon and the Isaurians. English Historical Review. (London, 1893) .

Bury (J.B):

A History of the Roman Empire from its Foundation to the death of Marcus Aurelius (27B.C.-180A.D). (london, 1930).

Cantor (Norman E.)

Medieval History. The Life and Death of a Civilization
Second ed. (U. S. A., 1969).

Cary (M.) & Scullard (H.H.) :

A History of Rome. Third ed. (London, 1975).

Cary (M.) & Wilson (John) :

A Shorter History of Rome. (London, 1963).

Chapat (Victor):

Le Monde Romain. (Paris, 1951).

Charleswoth (M.P.) :

The Roman Empire. (Great Britain, 1961).

Church (A.J.) & Brodribbe (J.) :

The Complete Works of Tacitus. (New York, 1942) .

Clough (Shepard B.), Garison (Nina G.), Hicks (David L.), Brandenburg (David J.), Gay (Peter), Planze (Otto) , Payne (Stantley G.) :

A History of the Western World. (U. S. A., 1965).

Copeland (W. O. L.):

The Germanic Invaders : Their Origins and Culture., in ui-

٢٠١

versal History of the world. Edit by. H. A. Hammerton.,
Vol. 4. (No date of printing).

Deanesly (Magāret) :

A History of Early Medieval Europe. from 476 To 911.
(London, 1960).

Dill (S.) :

1- Roman Society in the Last Century of Western Empire.
(London, 1925).

2- Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. (U. S.
A., 1966).

Downey (Glanville) :

The Late Roman Empire. (U. S. A., 1969).

Glover (T. R.) :

The Conflict of Religions in the Early Roman Empire.
Fourth edition. (London, 1910) .

Grant (Michael) :

The World of Rome. (London, 1960) .

Gregory of Tours :

The History of the Franks., translated by Dalton (O.M.)
(Oxford, 1927), in Heritage of Western Civilization., ed.
by Beatty & Johnson. (U. S. A., 1977) .

Gwatkin (H. M.) & Dixie (M. A.):

" Constantine and his City", in Camb. Med. Hist., Vol. 1.
(Cambridge, 1975) .

Hoyt (Robert S.) & Chodorow (Stanley) :

Europe in the Middle Ages. (U. S. A., 1975) .

Jones (A. H. M.) :

The Decline of the Ancient World. (London, 1975) .

Katz (Solomon) :

The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe.
(New York, 1955) .

Kent (J. P. C.) & Painter (K. S.):

Wealth of the Roman World. Gold and Silver A. D 300-
700. (British Museum, 1077) .

Lindsay (T. M.) :

"The Triumph of Christianity", in Camb. Med. Hist., Vol.
1. (Cambridg, 1975)

Lot (F.) :

1- The End of the Ancient World and the Beginnings of
the Middle Ages. (London, 1931) .

2- Les Invasions Germaniques. (Paris, 1931) .

Lot (F.) & Pfister (C.) and Ganshof (F. L.) :

Les Destinees de L'Empire en Occident de 395 à 768.
(paris, 1940)

Lyon (Bryce) & Herbert (H. Rowen) and Hamerow(TheodoreS.):

A History of Wesern Word: Vol. 1, Second edition. (U.-S.
A., 1974)

Manitius (M.) :

"The Teutonic Migrations, 378-421", in Camb. Med. Hist.,
Vol.I. (Cambridge, 1975) .

Painter (S.) :

A Histoty of the Middle Ages. 384-1500. (Lodon, 1964).

Piganiol (Andre`):

L'Empire Chrétien. 325-395. (Pairs, 1947).

٢.٣

Pirenne (Henri) :

A History of Europe. from the Invasions to the xvi Century.
Transtlated by Bernard Miall from French. (London,
1961).

Previté-Orton (C. w.) :

The Shorter Cambridge Mdieval History ., Vol. 1.
(Cambridge, 1971).

Robinson (Cyril E.):

A History of Europe :Ancient & Medieval., (U. S. A.,
1920).

.Rostovtzeff (M.):]

The Social and Economic History of the Roman Empire. 2
vol. (London, 1957).

Salmon (E. T.) :

A History of the Roman World 30 B: c: to A. D. 138.
(Great Britain, 1974).

Shmidt (Luewig) :

1- " The Visigoths in Gaul, 412-507 ", in Camb. Med.
His., Vol. 1. (Cambridge, 1975).

2- " The Sueves, Alans and Vandals in Spain, 409-429. .
in Camb. Med. Hist., Vol. 1. (Cambridge, 1975).

Sellery (George C.) & Krey (A. C.) :

Medieval Foundations of Western Civiization. (U. S. A.,
1929).

Simons (Gerald) :

The Birth of Europe. (Spain, 1978).

Sinnigen (william G.) & Boak (E. R.) :

A History of Rome To A. D. 565. Six edition. (U. S. A.,
1977).

Stephenson (C.) :

Mediaeval History. Europe from the second to the sixteenth century, Fourth edition (U. S. A., 1962).

Tacitus :

A treatise on the Situation, Manners, and Inhabitants of Germany. The Oxford translation., (London, 1854), in Heritage of Western Civilization , fourth edition, Vol. 1., ed. by Beatty (J.I.) & Johnson (Oliver A.)

(U. S. A., 1977).

Taylor (Henry Osborn):

The Mediaeval Mind. 2 Vols. (London, 1936).

Thompson (J. W.):

History of the Middle Ages. 300-1500. (London, 1931).

Universal History of the World., Edited by Hammerton (J. A.), Vol. 4. (London, no date of printing).

Vasiliev (A. A.):

History of the Byzantine Empire. 2 Vol. (Paris, 1952).

Wand (J. W. C.):

A History of the Early Church to A. d. 500 . (London, 1977).

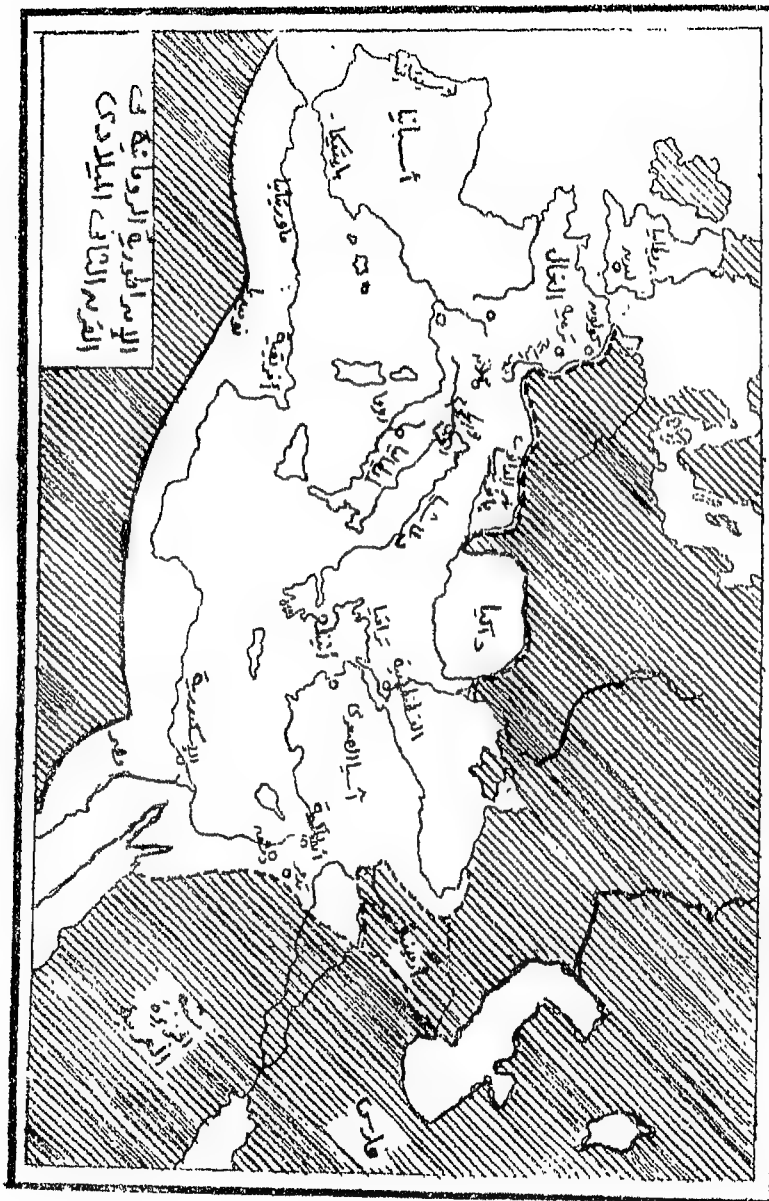
Wdedck (H. E.) :

Concise Dictionary of Medieval History (London, 1964).

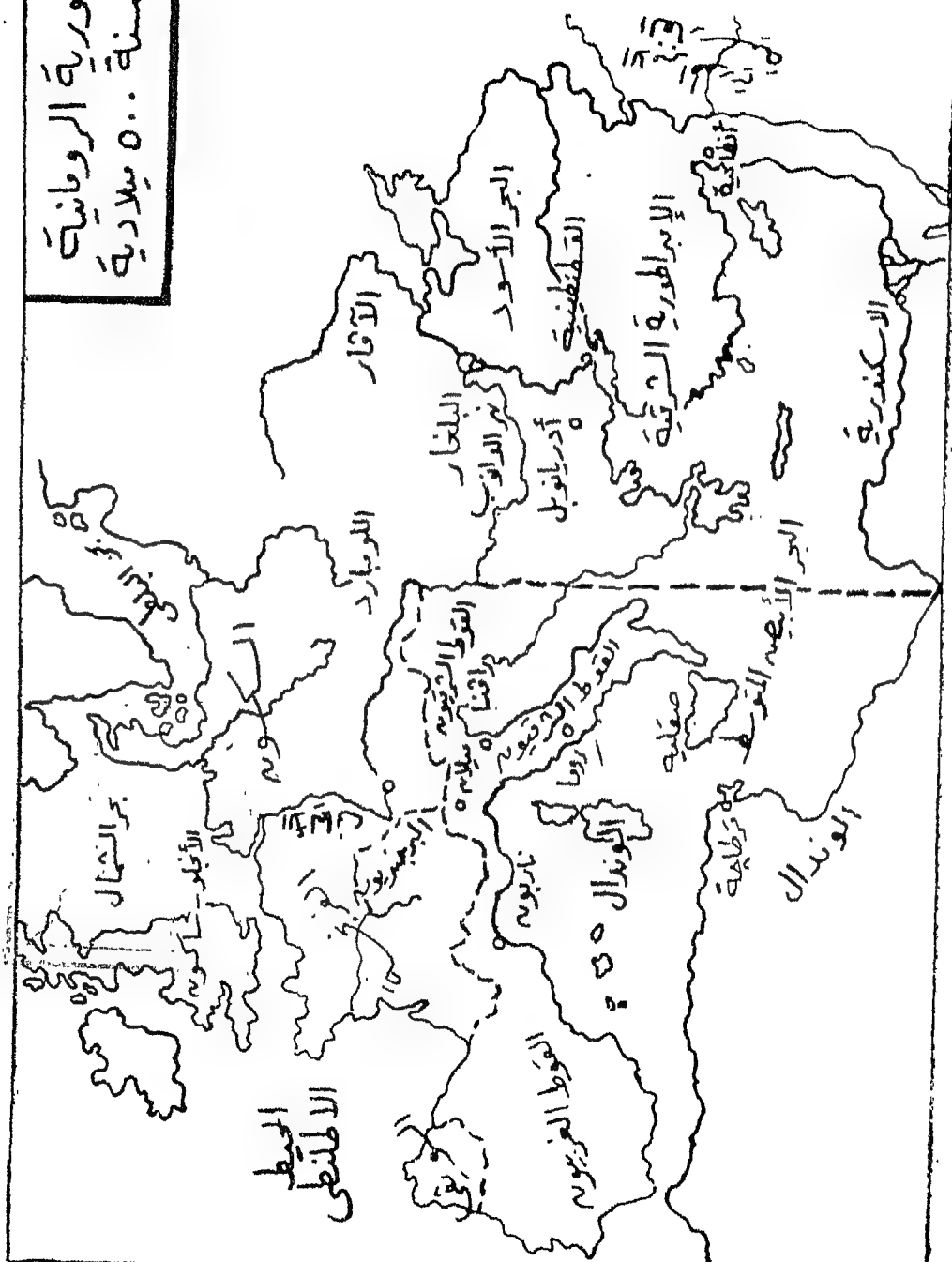
Encyclopaedia Britannica. Vol. .1. (London, 1965)

Encyclopaedia Americana. Vol. 1. (U. S. A., 1962).

The Oxford Classical Dictionary.



الإمبراطورية الرومانية
حوالي سنة ٥٠٠ ميلادية



٢٠٩

محتويات الكتاب

صفحة
(٨ - ٣)

مقدمة المؤلف

الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية الرومانية في القرنين الثالث والرابع. (١٠-٤٥)

حدود الإمبراطورية- السمات المميزة لها في القرنين الأول والثاني- ضعف الإمبراطورية منذ القرن الثالث - المشاكل الداخلية التي ألت بها - أحوالها الاقتصادية والاجتماعية - الجيش - السلطة الإمبراطورية - الأخطار الخارجية - الجرمان - الحرب بين الفرس والرومان - دولة تدمر - دقلديانوس - قنسطنطين - تأسيس مدينة القسطنطينية.

الفصل الثاني

المسيحية والإمبراطورية الرومانية. (٤٧ - ٨٠)

الديانات الوافدة من الشرق - المذاهب الفلسفية - الرواقية - ظهور المسيحية - انتشار المسيحية في القرن الأول - عبادة الأباطرة - اضطهاد أنصار المسيحية - مرسوم ميلان سنة ٣١٣م - إعلان شأن المسيحية وضعف الوثنية - أباء الكنيسة - الأريوسية والأتناسيوسية.

الفصل الثالث

المجتمع الجرمان وعلاقته المبكرة بالإمبراطورية. (٨١ - ١٠٧)

الموطن الأصلي للجرمان- تاكيتوس- عادات الجرمان

صفحة

وتقاليدهم- المرأة الجرمانية-تحرك الشعوب الجرمانية فى القرن
الثانى قبل الميلاد-يوليوس قيصر والجرمان-علاقة الجرمان
بالإمبراطورية فى القرنين الأول والثانى للميلاد-غزوات الجرمان فى
القرن الثالث-تغلغلهم داخل أراضى الإمبراطورية.

الفصل الرابع

غزوات الجرمان وتأسيس ممالكهم فى غرب أوروبا . (١٠٩-١٥٦)

الهون-القوط الغربيون-معركة أدرينبول سنة ٣٧٨م-توطيد
نفوذ القوط الغربيين فى الغال وأسبانيا-الوندال فى القرن
الثالث-جزريك الأعرج-عبور الوندال إلى أفريقيا- البرجنديون -
اتصالهم بالحضارة الرومانية - الأليمانى - الفرنجة الساليون
والفرنجة اليبواريون - استقرار الفرنجة فى الغال - كلغيس -
اعتناق الفرنجة المسيحية على المذهب الكاثوليكي.

الفصل الخامس

سقوط الإمبراطورية فى غرب أوروبا (٤٧٦م) . (١٥٧-١٩١)

تقسيم الإمبراطورية سنة ٣٩٥م-الجزء الغربى من
الإمبراطورية فى أيدي القادة العسكريين-أنتيوس-ريكيمر صانع
الباطرة-أحوال الجزء الشرقى من الإمبراطورية-تدفق الجرمان
على إيطاليا سنة ٤٧٦م-أودواكر-رومولوس أوغسطولوس-سقوط
الإمبراطورية الغربية-تأسيس الممالك الجرمانية-آراء بعض
المؤرخين حول تدهور وسقوط الإمبراطورية الغربية.

المراجع التى اعتمد عليها المؤلف . (١٩٣-٢٠٤)

الخرائط. (٢٠٥-٢٠٧)

١٩٩٥/٩١١٧	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5086-4	الترقيم الدولي

٣/٩٥/٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

